# عيون الأفعى

## خالد أمين

رواية

دار دون

CamScanner

@ART_OF_BOOK

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف»

# تمهيد

هل تعلم أن هناك سببًا لخوفك من الظلام؟ تلك الرجفة التي تسري بعنقك عندما تحيط بك الظلال...

أنا أعلم هذا السبب، ولسوف أحكي لكم عنه.. أتمنى فقط أن يكفيني الوقت.. فها أنا ذا أزحف على التربة الطينية والأمطار تنهمر.. تزأر العاصفة.. أنزف.. كلا.. سيكفي الوقت كي أحكي لكم حتى لو كنت ألفظ أنفاسي الأخيرة.. سأحكي عن الخوف.. وسبب اختفاء العشرات من المدينة.. اختفوا من داخل غرفهم الموصدة بلا أثر.. يا لها من حكاية.. من أين أبدأ؟ ربما بحقيقة أن نمط تلك الجرائم مطابق تمامًا لحالات اختفاء مماثلة قد حدثت منذ مائة عام.. آه كلا تلك ليست بنقطة البدء الحقيقية..

«كانت الساعة الثامنة مساءً عندما فَقَدَ كل من بالقاهرة وعيهم لمدة عشر دقائق كاملة.. وبعدها لم يعد شيء كما كان أبدًا».

أعتقد أن كل شيء يبدأ مع تلك الجملة، الحقيقة أن هناك دومًا شيئًا ما يحدث لكن لا أحد يلاحظ أبدًا.. نعم.. كانت تلك نقطة البدء.. سوف أحكي لكم عن الأحداث التي أودت للمرة التي كدت أن أموت بها، أنتم ترونني الآن أزحف نازفًا وسط الأمطار، أرفع رأسي لأعلى فلا أجد نجومًا في السماء، أسقط أرضًا، «في نهايتي تكمن بدايتي» كما تقول العبارة القديمة، دعوني آخذكم للحظة البدء.. أستند على مرفق السيارة أمام هذا البيت القديم ذي المدخنة الراسخ فوق التلة

الخضراء، لقد حدثت أشياء يشيب لهولها الولدان وتقشعر لها الأبدان الليلـة في هذا البيت، نعـم، دعوني أقصُّ عليكم ما حدث منذ البداية.. في تلك المدينة..

بعد كل تلك الأعوام والذكريات، تَلوح لي نهايتي، ساخرة وغير مبالية، عجولًا وحازمة.

ألتفت خلفي، أشعر بأن حياتي كلها تختفي بعيدًا، كقصيدة جميلة كتبتها يومًا ما ثم أضعتُها ونسيت كلماتها، كل شيء ينطفئ، هل يكفي الوقت كي أحكي لكم...

عن سر فقدان الكل لوعيهم؟

عن حالات الاختفاء التي حدثت بعد ذلك؟

فقط أتمنى أن يكفي الوقت لأحكي كل شيء..

من الذي اخترع الوقت على أي حال؟ يقولون إن البشر اكتشفوه، وهو قد ترسَّب بوعيهم الجمعى على مدار العقود، وربما هم اخترعوه ليقيدوا حياتهم ويشعروا بضياعه، مثلما اخترعوا النقود ليجدوا شيئًا يلهثـون وراءه، وبنوا كل تلك الشـقق والبيوت ليسـتقطعوا من دمائهم كي يتكمنوا من سـداد أقسـاطها، كأنما الإنسان قد قرر زهق كل معاني الحرية في حياته بتأسيس تلك الأنظمة العجيبة، في القدم كانوا يقولون إن الإنسـان اخترع وسـائل تعذيب وقتل جسـدية قاسـية، ولا أتحدث عن الخازوق والمقصلة والغلي بالماء والسـلخ وكل وسـائل الإعدام الرهيبـة تلك، ولا حتى القنبلة النوويـة، بل أتحدث عن الوقت والمال وتسمية الأيام السبع لكي يشعر الجميع بأنهم في دائرة لا تنتهي، انتهى يوم الجمعة، لكنه سـيبدأ مرة أخرى بعد سـبعة أيام، فاسـتعد للدوران فـي الطاحونة مجـددًا، أو ربما.. فقـط ربما.. الإنسـان وضع كل تلك

الأشياء ليُقنع نفسه بأن كل شيء على ما يرام ويسير برتابة، ليشتت نفسه عن حقيقة ما يحدث حوله، وأن هناك أشياء تحدث خارج حدود تفكيره ورؤيته، أشياء تحدث دومًا ولا يلاحظها أحد، تجدها في عتمة الليل وبين الظلال، وعن تلك الأشياء تدور حكايتي، أنا بصدد حكي كابوس لكم، وأعتقد أني أعرف من أين أبدأ الآن..

هل تعلمون لماذا نخاف في الظلام؟ أنا أعرف الإجابة، ولسوف أفصح عنها لكم خلال السطور التالية..

فقط لا تتهموني بالجنون لما أنا بصدد حكايته، وحاولوا ألا تصابوا أنتم به إبان استماعكم..

دعونا نبدأ..

سأحكي لكم عن فتاة تدعى «سيلين» اختفى زوجها، وعراف أقنعها بالقيام بجلسة تحضير أرواح لاستدعاء روح ضحية اختفت منذ مائة عام بنفس الطريقة، في محاولة لكشف حقيقة تلك الاختفاءات..

لن تكون تلك جلسة تحضير أرواح عادية على الإطلاق، خذوا نفَسًا عميقًا قبلها وحاولوا ألا يدق الرعب في قلوبكم..

كان يا ما كان..

@ART_OF_BOOK



CamScanner

# الفصل الأول

كانت الساعة الثامنة مساءً عندما فقد كل من بالقاهرة وعيهم لمدة عشر دقائق كاملة، ولم يستطع أحد أبدًا تفسير ما حدث، للحظتنا تلك على الأقل، كلا.. لم تنقطع الأنوار عن المدينة، لم ترتطم سيارات نقل سريع ببعضها، لقد كانوا البشر أنفسهم هم الحادثة، وهكذا فَقَدَ كل من بالمدينة وعيه، دون أي مقدمات..

لنرى معًا بعضًا من الذين كانوا يمارسون حياتهم بشكل معتاد قبل أن يفقدوا وعيهم دون سابق إنذار، هؤلاء المتعارف عليهم باسم.. ضحايا!

خذ عندك «أحمد» على سبيل المثال الذي كان يقود سيارته بقلب ينبض وابتسامة عريضة على شفتيه في الثامنة إلا خمس دقائق، يده على المقود بينما الأخرى تتحسس الهدية التي ابتاعها لخطيبته «يمنى»، يزيد من سرعة السيارة، بينما تقف «هويدا» شاردة على حافة الرصيف تتحسس معدتها الممتلئة، وتهمس لنفسها: «لا أصدق أني في الشهر السابع»، وتعالت دقات قلبها ولكن لأسباب مختلفة عن تلك التي تجعل قلب «أحمد» يتراقص في حماسة؛ لأن هويدا كانت خائفة من كل تلك التغيرات المرعبة الماثلة بجسدها، وما سيحدث بعد ذلك، سحقًا لهؤلاء الذين يعتقدون أن الإنجاب عملية سهلة ومعتادة، لكنها طورت لنفسها عادة تُشعرها بقليل من الاطمئنان، ألا وهي تخيُّل نفسها بعد أعوام مع طفلتها، «نعم هي فتاة يا سيدتي».. كذا قال لها الطبيب مبتسمًا، وتساءلت «هويدا» في قرارة نفسها: لكم من

مرة تدرب هذا الطبيب على رسم تلك الابتسامة أمام مرضاه؟ نعم هي فتاة.. آه أين كانت؟ يا لانسياب وعشوائية أفكارها في تلك الأيام.. نعم نعم.. أصبحت تشعر بالأمان نوعًا ما وهي تتخيل نفسها مع ابنتها في المستقبل، لا آلام وضع ولا انهيار جسدي، فقط هي وطفلتها تشاهدان الرسوم المتحركة معًا، تلك الفكرة تسري بالطمأنينة في قلبها، يشير إليها زوجها «ماجد» بشرود من السيارة كي تعبر الشارع إليه وتستقل سيارتهما فتهز رأسها له.

«ماجد».. زوجها الذي لم يكن، لشدة ما تغيَّر، منذ أعوام كان يهرول ليساعدها في عبور الشارع ولم تكن حتى حبلى حينذاك، مجرد فتاة جميلة رشيقة مع خطيبها المحب لها، الآن هو يجلس ممتلئ الجسد ناحل شعر الرأس بشرود واجمًا كأنه هو الذي يحمل الطفل في أحشائه بدلًا منها، تتنهد «هويدا» وتضع يدها على معدتها؛ لأنها تؤلمها، وليس لأن هذا ما تفعله الحوامل عادةً، تنظر يمينًا ويسارًا، هناك سيارة قادمة من على بُعد يقودها «أحمد» المتجه بهدية شديدة الرومانسية لخطيبته «يمنى»، لكن السيارة على بُعد آمن، تبدأ «هويدا» في عبور الشارع..

يزيد «أحمد» من سرعة سيارته وينظر للهدية.. الرومانسيون يستمتعون دومًا بجلب الهدايا لأحبائهم، يستمتعون بكل التفاصيل؛ مثل التحضير، واختيار الهدية، وتخيُّل ردة فعل أحبائهم إلخ...

فقط لو كان يعرف أنه لن يصل ليعطيها تلك الهدية أبدًا..

الثامنة إلا دقيقتين..

وفي شقتها تقف «سعاد» وهناك إناء طهي ممتلئ بالماء المغلي على الموقد المشتعل، وفي الصالة يحاول «ممدوح» زوجها إصلاح



CamScanner

عطل الكهرباء خلف قابس النور..

الثامنة إلا دقيقة قبل أن يفقد كل من في القاهرة وعيه..

يستلقي «شريف» بهدوء وهو عاري الجسد في البانيو الممتلئ بالماء الرخو، كل ما يحتاجه هو القليل من الراحة بعد يوم شاق من العمل، يغمض عينيه ويغطس..

وفي بيت خالتها تقف «آيتن» ابنة العشرين عامًا، بشعرها الأسود وجسدها النحيف، ووجهها الجذاب، وتنظر بعينين يكللهما السواد للمرآة وتقول محدثةً نفسها وهي تحاول إجبار عقلها على عدم استرجاع الذكرى المفجعة لرحيل والدتها عن هذا العالم: «أنت بخير، ستكونين بخير يا آيتن»..

أما «كارم العدوي» فلقد جلس في غرفة المعيشة، يتحدث مع مجموعة من عرائس الدمى وهو يزين وجهه بطلاء وجه مهرّج، كان يقفز بحماسة من مقعد لآخر قبل أن يستقر على الأريكة واقفًا وينحني أمام جمهوره الوهمي، ثم يقول وهناك ابتسامة جانبية على وجهه: «آه.. آه.. لقد انتهى عرض اليوم مع كارم العدوي، محب المغامرة والجنون»..

لوهلة هدأ جسده وكاد أن يبكي، كيف ولّت حياة المغامرة والترحال، وأضحى وحيدًا يقدم عروضًا لتلك العرائس بدلًا من أناس حقيقيين يشاركهم حياته وينبهرون به، تنهد «كارم» متذكرًا حياته في السيرك، والآن هو رجل عادي داخل شقة ببناية ما..

«كلا، لا تستسلم لتلك الطاقة السوداء التي تتسلل لقلبك». يقولها لنفسه قبل أن يقفز من على الأريكة ويلتقط دمية لسندريلا يحتضنها برفق ويرقص معها على أنغام خفية وهو يدندن، ثم يقف معها قبالة

النافذة ويشير للبناية المقابلة لهم مردفًا للدمية: «انظري يا جميلتي مثلًا لساكني تلك البناية، يحيون وهم عبيد للديون والمسئولية وكل ما يريدونه هو قبول الآخرين لهم، مدير يحاول تعويض كبريائه وإهانات زوجته له بتحويل حياة الموظفين الجدد لجحيم... إلخ إلخ.. لكني أنا «كارم العدوي»، بطل الملاكمة والعدو والترحال، أنا أكبر من تلك الحياة»..

ثم ضحك بصوت عالٍ وقبَّل الدمية قبل أن يضعها جانبًا خلف جرامافون به عدد ضخم من أسطوانات الموسيقى الكلاسيكية بجوار مكتبة بها روايات مغامرة مثل توم صوير وجزيرة الكنز وأرسين لوبين، تثاءب «كارم» ومطَّ ذراعيه لأعلى.. ثم لمح فتاة جميلة تقف بشرفتها المقابلة لنافذته، كانت تستند برفق وشرود على مسند الشرفة، رفع «كارم» حاجبيه وهمس: «تبدو جميلة كزجاجة مياه مثلجة وسط الصحراء القاحلة»..

وخلف «كارم» استقرت جريدة قديمة تحمل عنوان: «المغامر والرحالة كارم العدوي، لص أفاق أم بطل شعبي؟»

وفوق تلك الجريدة هوى رأس «كارم» فاقدًا للوعي عندما حلَّت الثامنة مساءً..

وأمام مرآتها سقطت «آيتن» بسرعة وخفة، ليرتطم رأسها بحافة التسريحة التي اهتزَّت بقوة كأنها موشكة على السقوط بالمرآة فوق رأس الفتاة..

كما قلت لكم في البداية، لقد فقد الجميع وعيهم في الثامنة مساءً بلا استثناء..

حدث الأمر بسرعة خاطفة كعادة الكوارث عندما تقع، اسأل فتاة

اكتشفت خيانة حبيبها، أو ناجيًا وحيدًا من حافلة انقلبت على الطريق، أو رجلًا خرج من بناية تحترق، ولسوف تجدهم يقولون نفس الشيء في ذهول ومحاولة لفهم الكارثة التي عصفت بحياتهم: «لقد حدث الأمر في ثوانٍ، ثوانٍ معدودة تغيِّر كل شيء بعدها»..

الثامنة مساءً، نور ساطع غاشٍ، ربما كان برقًا..

ثم رحل الوعي، حاملًا حقائبه وملوحًا بيده في عجالة، مقررًا قضاء عطلة عاجلة وبعيدة..

***

«هويدا» تعبر الشارع بجنينها، ثم تجفل عند سماع بوقٍ عال، تنظر أمامها لتجد أن رأس «ماجد» زوجها قد سقطت فوق مقود سيارته..

***

يفقد «أحمد» وعيه وهو بالسيارة، وتزيد قدمه من ضغطها على الوقود، وتنطلق الإطارات مصدرةً صيحة هجوم مخيفة.. صوب «هويدا»..

***

في أقل من ثانية سقطت «هويدا» أرضًا بلا حراك.. مغمضة العينين، هل فقد جنينها وعيه بدوره؟ هل كان يمتلك وعيًا؟ تلك أسئلة جميلة لكن لا يوجد أحد للإجابة عنها..

لقد سحقت إطارات سيارة «أحمد» رأس هويدا تمامًا لتحوِّلها لكتلة من العجين المكون من اللحم والعظام.. وتناثرت دماؤها مكونةً بركة أنيقة من الدماء حول عنقها..

***

«سعاد» كانت زوجة متفانية بحق، تعد عشاءً ضخمًا لعائلتها بلا، ربما لو كانت فقط قد أعدَّته في وقت مبكر من هذا، لما انتهى الأمر برأسها داخل إناء الماء المغلي..

***

زوجها «ممدوح» لم يلاقِ مصيرًا أفضل وهو في الصالة، لقد سقط مغشيًا عليه ومغمض العينين بفم مفتوح صوب أسلاك الكهرباء العارية التي كان يحاول إصلاحها، لا أعتقد أنه يوجد داعٍ لوصف المشهد السيريالي التالي..

الرجل الذي التهم الكهرباء..

الأسلاك داخل فمه ولعابه هو وقودها، يرتجف جسد «ممدوح» بلا توقُّف وهو مغمض العينين، ينتفض ويرقص رقصة الموت الأخيرة، ويحترق شعره ويفحم السواد جلد ذراعيه ووجهه..

***

وأمام المرآة التي لم تكن سحرية ظلت «آيتن» مستلقيةً أرضًا، كأنها في مشهد لقصة الجمال النائم..

***

هذا ما حدث في الثامنة مساءً، ليلة الثلاثاء، الثلاثون من شهر يوليو، ولمدة عشر دقائق أصبح الكل نيامًا، المدينة كلها ساكنة، لا توجد حركة، لا توجد حياة..

لم يعد هناك أحلام وخطط ومؤامرات ومشاجرات وعمليات بيع وشراء، فقط السبات الكبير والعميق الذي حل بالجميع..

بعض المتاجر احترقت، لم يحالف الحظ من يحبون السباحة

الليلية في النوادي، المتشردون وفاقدو الأهلية بالكاد لاحظوا ما حدث، فقط غَفَوْا قليلًا واستيقظوا بعدها..

في الثامنة وعشر دقائق بدأ الجميع في استعادة وعيه، تفتح «آيتن» عينيها، وهناك صداع رهيب يكتنف رأسها، ودوار لا مثيل له.

***

هؤلاء الذين سقطوا في الشوارع يتحركون ببطء كأنهم في مشهد لفيلم «ليلة الموتى الأحياء»، وتعود الحياة الى أجسادهم ببطء، يقفون في ذهول ويتحسسون رؤوسهم من أثر الصداع، أحدهم يرفع رأسه وينظر للسماء متمتمًا بشيء ما..

أبواق سيارات مهشمة من حولهم، والكثير من الزجاج المهشم في كل مكان..

ويبدأ الصراخ من البنايات السكنية عندما بدأ يفيق قاطنوها، ربما «أمينة» كانت صاحبة الصرخة الأولى عندما وجدت «شريف» جثة محدقة العينين في البانيو الغارق بالمياه، ربما صرخت لمرآه، أو لسبب آخر تمامًا، لتلك النظرة في عينيه، كأنه قد رأى شيئًا سلبه روحه من الصدمة، كأنه قد رأى ما لا يجب علينا أبدًا أن نراه أو نعرفه، كأنه قد رأى حقيقة وسبب الهول الذي تسبب بفقدان الكل لوعيهم قبل مماته.

***

أرى أني قد شردت ووصفت لكم ما حدث ليلة فقدان الجميع لوعيهم.. كان هذا منذ أعوام.. دعونا نرى ما الذي حدث الآن.. في تلك الليلة الممطرة.. لفتاة تدعى «سيلين».. مرحبًا بكم في المدينة..

***

جزء من قصاصة جريدة ورقية نصف محترقة:



CamScanner

وهكذا نوصي كل سكان المدينة بأن يوصدوا أبواب منازلهم جيدًا، لا تزال حالات الاختفاء مستمرة، في البدء كانوا فاقدي الأهلية والمشردين، ثم انتقل الأمر لقاطني البيوت، على الجميع أن يتوخوا الحذر.

●●●

جزء من جريدة عمرها مائة عام:

حالات الاختفاء تتزايد بشدة، كل عائلة يزورها الجنون والأسى بعد فقدانها لأحد أفرادها.

●●●

صوت من المذياع:

«حالة اختفاء جديدة، تلك المرة اختفت الضحية من داخل غرفتها المغلقة بينما عائلتها يقبعون داخل البيت، ومن الجدير بالذكر أن باب غرفتها وكذلك الشرفة كانا محكمَي الإغلاق وموصدين من الداخل!».

●●●

عبارة كتبها أحدهم فوق جدار قديم مهترئ بالمدينة: «حاولوا أن تتذكروا».

●●●

أغلق أبوابك جيدًا..

تفقّدْ خزانتك وأسفل فراشك..

لا تفتح عينيك وأنت نائم..

ولو شعرتَ به يتنفس في عنقك فقل على الدنيا السلام..

هو قادم ليأخذنا جميعًا

***

كان يـا مـا كان.. هناك فتاة جميلـة تدعى «سيلين».. وهي وعلى وشك المشاركة في جلسة تحضير أرواح لمعرفة سر اختفاء زوجها!

لم تصدق «سيلين» أنها موشكة على القيام بما هي موشكة على القيام به حقًا..

وقفت أمام المرآة وتحسست معدتها، شعرت بحركة الجنين عندما لامست أناملها جدار بطنها، تخيلت ساقه الرقيقة وهي تركل فاختلج قلبها، وقالت محدثة إياه: هل تشعر بيد أمك يا حبيبي؟ رغمًا عنها دمعت عيناها، ربما هذا يحدث للجميع ومنذ ملايين الأعوام، لكن لا شيء معتاد عندما يحدث لك أنت، هي لا تصدق أن هناك كائنًا حيًا بداخلها، ابنها، وقريبًا سوف تحمله بين ذراعيها، رغم كل الآلام والتغيرات الفسيولوجية المجنونة، هي تشعر كأنها ساحرة، وتقدم معجزة لنفسها وللبشرية، غمرت الغبطة صدرها وتزايدت ابتسامتها، ثم أردفت محدثةً طفلها الذي لم يولد بعدُ: «أنا في انتظارك، أنت ابن الثمانية أشهر الآن، سأكون دومًا هنا من أجلك، آه لشدة ما أحبك»..

ونظرت لانعكاس نفسها في المرآة، كانت ترتدي فستانًا قرمزيًا طويلًا يكشف عن ذراعيها، وقلادة فضية جميلة، أخذت نفسًا عميقًا وارتمى ظل الستارة على عظام الترقوة المرسومة بدقة أسفل عنقها الخلاب، ثم حركت عينيها رغم أنها لم تُرد ذلك حقًا ونظرت لساعتها، باقٍ سبع دقائق ويصل ضيوفها، لفندق كابريني الخالي من الضيوف والموظفين، حيث تنتظرهم صاحبة الفندق الحبلى، صاحبة الفندق

التي تحيا في الغرفة رقم ثمانية بالفندق، عندما ابتاعت هي وزوجها الفندق وقررا أن يعيشا به، والتحضير لافتتاحه منذ أشهر كانت تتوقع حياة مختلفة تمامًا عما آلت إليه الأمور في تلك اللحظة..

سيصل ضيوفها ويحدث الأمر، ولن يحدث ضرر، كذا طمأنت نفسها..

قلبها ينقبض، لكنها تشعر بقليل من الأمان والدفء كلما مارست تلك العادة التي طورتها خلال آخر أشهر ألا وهي الحديث مع جنينها كأنه يسمعها، وأحيانًا تشعر بأفكاره تنساب إليها كأنه يردُّ عليها ويطمئنها بدوره..

أخذت «سيلين» نفسًا عميقًا، منذ ثلاثة أعوام وقعت تلك الحادثة إياها، فقدان الناس لوعيهم، تحدَّث الكثير من الخبراء بعدها وأدلى الكل برأيه فيما حدث، لكن لم يكن هناك تفسير محدد، ومع مرور الوقت قرر الجميع تناسي ما حدث، الإنسان يتجاهل دومًا ما لا يستطيع فهمه في النهاية، لكن لا أحد قادر على الإنكار أن تلك الواقعة قد تركت أثرًا ما بداخل أصحاب الخيال والواقعيين سواء، هناك شيء ما حدث، لا تفسير له، لكن هذا الشيء يبتسم لنا ويشير لباب موارب اسمه المجهول، وربما هذا كان أحد الأسباب التي جعلت «سيلين» توافق على مسألة تحضير الأرواح تلك..

تخيَّلت جنينها الرابض في رحمها، يفتح عينيه ويتحرك، يتثاءب ويتمطَّى ثم يقول: «لا تفعليها يا أماه.. لا تفعليها»..

شعرت «سيلين» بغُصة مفاجئة بحلقها، وتسارعت دقات قلبها، ثم أجابته: «أنا مضطرة، من أجلك.. ومن أجل الجميع»..

- «هذا كذب يا أمي، ليس من المفترض أن تكذبي عليَّ، أنتِ

تُعرضيننا للخطر، أنا وأنتِ، بما ستفعلينه، ومن المفترض أن كلانا، أنا وأنت، الأولوية والأكثر أهميةً أليس كذلك؟».

انسابت دمعة على جفن «سيلين»، فسمحتها بسرعة كأنما الجنين سيراها، وقالت: «سنكون بخير».

بدأ الجنين في النحيب، تخيلته يكاد يقوم غاضبًا ويمزّق رحمها وهو يصيح: «أنا وأنت وحدنا في تلك الدنيا، وأنت تفعلين كل هذا من أجله هو»..

تغيَّرت نبرة الجنين واعتلاها قليل من الغيرة وهو يردف: «من أجل أبي.. من المفترض أن تهتمي بي أنا أكثر».

ربتت «سيلين» على معدتها، وتحركت من أمام المرآة لتجلس بجوار الهاتف الأرضي، وقد آلمتها معدتها وظهرها، وشعرت بالجنين يركل بقوة كأنه يعترض حقًّا على ما سيحدث، وغمغمت هي: «أنا لن أهتم بأحد أكثر منك يا حبيبي، لكن.. أبوك بحاجة لنا».

قالتها بصوت متهدج وحزين، ثم انتفضت عندما رنَّ الهاتف، نظرت إليه شاردةً وهو يرن، هاتف أسود ذو دائرة أرقام عتيقة، مدَّت «سيلين» يدها واعتصرت سماعة الهاتف الباردة..

ترررن.. ترررن

«طاك طاك طاك».

ترررن.. ترررن..

رفعت «سيلين» السماعة، أتاها صوت د. «كامل كمال»:

- هل أنتِ بخير؟

أجابته بتردد:

- نـ.. نعم..

- حافظي على ثباتك، سنصل عما قريب..

ثم قال «كامل» شيئًا ما لم تسمعه «سيلين»، ما هو كنه هذا الصوت الغريب الذي تخلل رنين الهاتف، طاك طاك، قطبت جبينها محاولةً التقاط هوية الصوت دون فائدة، ثم عادت لسماع صوت «كامل» وهو يواصل حديثه:

- كل شيء سيكون بخير..

هزّت «سيلين» رأسها كأنه يراها، ثم أعادت سماعة الهاتف مكانها..

كليك!

طاك..

هزّت رأسها، ثم تلفتت حولها، ويدها مستقرة على معدتها..

هناك أمر يجب أن نعرفه بشأن «سيلين»، ألا وهو أنها دقيقة الملاحظة لحد مبهر، وتمتلك عقلًا استنباطيًا يجيد التحليل والاستنتاج، لكنها كانت شاردة بحق في تلك اللحظة، دقة ملاحظتها تسقط أرضًا داخل الحقول الخضراء المترامية داخل عقلها، تحاول الوقوف فيتكالب عليها الشرود وفرط التفكير ويوسعانها ضربًا، تبصق دقة الملاحظة دمًا، وتحاول الوقوف، بعين متورمة ووجه ينزف، فيجثم عليها الشرود ويحيط عنقها بذراعه ثم يبدأ عملية الخنق، تحاول دقة الملاحظة أن ترفع ذراعها وتصيح بشيء ما لسيلين لكن فرط التفكير يكمم فمها، تجحظ عينا دقة الملاحظة، ذراع الشرود يكاد يهشم عنقها، وتظل مشيرةً في صمت بذراعها، آملة أن تنتبه إليها «سيلين»، ولكن الأخيرة لم ترَ، ولم تنتبه، ربما بقليل من التركيز لكانت أدركت

أن الجنين قد ركلها بقوة في كل مرة سمعت فيها هذا الصوت الغريب، طالما كأنه يسمعه ويشعر بصاحبه كذلك، ولعلها كانت لتتذكر ما قرأته منذ أعوام عن حواس الأطفال وغرائزهم التي تستشعر الخطر، نحن نعلم أن الأطفال يمتلكون حاسة تجاه من يحبهم ومن يدَّعي اللطف، لكنهم كذلك يمتلكون بوصلة شعور بالمخاطر، والأهم من هذا كله هو عدم ملاحظتها للتموج الواضح خلف ستارة شرفتها، حيث يوجد مصدر هذا الصوت، لم ترَ انعكاس تلك العينين المحدقتين بها على زجاج نافذة الشرفة، وأغمضت دقة الملاحظة عينيها وقد كفَّت عن المقاومة، أما «سيلين» فقد نظرت لصورة زوجها المستقرة في البرواز فوق الكومود، وتنهدت..

ثم أجفلت عندما سمعت حركة في الطابق السفلي وصوت الجرس المعدني المستقر فوق باب الدخول يدق، لقد وصلوا..

«لا تفعليها يا أماه».

«ثق بي يا حبيبي».

كذا فكرت «سيلين»، وألقت نظرة أخيرة على صورة زوجها، وسمعت صوت «كامل» يصعد الدرَج..

لم تصدق «سيلين» أنها موشكة على القيام بما هي موشكة على القيام به.. لكنها خرجت من غرفتها وسارت في ردهة الفندق، واستقبلت ضيوفها، «كامل كمال» العراف الشهير في الأوساط لمن يهتمون بالروحانيات، ورجل عجوز، مجذوب للدقة العلمية ومتشرد في نظر العامة، لا أحد يعرف اسمه، لكن من يتعاملون معه يعرفونه باسم القبطان، وسيدة أربعينية ترتدي قبعة فيكتورية أنيقة وفستانًا مرصعًا بالألماس، مزيج غريب ومتناقض من الضيوف لو أردتَ

رأيي، لكن أحدًا لم يدَّعِ أن أعضاء جلسات تحضير الأرواح يمتازون بالتقليدية!

***

«لا تفعليها يا أماه».

***

طاك!

***

نقل «كامل كمال» ناظريه بين الجالسين أمامه حول المنضدة بالطابق السفلي للفندق، الأمطار تنهمر بالخارج وترتطم بالنوافذ، صوت الرياح العاتي يتزايد فتشعر بأن الأبواب كلها سوف تنفتح فجأة، شعرت «سيلين» بألاعيب الظلال مع الضوء الأحمر الخافت المنساب من الإضاءة تتلاعب على وجوه الحاضرين، وكادت أن ترى نظرات جنينها اللائمة لما هي بصدد فعله في تلك الآونة، أخذ «كامل كمال» نفسًا ثم تحدث، وهناك صف من الشموع أمامه، ينعكس لهيبها على حدقتي عينيه، ومع صوته بدأت «سيلين» في استرجاع الأحداث التي قادتها لتلك اللحظة.. وقال «كامل» بهدوء:

- انظروا لعقارب الساعة داخل هذا البندول، ولسوف يهيئكم صوتي للبدء، عليكم بالاسترخاء وإراحة عقولكم تمامًا، نحن على وشك التواصل مع عالم لم يَخْطُه العقل البشري منذ عقود.. عالم الأرواح، اعقدوا أيديكم ببعضها ومهما حدث، أكرر.. مهما حدث.. لا تترك يد من يجلس بجوارك أبدًا..

واصل «كامل» حديثه، واستقرت عينا «سيلين» على عقارب البندول وهي تتذكر..

تتذكر..

جفناها يثقلان..

تتذكر كيفما بدأ كل شيء، عندما أتت مع زوجها لرؤية الفندق للمرة الأولى حاملين معهما كل مدخراتهما وأحلامهما..

***

مرحبًا بكم في فندق كابريني، عمره يناهز المائة عام، لتتجول في ردهاته وغرفه ومنطقة الاستقبال والمطعم، حيثما يتنفس هواؤه بذكريات وبصمات أرواح من كانوا هنا من قبلُ، سترى لوحًا زيتية أنيقة هنا وهناك على الجدران، وبيانو فاخرًا مواجهًا لمنطقة الطعام، بقليل من الخيال نرى رواد الفندق السابقين يتناولون عشاءً شهيًا بينما يجلس عازف ذو ذقن شامخة في كبرياء يعزف لهم الألحان كأنها سوف تساعدهم على هضم هذا الطعام الرائع، الفنادق تحمل الكثير من الذكريات والغموض، وهذا هو ما اعتمل بأوج صدر سيلين عندما زارت المكان مع زوجها في المرة الأولى، وقابلا مدام «كاميليا» ذات الأصول التركية، بالمناسبة «كاميليا» هي المرأة الأربعينية ذات القبعة والفستان المرصع بالألماس، وقد وافقت على مضض بعد إصرار «كامل كمال» على حضور جلسة تحضير الأرواح؛ لأنها، وأجدادها من قبلها، كانت صاحبة الفندق الأصلية، ولأن صداقة عجيبة قد نشأت بينها وبين «سيلين» عقب الانتهاء من عملية نقل الملكية، وأقول إنها عجيبة؛ لأن «سيلين» نفسها لم تتوقع أي ود من تلك السيدة المتعالية، لقد كانت تجلس مع زوجها و«كاميليا» تنظر لهما بعين لسان حالها يقول: من الأسهل لي الجلوس مع قبائل البربر على قضاء أي وقت معكم يا مضيعي الوقت..

ويمكننا سماع «سيلين» تقول لزوجها بعد مقابلتهما لـ«كاميليا»:
تلك المرأة لم تخدعنا، لن تبيع لنا المكان بهذا السعر أبدًا..
لكنها كانت مخطئة..

من الغريب كيف تتوالى الأحداث، يبتاعان الفندق، ويشعران بأنهما حققا حلمهما الجميل، كل تلك الأعوام من العمل الكادح والادخار ليضعا كل أموالهما في هذا الاستثمار المزدوج..
سيصبح منزلنا هو مصدر رزقنا كذلك..
وبالفعل أصبح الفندق ملكهما وشرعا في التحضير لإعادة افتتاحه، ثم حبلت «سيلين»، وقد بدا لهما أن الحياة قد قررت أن تبتسم لهما برفق بعد أن لاحظتهما أخيرًا وهما يقفان بصبر في طابور الانتظار الطويل إياه، ثم أتت تلك الليلة..
دوى الرعد، بعدما سطع البرق في قلب السماء المظلمة، وانهمرت الأمطار بغزارة، فتحت «سيلين» عينيها وقلبها يقفز كفأر حبيس بين ضلوعها، بعد كل تلك الأعوام لم تعتد هذا الطقس وتلك الأمطار اللعينة، لا تزال الطفلة الصغيرة بداخلها ترتعب من العاصفة، ثم سقط قلبها من موضعه عندما أدركت أنها وحدها في الفراش، ابتلعت ريقها ووقفت كالملسوعة، لاحظت أن هناك ضبابًا كثيفًا بالمدينة الغارقة في ظلمات الليل، همست في البدء بتوجس وعينين متسعتين منادية باسم زوجها وعقلها يفرض احتمالات..
هو في دورة المياه..
بالمكتبة يقرأ كعادته في ردهة الفندق..
يصلي..
يدخن..

لكـن حدسـها نفـى كل تلـك الاحتمالات، لقـد أيقظتهـا الطبيعة لتخبرها بأن شيئًا مريعًا قد حدث..

تشعر «سيلين» بوهن يجتاح جسدها، لم تكن تعرف أنهم يلقبون هـذا التوقيـت الليلي بسـاعة الذئب، عندمـا تكون بين حالـة اللايقظة واللانـوم، حاولـت أن تعتدل مـن رقدتها فـوق الفراش، شـاعرة بأنها هشة، الظلام دامس للغاية، قشعريرة تنساب من عنقها لجسدها، صوت الرياح هذا مثير للجنون، كأن أحدهم يصرخ من سـقر، تقف «سيلين» حافيةً أمام فراشـها، كأنها تسـير وهي نائمة، وتخطو للأمام لتخرج من غرفتها، الانقباض بداخلها يتزايد، يداها ترتعشـان، هل تلك الرياح أم أنفاس أحد في مؤخرة عنقها؟ تصرخ هلعًا وتتجمد مكانها، ثم تستدير للخلف في رعب، لا شيء سوى الظلام، يدوِّي البرق.. تجد «سيلين» نفسـها في الممـر بين الغرف الفندقيـة المتراصة يمينًا ويسـارًا، خيالها يـؤدي عملـه جيدًا ويريهـا ذكريات النزلاء في هيئة أشـباح وهمسـات وسـط صفيـر الرياح، سيتوقف قلبها ذعـرًا الآن، تنادي باسـم زوجها دامعة العينين، لا رد، تسـير للأمام، ترى سـتائر الشرفة البيضاء تتماوج وترقص مع تيار الهواء، تندفع «سيلين» للشـرفة، مَن الذي فتح بابها؟ تخرج للشـرفة وتضـم ذراعيها على صدرها اتقاءً للبرد وتصرخ باسـم زوجها، لا شـيء سوى الأمطار والليل، تعود «سـيلين» مبللةً بالأمطار والدمـوع للداخل، وتبدأ الفكرة في الرسـوخ بداخلها، زوجها اختفى، مثل كل تلك الحـالات التي يقرأون عنها في الجرائـد الورقية، اختفاء هـذا واختطاف ذاك، لقد أتوا من الشـرفة وأخذوه وهـي نائمة، معدتها تؤلمهـا بقوة، وتهمـس باكيةً: كفى، لن أتحمل هـذا الخوف، كفى، أنا حامل، هذا ليس عدلًا.. ليس عدلًا..

تكرر الكلمة باكية وهي تدور حول نفسها، وتنادي باسم زوجها..

وبعد ساعات من البحث والبكاء والانهيار وإفراغ ما في جوفها والإعياء استوعبت «سيلين» أن زوجها قد اختفى تمامًا..

تدور عقارب الساعة، ويفسح الزمن مجالًا لـ«سيلين» التفرُّغ بالدوامة المعقبة لاختفاء زوجها..

كم مرّ من الوقت؟ هي لا تعلم حقًا، هذا النوع من الوقت لا حسبة له في أي توقيت على أي حال، كل شيء يصبح مختلطًا وغير مفهوم عندما تفقد أحدهم..

ثم فجأة ودون مقدمات وجدت السيدة التركية إياها التي اشتريا منها الفندق، تقف بحزم وصرامة على مشارف مدخل الفندق، تطرق في هدوء وانتظار، وعندما فتحت لها «سيلين» لمحت شيئًا لم تره من قبلُ في عيني السيدة «كاميليا».. تعاطف.. حزن.. تبادلت معها نظرة طويلة، ثم ارتمت «سيلين» في أحضان «كاميليا» وبكت بحرارة ضاربةً بكل قواعد التظاهر الاجتماعي عرض الحائط..

تدور عقارب الساعة..

نرى «كاميليا» تجلس مع الفتاة الحبلى وتعد لها الحساء.. تشربان الشاي معًا..

تتحدثان..

نسمع عبارة من طراز «أنا وهو بلا أهل، كنا كل شيء لبعضنا، هو عائلتي الوحيدة بقدر ما تسمح به ذاكرتي، أنا أفتقده بشدة».

ويأتي رد من «كاميليا» على غرار: «أنا أيضًا بلا عائلة، الأخيرة من سلالتي، عندما رأيتُك شعرت بطاقتي وأنا شابة».

يشتد بأس العلاقة بينهما، وتمر الأشهر، لم يظهر الزوج ولم يفلح أحد في التوصل إليه..

وفي ليلة ممطرة أخرى تسير «سيلين» حاملةً البقالة عائدةً للفندق عندما تلمح متشردًا متكورًا على نفسه يحتضن قطًا أبيض صغيرًا، ويحاول وقاية القط من الرياح والأمطار، ثم أدركت أن المتشرد يبكي كذلك ولا ينتفض فحسب، لاح قلبها بمزيج مشاعر؛ خوف من المتشرد، لكل الأسباب التي قد يمثل خطرًا عليها أو على جنينها، وأسى مؤلم لحاله وحقيقة أنه يحاول حماية القط..

تواصل عقارب الساعة الدوران بسرعة متزايدة..

«سيلين» تعطي المتشرد طعامًا وعملات نقدية..

يرفع رأسه وينظر إليها كأنها ليست حقيقية..

تتوالى المشاهد أمام عقارب الساعة المتلاحقة بسرعة..

«سيلين» تعود للفندق بعدما تأخذ منعطفًا آخر خشية من أن يلاحقها المتشرد، لقد ساعدته، لكن هذا لم يُزِل الخوف بداخلها..

نراها تبكي في فراشها وهي تستعيد ذكريات زواجها..

«كاميليا» تعد لها الطعام وتجلس الاثنتان لمشاهدة حفلة لأم كلثوم..

الأيام تمر..

«سيلين» تكرر عادة إعطاء هذا المتشرد الطعام..

ثم تغالب خوفها وتعرض عليه المأوى..

«أنا لم أكن هكذا دومًا، لقد كنتُ قبطانًا وأبحرت شمالًا لأعوام».

تومئ برأسها له داعيةً الله ألا تندم على عطفها هذا..

«لم يكن عليكِ فعل هذا، قلبكِ رقيق للغاية».

تقولها «كاميليا»..

لكن القبطان أثبت أنه ذو جدوى في الليالي الممطرة وإصلاح الأعطال ولم يكن مؤذيًا..

وذات ليلة حلمت «إسيلين» بأن كل ما حدث لم يكن سوى حلم بديل!

الأزواج لا يختفون، والمتشردون لا يمتلكون سلامة عقلية والسيدات الأرستقراطيات ذوات الأصل التركي لا يُظهرن عاطفة أمومة تجاه الغرباء.. والناس لا يفقدون وعيهم فجأة جميعًا دون تفسير ثم يمارسون حياتهم برتابة بعدها..

في الحلم كانت «إسيلين» تجلس داخل حافلة نقل عام بالقاهرة وأعين بعض الركاب تتفحصها، كعادة كل من يرى أنثى، وكانت ذاهبة لعملها المقيت، ولسوف تجلب البقالة لتعد الطعام مع والدتها والاستعداد لزيارة خطيبها.. الجو حار خانق والشمس ساطعة، لا عواصف ليلية ولا ضباب كثيفًا..

فتحت «إسيلين» عينيها ببطء، الواقع قد تغير وهي في فندق كابريني الآن.. حلمها كان مجرد ذكرى بعيدة.. الرياح تعصف بالخارج والرعد يزأر، الليل بظلامه السرمدي يخيم على الأجواء، القشعريرة تسري بجسدها، والضباب ينسلُّ لغرفة نومها من فتحات شرفتها..

ترررن.. التليفون العتيق يرن..

لهذا استيقظت، مَن الذي يتصل بها بعد منتصف الليل؟

أتاها الصوت الملهوف:

- أستاذة «سيلين»، أعلم أنك لن تصدقيني، ولقد عانيتُ الأمرّين كي أحصل على رقم هاتفك من الدليل، اسمي «كامل كمال»، أنا أُدرِّس مادة الميتافيزيقيا بالجامعة، وقد حلمتُ بك، أعني.. لقد أتتني رؤيا بخصوص زوجك.. أنا أمتلك حاسة سادسة، لا تغلقي الهاتف فقط اسمعيني و...

تواصل عقارب الساعة دورانها..

«سيلين» تذهب لمكتب دكتور «كامل كمال»..

منذ متى وهم يُدرِّسون الميتافيزيقيا بالجامعة؟ كذا تساءل وهي تجلس أمامه بتردد، لقد كان مصرًّا على اللقاء، وهي رفضت بأدب في البدء ثم بحزم، وبعد شهر لانت له وقررت الاستجابة لطلب رؤيته، وكونه أستاذًا جامعيًا واللقاء في مكتبه قد أراحها قليلًا، هو ليس عرافًا داخل خيمة بدوية في الصحراء على الأقل، نعم لقد ذهبت «سيلين» لرؤية هذا الرجل الذي يدَّعي امتلاك حاسة سادسة؛ لأن باقي حلولها قد نفدت وقلبها لا يزال تتمزق نياطه إثر اختفاء زوجها..

جفناها يثقلان..

«كامل» يقول لها وهو يجلس في مكتبه:

- أنا بحاجة لراحتك النفسية في الجلسة، اجلبي عائلتك ومن تثقين بهم لتحقيق هذا، أعلم أن هناك مائة وألف سبب بداخلك للشك بي وبكل ما أقوله، لكني امتلكت تلك الحاسة منذ طفولتي، لا أتحكم بها، فقط تنتابني الرؤى، وقد رأيته، زوجك، ولمعرفة مكانه لا بد أن نقوم بالجلسة.. وحينها سنعرف مكان زوجك، ربما تتساءلين لماذا أحاول مساعدتك وأنا لم أطلب منك شيئًا، لكن الحقيقة أنه...

صمت بعينين زائغتين ووجه شاحب، شرد قليلًا، وكادت عيناها

أن تخترقا وجهه وهي تنتظر ما سيقوله.. بدا لها أنه خائف..
- الحقيقة أن تلك هي الطريقة الوحيدة للرؤى كي تتوقف..
وهمس لنفسه:
- لقد صرتُ أهاب النوم بسبب تلك الرؤى، لم أعد أحتمل..
ما لم يُدْلِ لها به هو أنه حلم بزقاق مظلم يجتاحه الضباب أمام بيت قديم، وهناك ظل لرجل فارع القامة يرتدي معطفًا ذا ياقة مرتفعة وطربوشًا، هذا الرجل كان يفعل أشياء لا يستطيع وصفها لزوجها!
لا تعلم متى ولا كيف، هل بسبب إلحاحه؟ كوابيسها؟ شعور أن هناك من يراقبها ليلًا؟ رغم انتقال كاميليا للإقامة معها لحين موعد الوضع، فقط هي تعلم أنها وافقت في النهاية على هذا المطلب الغريب..
جلسة تحضير أرواح؛ لاستدعاء روح اختفت منذ مائة عام بنفس طريقة اختفاء، أو -كما يصر «كامل»- «اختطاف» زوجها..

***

والآن نعود للوقت الحالي، لننتبه ونصمت، لنصغ جيدًا ونراقب..
فهناك جلسة تحضير أرواح موشكة على الوقوع في فندق كابريني..
صوت «كامل» يردد:
- مهما حدث.. لا تترك يد من يجلس بجوارك أبدًا..
شعرت «سيلين» بأن الجلسة قد بدأت كالأحلام، هي تجلس على المنضدة المستديرة ومن حولها «كامل» والقبطان و«كاميليا»، كأنما توترها وتشتتها أنسياها دخولهم وترتيب المنضدة وإضاءة الشموع..
ترتخي عينا القبطان وهو يتابع عقارب البندول، تطوف بعقله عدة حيوات، باخرة عبر البحر.. جوع يشتد به وهو نائم على الأرصفة..

والظلال تتراقص على ضوء الشموع.. اللهب نفسه يتراقص مع الرياح..

يتوقف الجنين عن الحركة داخل أحشاء «سيلين»، ويكون هذا الشيء الوحيد الباعث على الطمأنينة إليها، لقد هدأ ونام.. يغفو قليلًا ويحلم، وهذا أعطاها سكينة العالم كله..

«كاميليا» تنظر بعين الشك لكل ما يحدث، وبتعبير وجه مكفهر، نفس تعبير الوجه الذي اعتلى وجهها للمرة الأولى إبان طفولتها عندما أجبرتها والدتها على أن تمد يديها أمامها ثم هوت الأم بالعصا الحديدية بكل قوة وقسوة، لم يكن الأمر يستحق حقًا هذا العقاب، لم تُخلق طفلة بعدُ لا تنسى أداء الدرس المنزلي أو تخطئ نطق الحروف الفرنسية، ولكن مع هوي العصا على الأصابع ومحاولة كتم «كاميليا» لبكائها -لأن البكاء ممنوع في هذا البيت- شعرت بأن أمها تعاقبها لأنها قد ولدتها من الأساس..

ولأن البكاء وباقي إخوته من المشاعر ممنوعون في هذا البيت، هذا القلب وصاحبته، فقد حل تعبير الجمود على وجه «كاميليا» طيلة عمرها، فقط مع «سيلين» تراجع المسئول المروري وأزاح الحاجز وأضيئت الإشارة لكي تسمح لبعض المشاعر الهادئة والجميلة بأن تخرج.. لكن جلسة تحضير أرواح؛ لمعرفة مكان الزوج؟ نظرت «كاميليا» بطرف عينيها لـ«سيلين»، الفتاة في حالة ثبات وعيناها مركزتان على البندول، وكذلك القبطان، لثانية أرادت «كاميليا» أن تطرد «كامل» من الفندق، شعرت بألم في صدرها لحال «سيلين» التي كوَّنت عائلة صغيرة ممن هم جالسون فوق تلك المنضدة بعد اختفاء زوجها، عائلة صغيرة من الغرباء في مدينة لا تبالي ولا ترحم أحدًا،

بلك المعروبة تمتلك جهاز استشعار شديد القوة، ولو أدركت أنك تشعر بالوحدة فسوف تسحقك، حركت رأسها ناظرة لـ«كامل»..

طاك!

عقدت «كاميليا» حاجبيها، من أين أتى هذا الصوت؟ المكان كله معتم بالظلال عدا الضوء الأحمر المنساب من السقف، الأمطار تُصدِر مرورها فوق الزجاج، طاك! يا له من صوت غريب، هل هناك ثعبان في المكان..

هنا وجدت عيني «كامل» تنظران لها في خيبة أمل، وقد فتحهما بعدما انتهى من حديثه، نظرت له بتحدٍّ فابتسم بوهن قائلًا:

- سيدتي لا تقاومي ما يحدث.. أنا بحاجة لاسترخاء عقولكم جميعًا، نحن بصدد التواصل مع عالم غير مادي..

رفعت «سيلين» عينيها.. وقد أفاقت على تغيُّر نبرة صوت «كامل»، أما القبطان فلقد بدا شاردًا بشأن شيء آخر تمامًا..

طاك!

ضيَّق القبطان عينيه، هل تلك عينان تومضان من خلف الظلال؟

طاك!

هل هذا شخص يتحرك بسرعة فائقة كالزواحف فوق الحائط؟

بسمل القبطان وحولق بينما تحدَّث «كامل»:

- سيدة «كاميليا» لا تقاومي ما يحدث.. من أجلِ «سيلين»..

تفقَّدته «كاميليا» بعينيها، لم يبدُ لها أنه مخادع، وهو لم يطلب مالًا بعدُ، ربما هو مخبول يؤمن بهذا الهراء ويسعى لإراحة عقله من تلك الكوابيس، ربما هو في حاجة لحكيم يعالجه نفسيًا، قالت «كاميليا» وهي تشيح بوجهها بكبرياء:

- لا أفهم بعدُ المغزى من هذا، تريد استحضار روح فتاة اختفت منذ مائة عام؛ لأنها هي التي ستُخبرنا بمكان زوج سيلين هانم؟

وضغطت «كاميليا» على مخارج حروف «هانم» لتُذكِّر كامل بآداب الحديث، أومأ الأخير برأسه وقال إزاء نظرات «سيلين» الخائفة:

- تلك الفتاة الباسلة تواجه أمرًا صعبًا، وقد وضعنا القدر جميعًا في طريقها لمساعدتها أليس كذلك؟ جرائم الاختطاف، هؤلاء الذين يختفون من داخل الغرف المغلقة، ولا يعرف أحد لهم سبيلًا، لقد أعلنت الصحف أن جرائم مماثلة وقعت بنفس الطريقة منذ مائة عام، أناس يختفون فحسب، من غرف نومهم وبيوتهم والتي بالمناسبة تكون موصدة من الداخل، لقد اختفى بعل «سيلين» هانم والله قد وضعنا في طريقها لمساعدتها.. الرؤى التي تنتابني حقيقية، وقد تواصلت مع أرواح مَن رحلوا من قبل.. أغلبهم يرحل في سلام، بعضهم يريد أن يبقى، وهناك...

تغيرت نبرته مردفًا بقليل من الرجفة:

- أنواع أخرى، ليسوا بأرواح.. كيانات قديمة.. يريدون أجساد البشر.

شهقت «سيلين» فابتسم «كامل» مطمئنًا وتابع بسرعة:

- ولكن لا تخافي لأننا معك.. أنتِ لستِ وحدك..

هزَّ القبطان رأسه بقوة وصدق، وكذلك هزت «كاميليا» رأسها، وشعرت «سيلين» بقليل من الامتنان صوبهم يحل بها، نعم هي ليست لوحدها، بينما تابع «كامل»:

- أنا هنا من أجل «سيلين» وصحة سلامتها النفسية والجسدية خلال فترة حملها تلك، وأنا لم أكن لأهدد تلك السلامة سوى

لمصلحة أهم وأكثر حتمية، ولا أقصد بالطبع أن هناك شيئًا أهم من مولد الطفل..

قالها «كامل» بنوع من التملُّق صوب «سيلين»، وهو يعلم بقرارة نفسه أن محاولة تنبيه امرأة حبلى بأن هناك شيئًا آخر يحدث أهم من حملها أشبه بمحاولة التحدث عن قطف الأزهار خلال إعصار، بدا الإرهاق شديدًا على «كامل» وهو يتابع:

- كما قلت لـ«سيلين» هانم من قبل.. حوادث الاختفاء تلك مشابهة بشدة لجرائم وقعت منذ مائة عام، بل أنا أعطيتُ محاضرة كذلك عن تلك الجرائم في الجامعة خلال تدريس فصل «جرائم التاريخ التي لم تُحَلّ أبدًا»، وكل ما أنا بصدد قوله لكم مرة ثانية لهو نتاج بحث ودراسة وليس رؤى، ثمانية أفراد اختفوا منذ مائة عام؛ ستة اختفوا ليلًا ومن داخل غرف نومهم الموصدة، والسابعة كانت بائعة خبز اختفت بعدما دخلت زقاقًا ولم يرها أحد بعدها، وقد كان وصف شهود العيان -وكلهم باعة جائلون- الذي تم توثيقه في السجلات الرسمية بالأرشيف كالآتي: «لقد ابتلعها الضباب الكثيف بالزقاق ولم نرها بعدها».

والثامن كان طفلًا يلهو في حديقة قصر جده، حالات اختفاء عشوائية غير مبررة بلا صلة بين الضحايا، الفقير والغني، رجال ونساء وأطفال، ثم تحول المفهوم العام من «اختفاء» لـ«اختطاف» عندما وجد شاويش رسالة غريبة جدًّا، من ورق عاج أصفر، بعض الباحثين قالوا إن الورقة كانت من جلد ماعز، والحبر المصبوغ الذي تمت الكتابة به كان دمًا، لا أعلم مدى صحة تلك المعلومة، لكني أعرف جيدًا فحوى العبارة المكتوبة فوق تلك الورقة: «هو قادم من أجلنا جميعًا»..

استدعوا والدة أحد الضحايا المنكوبة حينها بأمر ملكي، وتبين خبير المخطوط أن ابنتها -إحدى المختفيات- هي التي كتبت تلك الرسالة.. والآن بعد مرور قرن يعود الضباب للمدينة، وتبدأ حالات الاختفاء، ناس آمنون يختفون من داخل غرفهم المغلقة ليلًا..

ببطء قالت «كاميليا» وقد سمعت كل هذا الكلام منه سابقًا، لكنها قررت التعليق تلك المرة:

- إذن هناك شخص ما اختطف البعض منذ مائة عام وأحدهم يقلده الآن؟

مال القبطان للأمام وهو ينظر للركن المظلم، هل تلك عينان صفراوان تومضان في الظلام؟ أم إنه انعكاس النور.. رفع قطه الصغير أذنيه وانتصب ذيله، تصلّب جسده تمامًا وأطلق هسيسًا خافتًا، فحاول القبطان تهدئته وهمس:

- أعلم.. نحن لسنا أربعة في الغرفة بل خمس، أليس كذلك؟

واستدار القبطان إليهم بعينين متسوّلتين، آملًا أن يروا ما يراه، لكنه لم يتحدث، هو يعلم أنه عجوز خَرِف ولا يثق في النهاية بعينيه..

طاك!

هذا الصوت!

- أنا لا أمتلك تفسيرًا محددًا بعدُ لمن هو المختطِف يا سيدتي، لكني أعلم أن الفتاة التي كتبت تلك الرسالة، واسمها «رشيدة»، منذ مائة عام استطاعت الهرب أو على الأقل ترك تلك الرسالة إلينا، لقد كانت هي في الثانية والعشرين عندما تم اختطافها، والآن قد مرَّ مائة عام فيمكننا الظن بضمير هادئ أنها لم تعد في عالمنا واستدعاء روحها لن يضر جسدها الفاني بشيء، ولعل روحها ترشدنا لهوية المختطف

ومكان صاحب هذا الفندق..

- لا أعتقد أن حل لغز جرائم وقعت منذ مائة عام سوف يرشدنا لشـ..

- «كاميليا».

همست «سيلين» برقَّة مقاطعةً إياها، فالتفتت إليها السيدة، لامست أنامل «سيلين» يدها وأضافت:

- أنا بحاجة لهذا.

أخذت «كاميليا» نفسًا طويلًا وتكلَّفت عناء الابتسام بمودَّة صوب «كامل» وقالت:

- حسنًا..

شهق القبطان عندما رأى الظلال تتماوج، كأن هناك أحدًا يرتدي السواد في الركن يتحرك نحوهم..

- هل أنت مستعد يا قبطان؟

أجفل الأخير ثم نظر مشدوهًا لـ«كامل» وأومأ برأسه..

نقل «كامل» نظراته بينهم، وابتسم لـ«سيلين» مشجعًا ثم قال:

- والآن.. سنبدأ مرة أخرى، أريد منكم أن تُريحوا عقولكم، لا تفكير في شيء من محيطاتنا، نحن في العالم القديم الآن، هذا العالم الذي ترك إرثه داخل عقولنا، لا توجد مدن ولا سيارات ولا ضجيج، يوجد صحراء.. حقول خضراء لا متناهية.. سماء وبحار.. كهوف.. ليل وقمر.. وهدوء.. الكثير من الهدوء.. تنفسوا بهدوء.. واستمتعوا.

أضاف القبطان هامسًا للقط:

- ويوجد أحدهم في الركن المظلم..

حرَّك «كامل» يده وانبعثت موسيقى هادئة لـ«فاجنر» من

الجرامافون المستقر بجواره، وأردف «كامل»:

- لا تحيدوا بأنظاركم عن البندول مهما حدث، وأشبكوا أيديكم بأيدي بعضكم.. والآن يا سادة.. أرجوكم الصمت..

***

في البدء لم يحدث شيء..

بعدها حدث كل شيء..

شعرت «سيلين» بالهواء يتغير.. كأن هناك وجودًا ما بهم..

في كل مكان واللامكان..

سرت قشعريرة بجسدها عندما شعرت بالهواء البارد يمر بعنقها..

وبعين الخيال رأت نفسها جالسة على المنضدة معهم، بينما عيناها تدوران حول كل ما يحدث..

تدور وتدور..

وجه «كامل» أمامها..

ثم «كاميليا»..

والقبطان..

تواصل عيناها الدوران..

ترى نفسها..

البندول..

صوت الرياح..

الليل يبتسم ويشيح بوجهه مبتعدًا متعجبًا من أفعالهم..

طاك!

يطرق «كامل» بإصبعه بجوار البندول، ثم يمد يده ويلتقط صورة

عتيقة بالأبيض والأسود لفتاة شابة.. «رشيدة».. الفتاة التي اختفت، أو نجت كما سيعرفون الآن..

يقبض «كامل» على الصورة بين يديه ويئن.. يزوم.. يطلق موا خافتًا كأنه موشك على الغناء ويتمايل جسده وهو مغمض العينين..

ثم يفتح عينيه وتشهق «سيلين».. عيناه بيضاوان بلا حدقتين.. جسده يرتج..

لقد حلّت روح «رشيدة» به، «كاميليا» نظرت غير مصدقة لما يحدث باحثة عن خدعة ما، هل هذا طلاء وجه؟ أم قدرات تمثيلية مبهرة؟

«أريحي عقلك»..

صرخ «كامل» بالعبارة فانتفضت «كاميليا» ثم نظرت أرضًا، أما القبطان فقد وضع يده أمام عيني القط كي لا يرى ما يحدث..

بدأ الأثاث يرتجف، كأن هناك ماردًا ضخمًا غاضبًا وخفيًا يحرك الأشياء، هتف «كامل» بصوته الطبيعي:

- هناك شيء ما، شخص آخر هنا بخلاف «رشيدة» يحاول إعاقة التواصل..

طاك!

ركل الجنين داخل بطن «سيلين» التي تزايدت دقات قلبها..

- كونوا ثابتين كما أنتم..

كان «كامل» يتحدث بصوته الطبيعي الآن وهو مغمض العينين، ثم انتفض وفتح عينيه البيضاوين وتحدّث، يا للهول لقد تحدّث بصوت آخر، صوت عميق، كأنك تتحدث مع بئر لا قاع له:

- مَن أنتم؟

صوت زجاجة تقع وتتهشم.. ترتجف «سيلين» وتشد «كاميليا» من أزرها بيدها..

الصوت العميق:

- من أنتم؟

«كامل»: نحن هنا لاستضافتك قليلًا، للمعرفة.

الصوت العميق: أنتم فانون.

«كامل»: نريد المعرفة، هل أنتِ «رشيدة»؟

صمتٌ.. تتسع حدقتا «سيلين» برعب، آلام معدتها تتزايد، تشعر بقلبها يزداد وهنًا.. يطلق الصوت عويلًا ماجنًا طويلًا كضحكة ضبع في جهنم، ويدرك قلب «سيلين» الملتاع أن صاحبة الصوت تتألم..

آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه أنا «رشيدة».

يغمض «كامل» عينيه ويهز رأسه على ألحان خفية هامسًا: شكرًا لمجيئك.

الصوت بعينين بضاوين وأنين رهيب: ما بكم تريدون؟ ما بكم تبغون؟

«كامل»: مَن الذي أخذك؟

الصوت: ما بكم تريدون؟

- مَن أخذك؟

يصيح «كامل» بالروح..

أنين عميق ورهيب، يرتج جسده..

ثم يتحدث الصوت ومعه أصوات أخرى تئن وتصرخ، معزوفة أصوات ملتحمة تتحدث من فم العراف لتنطق بالإجابة:

- «موسى».

صمت رهيب يحل بالفندق..

ويردد «كامل» متسائلًا وهو مغمض العينين:

- «موسى».. من هو «موسى»؟

تنفتح العينان، تخللهما خيوط حمراء، وينزف «كامل» من أنفه بينما الصوت يهيب من داخله:

- «موسى».. أنت نطقتَ اسمه، ولذا أنت فانٍ.. هو قادم من أجلنا جميعًا، طالما نحن هنا، «موسى».. هو الذي أخذنا.. عندما ينطق أحدهم اسمه فهو يستدعيه.

يبذل «كامل» مجهودًا هائلًا كي يغمض عينيه ويهمس:

- أين أخذكم؟

الصوت:

- للبئر.

«كامل»:

- لماذا أخذكم؟

زجاج يقع ويتهشم، المقاعد تتحرك، الأبواب ترتعد، صوت خطوات بكل مكان.. الرياح تشتد، تشعر «كاميليا» برعب هائل يجتاحها، هناك يد تلمس مؤخرة عنقها، أحدهم يقف وراءها، القبطان يتلفت حوله، ثم يعود ليتسمر بعينيه على «كامل». «سيلين» تمسك بيد «كاميليا»..

«كامل»: هل «موسى» هو من يفعل هذا الآن يا «رشيدة»؟ هل هو معنا الآن؟

«رشيدة»: نعم.. هو هنا.. وأنا خائفة منه.. لا تدعه يراني، عليَّ أن أعود وأختبئ منه، سيجدني.

«كامل»: كيف يؤذيكِ؟ أنتِ رحلتِ عن عالمنا.

«رشيدة»: سوف يؤذيني ويؤذيكم جميعًا.

المنضدة تهتز.. الجنين يركل.. «سيلين» تبكي.

«كامل»: من هو «موسى»؟

«رشيدة»: لقد نام الجميع منذ أعوام، كل من في المدينة خلدوا للنوم لبرهة من الزمن.. تذكروا.. لا شيء كما يبدو عليه أبدًا.. البعض قال إن «موسى» كان مثلنا.. إنسان.. لكنه حرَّر ما يوجد بداخل عقله من شر مستطير.. «موسى» مثلك..

- مثلي أنا؟ عراف؟

- عراف وساحر وكل شيء.. لقد حرَّر عقله ودعاهم.. ليسكنوا جسده فأصبح وعاءً لهم مقابل الخلود، ساحر قبائل العرب منذ ما قبل التاريخ يهيم في الأرض بعدما باع جسده لهم..

- من هم؟ الموتى؟ هل «موسى» كان يتخاطر مع الأرواح؟ هل سكنوا جسده؟ هل هو وعاء بشري متحرك للموتى؟ لماذا يخطف الأحياء؟

- آخرون يقولون إن «موسى» لم يكن أبدًا منا، لقد أتى من مكان بعيد.. من البئر السحيقة.. لا شيء كما يبدو عليه أبدًا.. عليَّ أن أختبئ منه.. أنا قد رأيت الحقيقة.

- وما هي الحقيقة؟ هل أتى «موسى» من عالم سفلي؟ تحيا به الأرواح والشياطين؟ هل هم يأتون من هذا العالم ويختطفون أبناء آدم؟ هل البئر بوابة لعالمهم؟

تتلاحق أسئلة «كامل» في لهفة ومعها تصل أنفاسه للذروة..

ثم حل صمت مهيب.. يتمايل جسد «كامل» يمينًا ويسارًا.. تقبض

«سيلين» بشدة على يد «كاميليا»..

تشعر «سيلين» بالعينين البيضاوين تستقران عليها، يقشعر جسدها، وفي تلك الثانية ندمت على موافقتها للقيام بتلك الجلسة، لقد كان «كامل» -كعادة الواثقين بأنفسهم- يقوم بمخاطرة لا حدود لها..

تئن «رشيدة» وتهتز في جسد «كامل» وترفع يديها مشيرةً بأصبعها لـ«سيلين» قبل أن تقول:

- لماذا لم تسألوا سيلين؟

- لماذا لم نسألها عن ماذا؟

يهمس «كامل» فيتشنج جسده وتنقلب مقلتا عينيه لبياض ناصع بينما يخرج صوت «رشيدة» الغليظ من بين شفتيه..

وقالت صاحبة الصوت كلماتها الأخيرة:

- «موسى» في تلك الغرفة معكم الآن، لقد حذرتك أيها الفاني من نطق اسمه، أنتم هالكون، لا يجب أن يراني، هو القادر على سلب إرادتكم والتحكم في عقولكم بمجرد أن يلمسكم، سيجعلكم تفعلون ما يريده، أما من يقترب من الحقيقة وأما من يخرج عن إرادته فلسوف يقتله، عليّ أن أختبئ منه.. لكي تعرفوا السر عليكم أن تسألوا «سيلين»، لماذا لم تسألوا «سيلين»؟

ارتسم عدم الفهم فوق ملامح الأخيرة.. ثم رفع «كامل» يده وأشار بسبابته لـ«سيلين»، وهو يطلق مواءً غائرًا كأنه يبتلع الهواء، ظل يصرخ وهو يشير إليها، فبكت «سيلين».

انتفض جسد «كامل» الانتفاضة الأخيرة، ثم سقط رأسه على كتفه..

طاك طاك طاك!

كان الصوت قادمًا من جوار «سيلين»، صوت طقطقة لسان، ببطء أدارت «سيلين» رأسها وهي تهمس: «كاميليا؟!»

وفي الظلام رأت وجه «موسى» يجلس بجوارها ممسكًا بيدها بدلًا من كاميليا..

«كاميليا» كانت جثة غارقة تسبح في دمائها فوق الأرض..

قبض «موسى» على يدها وحدّق في وجهها بوجه أبيض شديد الشحوب وبارز العظام، طاك طاك طاك، كان يطقطق بلسانه كالثعابين، فتحت «سيلين» فمها لتصرخ..

***

سيتحكم بكم بمجرد أن يلمسكم.

***

قبض «موسى» على يد «سيلين»، وصرخت الفتاة عندما انبثقت يد الجنين من داخل معدتها وهي تمزقها إربًا إربًا..

فتح «كامل» عينيه وهو يستعيد وعيه ليرى هذا المشهد الشنيع..

«سيلين» تبصق دمًا وتصرخ، بينما معدتها تتمزق من الداخل للخارج..

وبجوارها يستقر جسد «كاميليا»..

قفز القط من بين ذراعي القبطان الذي صرخ ملتاعًا وهو يتراجع للخلف، ثم وضع يديه على وجهه كأنه يحاول حجب رؤية ما حدث، ظل يتراجع للخلف ثم اختبأ خلف أقرب مقعد له..

سقطت «سيلين» أرضًا بجوار «كاميليا»..

ووقف «موسى» ناظرًا لـ«كامل»..

طاك طاك طاك!!

مرتديًا معطفًا طويلًا ذا ياقة مرتفعة وطربوشًا أحمر اللون..

جلد أبيض شاحب..

عينان سوداوان لا حياة بهما..

وصرخ «كامل».. أمامه ثوانٍ معدودة ليهرب من «موسى».. لكنه يحدق برعب عظيم لهذا الواقف أمامه.

***

طاك طاك طاك!

***

تزحف «سيلين» أرضًا وهي تئنُّ ألمًا، تصل لـدورة المياه، تدير المقبض، غريبة هي الأشياء التي نفعلها في لحظاتنا الأخيرة، لكن تلك هي الفكرة الوحيدة التي واتتها، تنهمر مياه ساخنة في البانيو، يتصاعد بخار تلك المياه في الغرفة، تمد سيلين أصبعها على جدار البانيو وسط البخار المتصاعد، وهي تجاهد من أجل التقاط أنفاسها، تنزف، ترتعش يدها، يدير «موسى» رأسه حيثما تتحرك «سيلين»، ثم يتحرك تجاهها، يرتجف «كامل» في موضعه، وتشعر «سيلين» بـ«موسى» يقترب منها، تكتب بيدها، ترسم بالأحرى على غبار المياه الساخنة.. تحاول ترك رسالة.. آه يا له من مشهد، الضحية تزحف أرضًا محاولةً كتابة اسم قاتلها، محاولةً ترك رسالة بها الحقيقة التي لن يصدقها أحد أبدًا.. وبأصبع مرتجف ترسم كلمات بخط طفولي وسط الغبار.. «إنـه.. م.. ض.. ل.. خ.. ئ.. ف» لا يسعها الوقت لإكمال باقي العبارة، وعقلها المشتت جعلها تكتب الأحرف بغير ترتيب، أما عن

بسبب عدم اكتفاء الوقت لكي تكمل رسالتها، فلقد كان بسيطًا للغاية، لقد حملها «موسى» بين ذراعيه، ورأت «سيلين» انعكاس وجهها فوق المياه الساخنة المتصاعد منها البخار وقد ملأت البانيو، يقبض «موسى» على شعرها، ويهس بلسانه، ويقول بصوت قادم من الأثير: «هلمي أفلا تطربين؟، ستموتين الآن، ولكم من عقد يمضي كي يموت المرء.. لأنه من النار تأتي النار، وإلى الدخان يصير الدخان، وفي الرماد يفنى الرماد، أنا بك مفتون»..

ويجذبها من شعرها بقسوة لتشعر بأنفاسه الحارة تلهب وجهها وعيناه تحدقان بها، أرادت أن تصرخ، لكنها حدقت به بوجه صارخ وفم مفتوح يئن..

قال «موسى»:

- تعالَيْ إليَّ ملبية ندائي يا دم دمائي وابنة أبنائي..

ثم يرفع برأسه وينتفخ صدره وهو يطقطق بلسانه بلا توقف..

طاك طاك طاك طاك طاك طاك طاك...

ودفع برأسها صوب مياه البانيو الحارة، ارتجَّ جسدها وحاولت المقاومة بينما وجهها يحترق، هل يمكن للمرء أن يموت حرقًا وغرقًا وبمعدة ممزقة في الآن ذاته؟ حسنًا.. لقد أجابت «سيلين» عن هذا السؤال..

يتراجع «موسى» للخلف، كأنه يطفو حول الأرض، ويبتلعه الظلام..

طاك! طاك! طاك!



CamScanner

# الفصل الثاني

- أماه دعيني أدخل، أنا أشعر بالبرد..

وقف الطفل في الضباب أمام البيت القديم، ونظرت الأم بذهول من النافذة العلوية وهي تصرخ:

- لقد عاد.. لقد عاد..

حاول زوجها أن يمسك بتلابيبها وهو يهتف:

- هذا صوت الرياح يا "جيهان"، لا يوجد أحد بالأسفل، ابننا قد مات.
- إليك عني، لقد عاد، ألا ترى أنه بحاجة إليَّ؟

ثم هرعت للطابق السفلي لتفتح الباب للصغير بينما نظر زوجها من النافذة، للطفل الواقف وسط الضباب، مغبرًا بتراب المدافن، وتكرر صوت الطفل:

- دعوني أدخل..

جرت الأم بسرعة ومدَّت يدها الملهوفة لتفتح الباب:

- آه.

جرى الطفل صوبها وفتحت هي ذراعيها على اتساعهما، غاب عن عينها لحظة وهو يجري صوبها، ثم شبَّ واقفًا أمامها، تراجعت وهي تشهق للخلف عندما وجدت رجلًا عجوزًا في أواخر العمر، التجاعيد تخفي وجهه، يرتدي الأثمال يحتضنها ويقول بصوت الطفل:

- أماه..

سقطت الأم وهي تصرخ..

***



@ART_OF_BOOK
CamScanner

نظر «داغر» للرسمة التي قد انتهى منها، الأم تفتح باب البيت القديم لتجد وجه العجوز المخيف أمامها فتراجع للخلف في رعب، وفي النصف العلوي من الورقة رسم الطفل يقف وسط الضباب أمام البيت.. وضع «داغر» الورقة والقلم الرصاص جانبًا، وغمغم: «لا أعتقد أنهم سيعرضون رسوماتك تلك في المدارس والحفلات، يمكنني تخيل ناقد معتد بنفسه يشير إليَّ صائحًا: سوداوي ومخبول، هذا لأنه لا يمتلك حس دعابة»!

ثم نظرَ «داغر» لانعكاس وجهه في مرآة سيارته وأردف محدثًا نفسه كعادته: «أنا لست مخبولًا، ليس بعدُ»..

كان يحاول التخلص من الألم الداهم بمنتصف رأسه، تحسس علبة الدواء المهدئ في جيبه، وجود تلك الأقراص معه هو أمر دومًا باعث على الاطمئنان.. جزَّ على أسنانه واشتد عليه دوار، هل سوف تنتابه نوبة أخرى الآن؟

«تلك الأعراض يا سيد «داغر» تقول بوضوح إنك مصاب بجنون الارتياب».. البارانويا وحدها كفيلة بإحالة حياتك لجحيم، ولكن مسألة الهلاوس تلك بسبب الشيزوفرانيا. لنقل إن عقلك يلعب دور مضياف متحمس لأمثال هذه الأمراض، وعليه أنت لا تستطيع التفرقة بين ما هو حقيقي وما هو محض هلاوس، وتظن دومًا أن هناك مؤامرة ما في كل ركن، أنت موشك على التشرد، تنام في سيارتك، لا يوجد منزل ولا عائلة ولا أصدقاء، مضت أعوام منذ تحدثت مع أحد بخلاف نفسك، ومدخراتك الضئيلة قد أوشكت على النفاد، أنت تسير بتصميم للجنون كطفل يحبو بحماس للمرة الأولى صوب والدته».

كذا قال الصوت لـ«داغر» وأردف: «لقد ظللتَ لأعوام ترتاب

بالنظرات الموجهة لك، تتخيلهم يسيرون لك المكائد، ...
لك بتهكم وسخرية، البائع يراقبك، حضنت ...
نوبات غضب عنيفة صوب من تتشاجر معهم لأسباب ...
فحسب». ثم تنهد صاحب الصوت وقال الكلمات ...
«بارانويا.. جنون شك.. ارتياب.. هلاوس.. شيزوفرانيا.. أنت ...
مزيجًا عجيبًا من كل هذا يا «داغر»، لقد أسلمت نفسك تمامًا ...

هل كان هناك صاحب للصوت حقًا أم إنه أتاه من داخل عقله ...
يتذكر، لو كان الصوت من ذكرى حقيقية فالطبيب لم يكن ...
لطيفًا بالتأكيد عندما قال له إن تلك الأشياء داخل عقله ستحيل ...
لجحيم، حاول «داغر» اعتصار عقله في ألم محاولًا ...
بالصوت أم هناك مختص أو حكيم ما أخبره بهذا، ليته يعلم، ...
نفسه جالسًا داخل مكتبة المدينة، والعالم كله بالأبيض والأسود ...
كتابًا عملاقًا عن المرض العصبي، ثم سمع الصوت.. لعله حلم ...
فقط يعرف أن ما أدلى به الصوت حقيقي مائة في المائة، لكنه ...
الصوت قائلًا: «سأظل محتفظًا برجاحة عقلي حتى اللحظة التي ...
فيها عن الشك بأني أفقده».

كان «داغر» يجلس داخل سيارته في تلك الليلة ...
والعاصفة، ثم ترجّل من السيارة وسار باتجاه الملاهي المهجورة ...
ملاهي السندباد، منذ فقدانه ليته وزوجته وابنه، وتحويل ...
لمحل إقامته، وهو يحب أن يركن تلك السيارة ليغفو قليلًا ...
تلك الملاهي، أشعل لفافة تبغ وهو يخطو داخل الملاهي من ...
الصدئة، يتخيل ضحكات الأطفال وروادها السابقين منذ ...
حيثما كانت أضواء، وقطار الموت ينطلق وسط صراخ وضحكات ...

السيارات الطائشة تمرح، بينما هناك عاشقان يأكلان غزل
راكيه، والسيارات الطائشة تمرح، بينما هناك عاشقان يأكلان غزل البنات، تخيل داغر كل هذا وهو يسير وسط الملاهي الخالية من كل شيء، فقط ألعاب قديمة لم تعد تعمل، بيت مرايا خالٍ، قُمرة قيادة مواجهة لبيت الرعب.. تنهد «داغر» وقال محدثًا الملاهي: «أنا أيضًا أمتلك ذكريات لحياة مختلفة مثلك، بيت وذكريات وأسرة، ذكريات قديمة لم تعد هنا»، ثم شد سترته على ياقة جسده مضيفًا: «عويل الرياح هذا، لا يبدو كصفير بل كأن عشرات الأرواح تصرخ وسط العاصفة!».

رفع حاجبيه للفكرة ونظر لتلك الصورة التي رسمها، لقد اعتاد أن يرسم كلما اختبأ من والدته أسفل مقعد مكتب ليتجنَّب العقاب الذي كانت أمه تُعرضه له، لم يكن عقابًا تقليديًا من الأمهات بل كان عقابًا متطورًا قليلًا، كأنما كان هناك خبير تربية مبتسمًا يقول في برنامج ما قد شاهدته أمه بتركيز: «والآن يا سيدتي، دعكِ من القبقاب، عليكِ بتقييد الصغير وحبسه لساعات مقيدًا داخل خزانة الثياب، ولا تنسَيْ يا سيدتي أن تهوي بالحزام الجلدي على وجهه، نعم لقد سمعتِني جيدًا يا سيدتي العزيزة، ليس على ظهره أو قدميه، ولا حتى مؤخرته، بل مباشرة على وجهه»..

ظل «داغر» ينظر للصورة، وتكرر الصوت بداخله: «أمك كانت بحالة اضطراب حادة، وأبوك كان ينظر لك بحالة سلبية كأنه لم يكن هناك فعلًا، ربما لو عملنا لك مسح دماغ لفهمنا هل حالتك وراثية أم إنها بسبب فترات التعذيب التي قضيتها في طفولتك، ساعات في الظلام مقيدًا، وجهك مبلل بسائل مالح ينساب من جبينك، هذا السائل لم يكن سوى دماء.. ربما كانت المرة التي بدأت بها بهلوسة أشخاص غير حقيقيين، والتحدث مع نفسك، وسماع أصوات داخل عقلك»..



CamScanner

- تقصد أصواتًا سقيمة ومملة مثلك!

كان الصوت يُذكّره بشدة بنبرة صوت أبيه، مزيج نادر من اللامبالاة والشفقة الزائفة، شعر «داغر» بغضب يجتاح جسده، هنا خُيّل إليه أنه قد سمع أحدهم يغني، أجفل وتلفّت حوله..

صوت غناء جميل، هامس، رقيق.. وقف وتلفّت حوله، في الأغلب هلوسة أخرى، لكنه تعود أن يساير هلاوسه، فرغم كل شيء هم يُسلّونه خلال وحدته وصمته الأبدي.. بدأ يتتبع مصدر الصوت، صوت فتاة تدندن بأغنية، التفت يمينًا من جوار عربة غزل بنات تسكنها العناكب بشباكها، نفض الغبار عن طريقه، ورآها.. كانت تجلس قبالة قطار الموت بالملاهي، بجوار كابينة اعتاد العاشقون في القِدَم أن يدخلوا ليحصلوا منها على صور فورية، وقف «داغر» على مقربة ينظر إليها بتردُّد، كانت ترتدي زيًّا كالدمية، وتضع طلاء وجه كالعرائس، كأنها من طاقم تمثيل بمسرح العرائس وقد ضلّت طريقها، جالسة تغني.. وانسابت كلماتها لأذني «داغر»:

«انظر إليّ يا أبي، وأنا أعدو في الحقل..».

قصيدة لم يسمعها من قبل، تسمَّر مكانه وهو يستمع لغنائها للقصيدة كأنه المسحور وهي النداهة بصوتها الحالم..

«انظر إليّ يا أبي وأنا أعدو في الحقل..
انظر إلى يدي وهي تداعب أغصان الشجر..
انظر إليّ يا أبي وأنا أعدو كالعدَّاء السعيد..
انظر إليّ يا أبي وأنا أبتسم وأنا أضحك..
ألا ترى انعكاس الشمس على وجهي؟
انظر إليّ وأنا أغمض عيني وأعدو..

كالطير.. كالفهد.. كالعدَّاء الذي فقد عقله..
انظر إليَّ يا أبي وأنا أعدو في هلع..
انظر إلى تعبير الخوف وهو يعتلي وجهي..
ألا تراه.. في الحقل.. ينظر إليَّ.. يقترب مني..
أبي.. لماذا لا تردّ؟»

تنحنح وهو يسير فرفعت رأسها إليه، بعينين متسائلتين؛ تبًا لماذا تمتلك النساء المقدرة على جعل قلبك يتواثب كالقنفذ بين ضلوعك إثر نظرة كتلك، أو ربما لقد مضت أشهر عدة منذ أن تحدث هو مع أحد، ربما هو وحيد بشدة أو هي ساحرة بشكل لا يُصدَّق، حسم أمره بالسبب الثاني وهو يتأملها.. وبتردد سألها:

- مـ.. معذرة، هل أنتِ حقيقية؟

حدَّقت به كأنه مجنون وتوقفت عن الغناء، ثم ضحكت، ولوَّحت بذراعيها بمعنى: «ما الذي تظنه؟».

كانت تتأرجح يمينًا ويسارًا فوق مقعد قماشي معلق من عمودين، جلس قبالتها «داغر»، ثم قال:

- صوتك.. رائع.

ابتسمت له وواصلت الغناء لفترة، ثم قطعت غناءها فجأة وبحدة ناظرة لـ«داغر» وسألت:

- ما الذي قصدتَه بكوني حقيقية أم لا؟

كانت ترتدي قبعة يتدلى منها طرفان بشكل مضحك، وانسدل شعرها الأسود الجميل على جبينها، فمها صغير وأنفها مدبب، ورغم طلاء العرائس المحيط بوجهها فلقد أدرك أنها جميلة بحق، تبدو وتتصرف كمراهقة مشاغبة وقد زاد هذا من جاذبيتها بشكل ما،

دمية من مسرح العرائس في غاية البساطة، وهذا الزي الذي ترتديه قطعة طويلة لعروسة ماريونيت، أشار لزيها فضحكت هي مرة أخرى وأجابت:

- أنا من طاقم المسرح الخاص بالبلدة، كنا نقدم عرض مسرح العرائس، لا أعلم.. لكني أشعر بالراحة عندما أرتدي هذا الزي، وكأني أصبح على حقيقتي.

ثم قطعت كلامها ونظرت إليه بقلق، هو لا يزال غريبًا عنها.. همست:

- ربما عليَّ الرحيل، معذرة.

«انتظري».. هتف «داغر» بالعبارة وقد ناوبه ألم طفيف بمنتصف عقله عقب فكرة رحيلها وتحسس علبة الكبسولات المهدئة، وجودها في جيبه فحسب يُشعره بالأمان، نظرت إليه بدهشة، بعض الرجال يهيبون بها أن تنتظر في لهفة أو شوق أو غضب أو توسل وخوف من خسارتها، لكن هذا الرجل الغريب ذو الوجه الشاحب واللحية شبه النامية والسواد أسفل عينيه، بقامته الفارعة وسترته السوداء، بدا لها أنه يهيب بها الانتظار بطريقة مختلفة قليلًا، بشغف، قطبت جبينها ونظرت له فأردف:

- الناس يتقابلون، ويلبسون ثوب الادّعاء محاولين إبهار الآخرين برسمياتهم ومثاليتهم، أو يحاولون أن يكونوا عكس ذلك بشكل قد يصبح متطرفًا، لكننا نتحدث بـ.. آه ما هي الكلمة؟

ابتسمت الفتاة وقالت:

- بعفوية.

- نعم، بعفوية..

- لكني لا أعرف..

- اسمي «داغر»، أنا مصاب بالبارانويا..

حدقت به الفتاة طويلًا تلك المرة بطريقتها الساحرة، لم ينظر إليه أحد بتلك الطريقة من قبل، ولا حتى زوجته قبل موتها، أراد لها أن تنظر له للأبد، أما هو فكان ينظر بترقب لردة فعلها، هل ستتركه وترحل؟ هنا ضحكت هي.. بدا الضيق على وجهه فقالت متداركة:

- أعلم أنك لا تمزح، وأنا لا أسخر منك بالتأكيد، أنا فقط لم أقابل شخصًا بهذا الـ..

بدت مترددة كأنها لا تريد قول كلمة «مرض»، وقد لاحظ «داغر» هذا، ثم رأى المعلمة داخل رأسه تعطيه درسًا في الفصل ذي المقاعد الشاغرة بعنوان:

- لا تتحدثوا مع الفتيات!

أخرج لسانه للمعلمة داخل رأسه، كانت الفتاة تتأمله وهو شارد الذهن، كأنها سوف تفهم كل أسرار البارانويا في تلك النظرة، ثم زامت بشفتيها مفكرة وضيقت عينيها، وقالت:

- أسمك داغر ها؟ أسم غريب قليلًا

- يمكنني التكهن بأن أسمك لن يكون مألوف كذلك ..

- «شهد»

رفع حاجبيه، اسمها «شهد»، عاد الشك يساوره، هو في العادة يخلق، أو تختلق هلاوسه شخصيات من التاريخ؛ لأنه قد اتخذ من دراسة التاريخ وظيفة، فيما سبق.. لكن كلا، هي حقيقية، يتمنى بحق أن تكون.. رائحتها كانت رائعة بالمناسبة، منعشة وجذابة كرائحة شيء قادر على إثارة حنق الحياة ذاتها وهي تجلس في وكرها السري مطلقة

تعاويذها الشريرة ضد البشر..

بدا تساؤل داخلي يدور بشدة داخل «شهد»، الصراع التقليدي بداخل فتاة عندما تقابل رجلًا غريبًا، هل هو آمن أم لا؟ هل أواصل حديثي معه أم أرحل في لباقة؟ توصلت «شهد» لقرارها وسألته بحدة لم تقصدها:

- بِمَ تفكر؟

- بأن رائحتك جذابة بشكلٍ قادرٍ على إثارة حنق تلك الساحرة الشريرة المدعوة بالحياة.

ضحكت «شهد» بعفوية، لم تكن ضحكات بقرار مسبق مثل سابقتها، ونظر «داغر» منبهرًا لتلك الضحكة، في حين أردفت فتاة مسرح العرائس والتي بدت كدمية جميلة تتحدث معه بعد أن دبّت فيها الحياة فجأة بفعل قوى سحر ما:

- أنت تتحدث كشاعر.

- أكتب بعض القصائد وأرسم أحيانًا.

- يقولون إن أهل الفن مخابيل.

- ألم تكن الجملة «أهل الحب»؟

هزّت «شهد» كتفيها مبتسمةً ثم قالت:

- لم أقابل مصاب بارانويا من قبل.

- أنا لست خطرًا، لن تجدي أحد خَطِرٍ يؤكد لك على كونه مكذا على أي حال.

تلوّت قسمات وجهها وهي تحاول فهم عبارته الملتفّة، ثم ضحكت قبل أن تقف قائلةً:

- عليَّ الرحيل الآن، سأعود لفرقتي، نحن في المسرح الكبير

المجاور لتلك الملاهي، أعتقد أنك تأتي هنا لنفس الأسباب التي آتي من أجلها.

ثم بدت حيرة في عينيها وكأنها لا تجيد وصف سبب مجيئها فابتسم لها «داغر» معقبًا:

- آتي هنا لأني أشعر بأن الملاهي وحيدة بعدما أغلقوها، وهي تحن لذكرياتها، عندما كانت محط اهتمام الجميع، ومصدر مرحهم وسعادتهم، بالأضواء والضحكات والصرخات، والموسيقى بها وكل شيء، بعض الأماكن تمتلك شخصية، وربما الملاهي تدعونا إليها؛ لأنها تشعر بالوحدة.

رفعت «شهد» حاجبيها المرسومين فوق الطلاء وضحكت بشدة ورقة ثم قالت:

- شاعر حقيقي، كنت سأقول إني آتي هنا لأني أحب أجواء المكان الخالي والسكون لكن لا قول بعد قولك..

ثم رفعت فجأة رأسها نحو السماء وهمست:

- ليتني أستطيع رؤية النجوم.

عنقها كان خلابًا، وكان يتحدث بأشياء أخرى لـ«داغر» الذي انتبه إليها وقال:

- ماذا؟

نظرت إليه في لَوْم وكررت ما قالته، فنظر للسماء ووقف بجوارها، قالت «شهد» بصوت مختلف:

- الملاهي لم تكن دومًا هكذا كما تعلم.

لم يستطع تحديد إن كانت تتحدث عن نفسها أم المكان، البعض يتحدث لكي ترد عليه، وآخرون يقولون أشياء لكي تصمت في إشارة

لهم أن يتابعوا، فصمت «داغر» وأردفت «شهد»:

- هل كنتَ أنت دومًا هكذا؟

ألم مفاجئ بمنتصف رأسه، يده تبحث عن علبة الدواء المهتز

هز رأسه نفيًا، وأغمض عينيه للحظة محاولًا عدم رؤية اكتساح من

المقطورة التي دهمت زوجته وابنه أمام عينيه، هذا المشهد الذي

يُعرض باستمرار على شاشة التلفاز داخل رأسه، أحيانًا يتمكن م

غلق الباب وحجب صوت التلفاز، أحيانًا، نظرت «شهد» إلى نع

وجهه وهمست:

- آسفة.

تنهد.. أعوام مضت، لم يعد «داغر» باحث تاريخ بالجامعة، بل

رجل بلا بيت ولا أسرة يعاني من الهلاوس وعدم قبول للواقع، حالة

الإنكار التي تملكته لم تقرأ كتابًا عن مراحل التعافي، ولم تكن تعرف

أنها فترة مؤقتة وعليه قررت أن تبقى معه، وهو ينام في سيارته الم

يتجول بها في المدينة ليتوه بلا هدف، يومًا ستنفد تلك المدخرات

الضئيلة وسيعمل في وظيفة ما، ربما في الميناء أو حانة المدينة، ربـ

يصبح مجرد رجل يهيم في الشوارع، الألم يتزايد في رأسه، أخرج بيد

مرتعشة، العلبة وابتلع كبسولة أمام عيني «شهد»..

- كنت أنتظر رحيلك لحين فعل هذا لكن...

ربتت بيدها على كتفه وقالت:

- هذا لا يهم..

سرت قشعريرة بجسده، النساء ساحرات، ولمسة منهن قادرة

على تغيير عالمك، المعلمة داخل رأسه تحاول نهره عن تلك الأفكار

الشاعرية، لكنه يتجاهلها..

ثم نظر للسماء مع «شهد» التي همست بصوت ينافس جاذبيته وبعنها الخلابة:

- هل تعتقد أن هناك آخرين مثلنا؟ يحيون في كواكب أخرى؟ ويمتلكون نفس مشاكلنا؟ أعني وحدة وغيره.. مشاكل نفسية وخلافه.

كانت تتجنب لقب مريض نفسي بلباقة وقد ضايقه هذا قليلًا، لكنه قال وقد أيقظت كلماتها الحس الشعري بداخله:

- آخرون.. يحيون في عوالم أخرى، في الفضاء السرمدي الممتلئ بالكواكب والمجرات، ربما لا يوجد فضاء ولا مجرات، تلك مجرد خدعة من الشركات التي حاولت إقناعنا بأن الإنسان قد زار القمر.

التفتت إليه ولكزته في ذراعه ممازحةً، فضحك، تابعت هي:

- لقد زرنا القمر منذ ٥١ عام، ماذا كان اسم رائد الفضاء بالمناسبة؟

- اسمه كان نيل أرمسترونج، ولا أعتقد أنه ذهب لمكان أبعد من دورة مياه غرفة التصوير في هوليوود، هيا يا مستر أرمسترونج، أقفل أزرار سروالك نحن على وشك التصوير، تذكّر أن تمشي ببطء كأنك تطفو، لا نريد للجماهير أن يعتقدوا أن السوفييت قد سبقونا إليه، تلك أهم حملة إعلانية في التاريخ.

- إذن أنت تُفضّل نظريات المؤامرة.

- لنقل إني أعرف دومًا أن الإنسان مستعد أن يكذب بدلًا من بذل مجهود.. كل الأشياء تطورت عدا شكل الفصل المدرسي؛ لأن هيكلة المدرسة مطابقة لهيكلة السجون والمستشفيات، الهدف منها إبقاؤك حيـة، وأفضل طريقة لحبس شخص ما هي إخفاء تلك الحقيقة عنه، وهكذا تصبح عقولنا هي السجن الخاص بنا بسبب المدارس وخلافه،

دعك من شركات الأدوية التي تحاول دومًا إبقاءك مريضة لبيع المزيد من منتجاتهم، يُعلّموننا أن ننام لثمان ساعات ونعمل لثمان أخرى ونصبح مثل كل من هم حولنا..

قالت شيئًا ما ممازحة إياه على غرار: «أنت فيلسوف أيضًا» ثم مطّت شفتيها مفكرةً، أراد أن يُقبّلها لوهلة، لكنه ظل واقفًا مكانه، لتلك اللحظة هو لا يعرف إن كانت حقيقية أم إنها جزء من هلاوسه..

قفزت «شهد» بحركة بهلوانية ووقفت على يديها للحظة برشاقة، ثم عادت على قدميها وانحنت كأنها تحيي جمهورها المائل في شخص «داغر»، ابتهج وجه الأخير، يا للحياة المفعمة بداخلها.. ثم لوّحت له «شهد» بيدها، ظل يتابعها بعينيه وهو يهمس: «لو توقفت والتفتت خلفها، فهذا يعني أني قد تركت انطباعًا جيدًا لديها، فقط لو التفّت ونظرت، هيا يا فتاة.. لا تقتربي من البوابة الصدئة تلك قبل أن تلتفّي وتنظري لي، آه آسف أيها الملاهي لم أقصد دعوة بوابتك بالصدئة، لكن انظري لمدى روعة تلك الفتاة، هي ساحرة حقيقية»

خرجت «شهد» من البوابة، توقفت ثم استدارت ونظرت لـ«داغر» الذي ابتسم وحيّاها، ثم أشاح بوجهه بعيدًا عن المعلمة داخل رأسه في الفصل إياه، وكفّت المعلمة عن الإشارة بعصاها لعنوان الدرس المكتوب بالحبر الأبيض على السبورة: «لا تتحدث مع الغرباء»..

تنهد «داغر» بعد رحيل «شهد»، لمح جريدة أنباء مطوية، فالتقطها بحكم الغريزة، فيما يبدو أن أحدهم نسيها، لعله كهل يرتدي قبعة بدلًا من الطربوش وقد أتى في الصباح ليقرأ الجريدة وسط هدوء الملاهي بعيدًا عن صخب وشكوى زوجته أو حماته، ضحك «داغر» للفكرة، وقرأ تاريخ اليوم ليتأكد من أنها جريدة حديثة.

الثالث من ديسمبر، عام ١٩٨٤.. بدأت عيناه تطالعان الأخبار أولًا، لمح فأرًا يطل برأسه من فتحة تهوية قريبة من مقر قيادة العالمية فحياه «داغر» برأسه وقال: «مرحبًا بك يا صديقي، هل تشعر بوحدة وأتيت هنا كي تلبي نداء الملاهي كذلك؟ إليك آخر الأخبار إذن، اختطاف طفلة مقابل فدية وإرسال ساقيها وذراعيها لأهلها بعدما رفضوا الدفع. افتضاح شركة أدوية بعد بيع عقاقير بالملايين، وقد سببت تلك العقاقير في تشوه الأجنة وموت الحوامل. ضحايا تشرنوبل ينتحرون واحدًا تلو الآخر. قيام مصرف بالحجز على أملاك رجل أعمال فانتحر الأخير بعد قتل زوجته وأطفاله ليجنبهم الفقر. أم إنها «ليجنبهم الخزي»؟

رفع «داغر» رأسه ونظر للفأر الذي وجم بوجهه ورقد أرضًا وقد كفّ حركته..

- آه لقد أصبتك بالاكتئاب، سامحني يا صديقي، ليت هناك أخبارًا عن معزوفة جديدة لبيتهوفن أو اكتشاف علاج للسرطان أو حتى تغيُّر شكل الفصل الدراسي، لقد طوروا عربة الخيول لسيارات واخترعوا الطائرات وتوصلوا للقنبلة النووية، لكنهم لم يغيروا شكل الفصل الدراسي بعدُ، نفس الطبشور والمقاعد السقيمة والسبورة، نفس الجرس وباحة المدرسة، هل تعلم أن هيكلة المدرسة مطابقة تمامًا لهيكلة السجون؟ لا تنظر إليَّ هكذا أيها الفأر، فكِّر بالأمر، هم يحاولون ترويض روحك وتحجيم خيالك وجعلك مطيعًا منذ أن تولد، آه نظراتك تقول إن عقدة الاضطهاد بداخلي تتحدث، ربما أنت محق، ولكن بالله عليك، أعني ألا تشعر بأن هناك منظمة غامضة تحاول إفساد المدارس؟ لعل نفس المنظمة تلك هي التي وضعت

قواعد الزواج لتحوله من حلم رومانسي جميل لصفقة مادية بشـ تشابه صفقات المافيا بين عائلات تجار الهيروين في صقلية..

تحرك الفأر مبتعدًا وكأنما فقد اهتمامه، رمى «داغر» الجر جانبًا وزفر شاعرًا بشحنة الأخبار السلبية تزهق روحه، لم ينسَ بالطب ملاحظة الأنباء المحلية عن حالات الاختفاء المتزايدة بالبلدة..

ثم رفع رأسه مكورًا يديه حول فمه، وصاح بشكل درامي ضاحـ محدثًا السماء الخالية من النجوم: كائنات فضائية أو مخلوقات السما أو أيًا كان من أنتم بالخارج.. لا داعي للقدوم للأرض، ستندهشو حقًا من قدر حماقتنا!!

بدأت الأمطار في السماء كأنما الأخيرة ترد عليه:

- كلا، سوف تبددين رائحة الفتاة.

ظل يُعبِّئ الهواء كأنه يريد الاحتفاظ برائحة «شهد» بداخله، ثم عدا صوب سيارته وهو يحني رأسه محاولًا تجنُّب الانهمار المفاجـ للأمطار الذي تلاه برق ساطع ثم رعد مدوٍّ..

قفز داغر داخل سيارته، لمح شخصًا ما من بناية مقابلة يحدق به فانتصب جسد «داغر»، وشعر بغضب، لماذا ينظرون إليه بتلك الطريقة! هل يسخرون منه أم يدبرون له شيئًا؟ ظل «داغر» ثابتًا بموضعه و ينظر بتحدٍّ من النافذة، هنا اعتدل الساكن من داخل شرفته، واتضـ أنه كان يتحدث مع أحد بجواره، ولم يكن يرى «داغر» من الأساس! تنهد الأخير، وقال بإرهاق: «كُفَّ عن إيذائي أرجوك، لا أحد يراقبني لا أحد ينظر بسخرية، ولا أحد يحيك المؤامرات ضدي، أنا مرهـ فقط كُفَّ عن ألعابك، على الأقل اجعلني قادرًا على التفرقة ما بين ما حقيقي وما هو هلوسة».



CamScanner

كان يتحدث مع عقله.

***

كرّر «داغر» لنفسه وهو يترجل من سيارته العتيقة: «سأظل محتفظًا برجاحة عقلي حتى أفقده تمامًا، لن أشك، وعلى أي حال سواء جُننتُ أم لا، سوف أتناول بعض شطائر الفول والطعمية الساخنة وأعقبها بكوب شاي هائل، وبعدها ليحدث أي شيء.. أنا جوعان بحق».. ثم فتح فمه وقال: «شهد».. كرر الاسم عدة مرات قبل أن يغمغم مبتسمًا: اسمها حلوّ المذاق في الفم، كالشهد، لا بد أنها سمعت تلك العبارة المبتذلة مئات المرات، لكنها حقًا تنطبق عليها..

أدار محرك السيارة آملًا أن يستجيب له، ثم تحرك بها متجهًا لميدان الساحة، وصولًا لعربة بائع شطائر الفلافل والفول، هذا البائع الباسل الصامد دومًا في وجه العاصفة، لشدة ما كان يحترم «داغر» بسالة هذا البائع ويتخيله كقائد حربي يقود أسطوله من الفلافل والفول ضد أعاصير العالم بأسره..

شذّ ياقة سترته مع انهمار الأمطار وصفير الرياح، لقد كان ينتظر في السيارة لنصف ساعة، ولكن الأمطار أتت لتبقى، والحقيقة أنه شرد قليلًا مع صوت طرقات الماء القادم من السماء على زجاج سيارته، وظلت عيناه تطالعان هذا المشهد الخلاب وسط ظلال الليل.. توقفت الأمطار فور خروجه من السيارة، فمسح على رأسه المبتل مغمغمًا: كعادة حياتي كل شيء يسير بتوقيت مناسب جدًا..

توقفت عيناه لثوان عند عبارة مكتوبة فوق جدران زقاق جانبي: «لا شيء كما يبدو عليه.. حاولوا أن تتذكروا».

وقف عاملا نظافة يرتديان زيًا أزرق خاصًا بمؤسستهما وهما

يصنعان تلك العبارة بسائل رش..

– آه، يكادون يكونون أبطالاً في توقيت كهذا ويتركون الزجاج المهشم والمتسولين في شوارع الميدان في نفس الوقت؟!

تمتم «داغر» بالعبارة بصوت خافت، والتفت أحد العمال إليه بصرامة كأنه قد سمعه، حياه «داغر» برأسه مسترسلاً في أفكاره «وجه جاد للغاية، لقد عرفت الآن ما هو أسوأ مخاوف «الإنسانية» هذا الوجه بالتأكيد»!

همّ «داغر» بعدها بعبور الشارع وعيناه تنظران لعربة بائع الشطائر وقال فور أن بدأت رائحة الفلافل تسلل لأنفه: «الحب الحقيقي»..

هنا أوقفت سيارة مكابحها بقوة بجوار «داغر»، وتولت المكابح مهمة نثر بركة من مياه الأمطار فوق سروال الأخير الذي تراجع للخلف بوجه واجم، الحقيقة أن تعبير وجه «داغر» يتحول للوجوم قبل حلول كارثة، أنزل السائق زجاج سيارته، ليكشف عن وجه أربعيني لرجل ناحل شعر الرأس وهزيل البنية، صاح السائق لـ«داغر»:

– عشرون عامًا وأنا أعيش مع زوجتي، أذهب للعمل وأعود فاحيّي جاري وأدخل لأجلس مع المدام في صمت، هل تعلم ما الذي لاحظته بعد عشرين عامًا؟ لم أرَ أبدًا جاري عائدًا بالبقالة أو يرتدي شيئًا بخلاف الجلباب، هل تعلم ما الذي يعنيه هذا؟

قطب «داغر» جبينه، ثم نفض رأسه وتحسست يده علبة الدواء وقال للرجل:

– أنت لست حقيقيًا، مجرد هلوسة، أنا لم أفقد عقلي بعدُ..

وسار مسرعًا دون انتظار رد، متجهًا لبائع الشطائر، حدث كل شيء بعدها بسرعة خاطفة، ولم يرتب «داغر» وقائع ما حدث في عقله

إلا عندما عاشها كذكرى، أنت تعرف تلك الأشياء المفاجئة والسريعة التي تقع بلا مقدمات، فتتصرف كرد فعل لها وبعدها يأتيك الوقت الكافي لحقن منطق كافٍ في أوردة ما حدث..

لا يعلم إن كان قد سمع الصيحة أولًا، أم إنه رأى المجذوب «القبطان» وهو يجري..

فقط أدرك أن هذا الرجل الخائف الذي ظهر من شارع جانبي بحاجة لعون..

«خائف» ليست بكلمة مناسبة لوصف حالة الرجل، لقد كان مرتعبًا..

يعدو وينظر خلفه ويصيح بجملة ما.. بعد دقائق من الاستيعاب أدرك «داغر» أنه قد تتبع الرجل العجوز، المتشرد، المجذوب، أيًا كان وصفه، وأنه يقف أمامه الآن في الميناء.. فيما بعد سوف يسترجع «داغر» كل التفاصيل، ولكنه الآن كان يستمع للمجذوب:

- اسمه «موسى».. ولسوف يحل الهول بنا جميعًا على يديه.. هو شر مطلق.. وهو هناك... في البيت عند التلة.. لقد رأيتُ الحقيقة.. هم لم يختفوا فقط.. لن تُصدق حقيقة ما حدث لهم.. يا إلهي أغثنا.. آه.. لن تصدق أبدًا حقيقة ما يحدث، لن يصدقني أحد.. «موسى» أخذهم جميعًا.. يقولون إنهم اختفوا، يدعونهم بحالات اختفاء، لكني فهمت.. أنا لست بعجوز خَرِف، لقد كنت قبطانًا وأبحرت لأعوام..

وانتفخت أوداجه لثوانٍ في كبرياء، ثم بكى وتهدل كتفاه..

- اسمه «موسى».. لماذا لم يسألوا «سيلين»؟ آه «سيلين».. تلك المرأة الطاهرة التي أزهق هذا الغول روحها..

قالها القبطان العجوز وهو يجلس في الميناء المهجور، وأمامه

وقف «داغر»، كان الأخير مرهقًا بحق، ويبدو كأنه لا يبالي بشيء، لكن عقله بدأ في ترتيب ما حدث منذ لحظة اقترابه من شطيرة الفلافل..

نعم.. نعم..

منذ دقائق كان يسير باحثًا عن متجر يبتاع منه بعض الشطائر في هذا الوقت المتأخر من الليل، عندما وجد رجلًا عجوزًا، كلا «عجوز» ليست بكلمة مناسبة، هذا الرجل قد هرم لدرجة مروعة في السن حتى لتعتقد أن جميعنا أطفال مقارنة به، تجاعيد تتسابق لتجد موضعًا على وجهه، قامة منحنية، ثياب بحرية رثة، بل هي ثياب قبطان بالية لمحه «داغر»، ولاحظ كل تلك التفاصيل في ثانيتين فحسب؛ لأن المجذوب، أو المتشرد كان يعدو كأن الشيطان يطارده وهو يصيح بعبارة ما لم تتبينها أذنا «داغر».. قال شيئًا على غرار: «اض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف».

حاول «داغر» فهم تلك العبارة، كانت هناك رياح شتاء عاتية بدا لـ«داغر» أنها قد حملت كلمات وأحرف العبارة وأوصلتها إليه متناثرة، وعليه أن يعيد ترتيبها؛ ليفهم ما الذي يصيح به الرجل الذي كان يواصل الهرب من شيء ما.. يترنح.. يسقط أرضًا.. يقف.. يتعثر.. ينظر خلفه.. يواصل العذو.. انتقلت عينا «داغر» تلقائيًا وبحكم الغريزة لرؤية مدخل الشارع الذي خرج منه المجذوب عدوًا، لم يجد أحدًا يطارده، فقط خُيِّل إليه أنه قد لمح ظلًا ما، وربما أطارت جريدة ورقية بالية نصفها محترق مكتوب فوقها «حالات اختفاء جديدة»، كانت ملقاة بإهمال فوق الأرض الأسفلتية.

عاد «داغر» بناظريه للمتشرد، كان يبدو في حالة ذعر رهيبة، تنهد «داغر» ونظر للقوم غير المبالين مِن حوله، وتخيل في عقله معلقة



@ART_OF_BOOK
CamScanner

المدرسة تنحني في الفصل لهؤلاء القوم عندما كانوا أطفالًا وتقول مبتسمة بكل ود ورقةٍ: «وهكذا يا صغار، اكبروا لتصبحوا رائعين، لكن تذكَّروا.. عليكم دومًا تجاهل المتشردين، هم ليسوا بشرًا مثلنا»..

أطلق «داغر» سبة خافتة، ونظر بطرف عينه لعربة بائع الشطائر، رائحة الفول المدمس والطعمية تكاد تعانق روحه، لكنه ترك البائع وتحرك في أثر المجذوب وهو ينقد البائع بعض العملة مسرعًا، حاملًا الشطيرة بين يديه، زاد «داغر» من سرعته، ليجد نفسه ينعطف في شارع خلفي، رأى المجذوب يعدو في نهايته، يلتفت خلفه فيلمح «داغر» ليصرخ ويواصل الهرب.. يصيح «داغر»:

- رويدك يا رجل، انتظر، لن أؤذيك..

ظل يتبع الرجل، ثم دوَّى الرعد مرة ثانية وانهمرت الأمطار، هناك العديد من الزجاج المهشم والسيارات المهجورة، أدرك «داغر» أنه قد تبع المجذوب للمنطقة المهجورة القديمة حيث الميناء الخالي، رأى ظل المتشرد يختبئ خلف صندوق تحميل داخل الميناء، ولثانية توقف «داغر»، الأمطار تنهمر على وجهه، والشطيرة البالية في يده، نظر للميناء في قليل من الرهبة، بعض الأماكن تمتلك شخصية بسبب طول عمرها ووحدتها، والميناء كان من تلك الأماكن، لم يرَ «داغر» ظل الثالث الذي كان يتبعهم، وهو يدلف للميناء بتردد ويصيح:

- أين أنت يا رجل؟

ثم لوَّح بما في يده:

- أريد أن أعطيك بعض الطعام فحسب..

سار للأمام بتأنٍّ، دون أن يرى هذا الذي يتحرك بسرعة الزواحف فوق الجدار من خلفه، ينسلُّ من الجدار ويقف من خلفه، يتبعه، بظل

ومعطـف طويل، هناك طربوش داكن اللون فوق رأسـه، لـم يرَ داغر
ولـم يسـمع هـذا الصوت الصادر من فمه، طاك طاك طاك، وكان يسير
مـن خلفه علـى بُعد أميال متبعًا إياه، ويقترب «داغـر» من المينـاء بدون
خلـف المجـذوب، ثم أجفل عندما وجده أمامه، ظهـر فجأة من العدم
واختطـف الشـطيرة من يد «داغر» وبـدأ يلتهمهـا، دون أن يتبادل حرفًا
واحـدًا معـه، يلتهمهـا كأنـه إنسـان الغاب فـي مرّته الأولى لاكتشاف
الطعام، رفع «داغر» حاجبيه في دهشة وضحك ثم قال للعجوز:

- رويدك..

انتهى العجوز من تناول الشطيرة بالكامل، كان يأكل بسرعة ونهم
القطط، وهز «داغر» رأسه متخيلًا المعلمة إياها في المدرسة وهي تشرح
الجموع درس «اللامبالاة»، وقال في عقله لها: «سحقًا لكِ»..

ثم هزَّ رأسه للمجذوب واستدار راحلًا عندما هتف الأول:

- ألا تخاف مني؟

توقف «داغر» وردَّ بصوت عالٍ قليلًا وسط دويِّ الرياح العاتية:

- لقد بدا لي كأنك أنت الخائف قليلًا..

- الـكل يخافون مني، يعتقـدون أنـي مجذوب، لكنك متقزز مني
أليس كذلك؟ لهذا توليني ظهرك وأنت تتحدث معي..

التفت «داغر» صوب الرجل وقال برفق:

- أنا كنت بصدد الرحيل ليس أكثر..

حدَّق العجوز في عيني «داغر»، ثم قال بفم ممتلئ بالطعام:

- هو قادم من أجلي، لقد عرفتُ الحقيقة..

هزَّ داغر رأسـه بتفهُّـم، الوحدة تتلف العقول، وهـو خير من يعلم
هذا، فما بالك بحياة المجاذيب، بكل ما فيها من عقد اضطهاد وبارانويا

وغيره، هناك دومًا «هو» و«هم» و«خطر ما قادم» و«داغر» خير من يعرف هذا.. لكن المجذوب صاح:

- استمع إليّ، أنا قد رأيته، لم أستطعْ إنقاذها.

وبكى بصوت يقطّع القلوب صائحًا:

- لم أستطع إنقاذ «سيلين».

تلفت «داغر» حوله وكاد أن يقول للرجل: «لو كنت تهرب من أحدهم فأنت سوف تجذبه إليك بصراخك هذا»، ثم صمت «داغر» لحماقة الفكرة، دعك منه أنه لا شيء سيعلو أبدًا على صوت الرياح.

واصل القبطان حديثه: لقد قتل «سيلين» وصديقتها، وابنها الذي لم يولد بعدُ.

لطم المجذوب وهو يقول الجملة الأخيرة، وبدأ يشد وجنتيه في جنون ويخمش وجهه فصاح «داغر»:

- رويدك يا رجل.

دفن العجوز يديه في وجهه وظل ينهنه، ثم رفع وجهه صوب «داغر»، الذي فكر: «يا إلهي لا أريد أن أنتهي مثله، لا أريد أنتهي مثله»، كانت هناك بعض الجروح على وجه المجذوب، الذي لهث وأخرج لسانه ليلعق به وجهه في جنون، كأنه يحاول مداواة الجروح، ثم صاح:

- لقد اختبأتُ منه، وخرج هو.. لقد قالت الروح التي تحدثت من فم العراف أن السر يكمن هناك، في البئر.. يجب أن تجد كتاب الأحلام.. ربما كانت تعني البيت.. آه يا إلهي لا أتذكر.. وأنا قد ذهبت حيثما قالت خارج حدود المدينة التي لن تسمح لنا أبدًا بالخروج منها، حيث التلة، والبيت، والبئر.. يا إلهي.. وهناك رأيت الحقيقة.. لن تصدق أبدًا.

ثم صاح مرة أخرى وهبَّت الرياح، فقط ليسمع «داغر» مرة أخرى نفس الجملة متناثرة الأحرف:

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف».

- ما الذي تقوله بالضبط؟

لم يسمعه العجوز، فقط واصل صياحه:

- انظر.. حتى الرياح أصبحت خائفة، هي تشعر بوجوده..

وابتلع العجوز ما في جوفه بعدها، ثم جثا فوق ركبتيه صائحًا والأمطار تختلط بدموعه:

- يا إلهي لقد رأيتُ الحقيقة التي لن يصدقها أحد أبدًا.. لقد ك دومًا على حق.. لماذا لم يسألوا «سيلين»؟

كان يصرخ بصوت يتقطع له القلب، واستيقظ الأسى ممزوجًا بالشفقة داخل «داغر» الذي ظل ينظر للرجل، وتمنى لو كان مع شطيرة أخرى ليعطيه إياها.. ما الذي يعنيه بماذا لم يسألوا «سيلين»؟

- لقد عرفتُ الحقيقة وأعرف أني لن أحيا للغد، سيُزهق روحي. هو في كل مكان، خلفك وخلفي، أسفل فراش من ينامون وداخل خزانة ثيابهم، كنت أسير ذات مرة بجوار شيخ، وكلانا شعر به يمر من جوارنا، ويتحدث بلغة قديمة أحرفها مقلوبة، لسانه يطقطق بالحروف كالثعابين ولا ينطقها، حينئذ بكى الشيخ ولطم، وظل يقرأ القرآن ثم سقط صريعًا وقد توقف قلبه.. لا تنظر إليَّ باستهزاء كهذا، نعم أني خَرِف عجوز أليس كذلك؟ لكنه حقيقي.. «موسى» حقيقي.. هو يتحدث بتلك اللغة القديمة وينطق بلسان مقلوب عندما يقتل.. يقولون إن روحه ممسوخة بالشر، وإن خبثه قد حرَّر جزءًا من روحه ليمتلك شر.. أنا لست مخبولًا.. أنا لست مخبولًا.. لقد كنت أقرأ الكتب

لقد كنت أقرأ الكتب.. ورحلتُ عبر البحار وسمعتُ الحكايات عنه.. لقد أدركتُ فورًا أن الروح تتحدث عنه وهي تصفه.. ليتهم سألوا السلين!..

ظل المجذوب يصيح بالعبارة مرددًا إياها، وأردف واللعاب يتطاير من فمه:

- حتى الشيخ حينها شعر بمقدار الطاقة الشريرة المنبعثة منه فمات، وبعد عشرين عامًا تقودني الظروف لقدري، وأحضر جلسة تحضير يحضرها هو.. وهو الآن قادم من أجلي؛ لأني قد رأيتُ الحقيقة..

شعر (داغر) بالجوع يجذبه من كتفه ليُذكِّره بمهمته الأصلية قبل ظهور المجذوب، الذي اتضح أنه مخبول تمامًا، فغمغم (داغر):

- استرح قليلًا، ثم.. لعلك تجد مكانًا دافئًا داخل الميناء..

انقضَّ المجذوب على (داغر) وجذبه من ذراعه، وتمنى (داغر) في تلك اللحظة أن يعود للملاهي ويحتضن فتاة مسرح العرائس ويترك لطرها يفعم روحه بدلًا من هذا المخبول، ثم أدرك أن المجذوب يهم بالانقضاض عليه، لا توجد أحضان هنا، تحفز (داغر) في البدء، ثم هدأ عندما بدأ المجذوب في التوسُّل إليه:

- أرجوك، استمع إليَّ على الأقل، فقط استمع إليَّ.. هناك سر رهيب في تلك المدينة وأنا قد عرفته، ولسوف أدفع عمري ثمنًا لذلك، لقد بدأ كل شيء عندما فقد الجميع وعيهم لعشرة دقائق كاملة، كان هذا عندما وصل هو، أنت لا تفهم أليس كذلك؟ الحقيقة بسيطة للغاية، فقط علينا أن نتذكر، كلنا في خطر يا رجل، ألا ترى هؤلاء الذين يختفون كل ليلة، ألا تعلم أنه هو من يأخذهم، أرجوك أنا لست بجاهل، فاعلم، لقد أبحرتُ لعشرين عامًا، ورأيت ما لن تصدقوه أبدًا، وكل

ما رأيته، كل تلك اللحظات ستهدر كالدموع وسط الأمطار..

قالها بصوت راجف وأغمض عينيه، واصلت الأمطار انهمارها، وارتمى القبطان العجوز للخلف، وأردف بإرهاق:

- حقًّا لا تريد أن تعرف؟

ثم أخرج شيئًا ما من جيبه، محفظة بالية رثّة، كانت خالية تمامًا ومهترئة، عدا صورة قديمة، مكتوب شيء ما على ظهرها، حرك القبطان ذراعه بصعوبة وقد ولت عنه طاقة الجنون، وأضاف وهو يلوح بالصورة في وجه «داغر»: ما الذي تنتظره؟ خذها.. لقد أعطتني «سيلين» إياها لأني أفقد ذاكرتي أحيانًا.. كثيرًا ما تظلم الدنيا وأسير فحسب، ولذا دوَّنت الطاهرة عنوانها على تلك الورقة؛ كي يحضروني إليها لو ضللتُ الطريق..

قطب «داغر» جبينه، وهو يقف لا ينتوي على فعل شيء، صاح المجذوب:

- خذها، تلك «سيلين» في الصورة يا أحمق، لماذا تبدو عليك البلاهة هكذا؟ وهذا عنوانها المدون بظهر الصورة.. اقلب الصورة وكُفَّ عن ترددك هذا.. اذهب إليها واسألها..

بكى العجوز ولطم وجهه مردفًا:

- ولا تخبر ابنتي أنك رأيتني.. هي تعتقد أني ميت.. كيف أجعلها تراني على حالتي تلك؟ اكتفيت بمراقبتها عن بُعد طيلة الأعوام.. لا يجب أن تعرف أن أباها.. آه.. آه يا لوعتي.. دعها تراني في الزي البحري وأنا أعتلي السفينة، لا يجب أن تراني في أي صورة أخرى..

رفع «داغر» عينيه، لقد اعتاد سماع كل القصص التراجيدية في حانة المدينة، لكنها مرته الأولى في سماع قصة تبدو إليه وكأنها قادمة

من مسرحية قديمة، متشرد عجوز تعتقد ابنته أنه ميت، وهو يراقبها من بين الظلال.. هذا بالطبع لو لم يكن كل هذا خزعبلات مجذوب..

ثم جفل «داغر» فجأة مع صياح القبطان:

- دعوا ابنتي لشأنها، انسَ أمرها، فقط اذهب لـ«سبلين» واسألها..

هز داغر رأسه وبدأ في الرحيل دون أن يرد، فصاح القبطان:

- لا تتركني.. لا أريد الموت وحيدًا..

رأى «داغر» المعلمة في المدرسة إياها تبتسم داخل عقله، وهي بصدد إعطاء الدرس الثاني بعنوان: «التعاطف أمر سيئ»..

توقف «داغر» ليزيل فقط الابتسامة من على وجهها، وشيء بداخله ينقبض، الأطفال يهللون عند رؤية طبيب أو ضابط شرطة أو بطل رياضي، ويتخيلون مستقبلهم بنفس الشاكلة، وبشكل ما.. يتخيل «داغر» نفسه في موضع المجذوب بعد عدة أعوام..

جذبه صوت الرجل بعيدًا عن أفكاره:

- دعني أخبرك عن الأشياء التي حدثت ليلًا، في الثامنة مساء من زمن سحيق!

وظل المجذوب يحكي، بعينين متسعتين، وتخيل «داغر» الأحداث على انعكاس عيني العجوز..

- لقد نام الجميع فجأة لفترة من الزمن، أغشي عليهم بلا سبب، وعندما استيقظوا كان هناك شيء ما مختلف.. ثم بدأت حالات الاختفاء.. لكني لم أنم.. لقد كنتُ أسير وسطهم.. هل تتخيل، كل من في المدينة نائم.. الجميع، سيارات مهشمة وأبواق تصيح.. كل شيء كان خاطئًا.. كنت أسير فاغرًا فمي.. أتلفت حولي وأنظر إلى كل هؤلاء النائمين، في الشوارع والبيوت.. في المتاجر والسيارات..

لماذا لم أنم مثلهم؟ ربما لأني مخبول، ربما الخبل قد حمى عقلي أحيانًا كنت أتلصص من النوافذ على ساكني البيوت فيجزعون مني وينهرونني، ونِمْت في العراء، وجدتُ القط ينام في حضني، واعتنيت به مثلما وجدتني «سيلين» -رحم الله روحها- واعتنت بي بعدها لكني رأيت الحقيقة.. وأدركت أني لم أكن أهذي.. أن.. أن..

أراد «داغر» أن يكمل العبارة للعجوز، أن عقلك لا يزال ذا شأن لكنه صمت وأكمل القبطان:

- تبعته من الفندق.. رغم رعبي منه.. حتى وصلت للبيت أعلى التلة.. في أقصى المدينة.. وعندما رفعتُ قامتي رأيتُ «موسى» أمامي يقف أعلى التلة، لم يرني، فتبعتُه فور أن دخل البيت، هناك ضباع عدة تحيط بالبيت، سمعتُ من قبل أن قوم وادي بقر قد باعوا لحمهم وأجسادهم لموسى وأصبحوا بوجوه ضباع، كنت أعتقد أنها خرافات بحارة.. آه.. ظللت مختبئًا بالداخل، وأنا أحبس أنفاسي، لكن من كنت أخدع؟ «موسى» يشم رائحة أنفاسي ويسمع دقات قلبي، لا بد أنه كان يعرف أني بالداخل، فقط ينتظر ليرى ردة فعلي عندما أرى الحقيقة، وقد رأيتُها، إن الحقيقة لغانية لا ترحم أحدًا، هي تختبئ دومًا ولكن من يبحث عنها يجدها، ولسوف يدفع الأمرَّين ثمنًا، وأنا قد رأيتها، ولم يعد هناك شيء يهم بعدها، ظللت أصرخ، وأجري، استجمعت شجاعتي ونظرت خلفي مرة واحدة فقط، فوجدت «موسى» يتبعني.. وهو يطقطق بلسانه بصوت عالٍ متزايد كلما اقترب مني.. عدوتُ، وعدوتُ، وعدوتُ...

رغمًا عنه، شعر «داغر» بتوتر ينساب لصدره والتفت خلفه، ثم نظر للعجوز، وقال بصوت خافت متردد:

- هـ.. هل أنت حقيقي؟ أم إنك جزء من هلاوسي؟

وجّه القبطان لـ«داغر» نظرة خاوية يشوبها عدم الفهم، جزء من النظرة كان شاردًا و لم يبد أنه قد سمع السؤال من الأساس..

- لماذا لم يسألوا «سيلين»؟

شعر «داغر» بالصداع فجأة ينساب لرأسه، وتسللت ابتسامة نصر لوجه المعلمة المسئولة عن اللامبالاة بالمدرسة داخل عقله، هذا العجوز يخرِّف ويقول أشياء غير متناسقة ولا يوجد بها منطق.. إنه وقت الرحيل.. ما الذي يجذب المجاذيب بالضبط؟ أي نداهة ليلية تُفقدهم عقولهم؟ تنهد «داغر» وهز كتفيه، عليه الرحيل..

نظر للقبطان الذي توقف عن الكلام بأنفاس متلاحقة وصدره يعلو ويهبط من الانفعال، هدأت الأمطار قليلًا، فأشعل «داغر» لفافة تبغ لنفسه، وعرض واحدة على القبطان الذي صاح:

- لا أدخن هذا الهراء، التبغ يقتل..

- آه من الرائع اهتمامك بالحالة الصحية لنفسك.. لم أرَ قبطانًا لا يدخن من قبل، الحقيقة أن تلك هي مرتي الأولى في مقابلة قبطان، هذا لو كنت قبطانًا حقًا، لا تغضب كهذا، لا أتهمك بالكذب، أنا فقط مرهق وأريد الرحيل، الكل يعرف بأمر تلك الظاهرة القديمة، نعم فقدنا جميعنا الوعي لمدة عشر دقائق وكان هناك ضحايا، تحدث العلماء والخبراء والإعلام عن الأمر، واتضح أن لا أحد يعرف شيئًا، والخبراء لا يمتلكون خبرة سوى في الكلام، مرَّت أعوام بلا تفسير، ونسي الجميع الأمر كديدن البشر، وكل حين وآخر يدس شخص أنفه فيما لا يخصه ليدلي برأي ما في تلك الظاهرة العجيبة.. أرح بالك ونم يا رجل، النوم شيء رائع وأنت بحاجة للكثير منه..

صاح القبطان:

- أنا قد فهمت سبب ما حدث، اذهب لأقصى المدينة حيث الثلة وستفهم.. فقط احمِ ابنتي أرجوك..

قالها مشيرًا للصورة، هنا انتاب «داغر» مزيج من الحنق والغضب وقال بصوت مكتوم:

- الآن تقول إن «سيلين» هي ابنتك؟ ألم يكن الاثنان لا يعرفان بعضهما منذ قليل..

وتزايد الألم داخل رأس «داغر»، لماذا يلوم المجذوب على كونه مخبولًا وخَرِفًا؟ هو أيضًا يسير في نفس الاتجاه.. وربما هذا هو سبب غضبه، زفر «داغر» فوجَّه له القبطان تلك النظرة الخاوية مرة أخرى.. ثم لوَّح بالصورة مردفًا إزاء تعبير التشكك على وجه «داغر»:

- هي ابنتي حقًّا، أخذتها أمها منذ أعوام؛ لأني كنت في البحر، أنت لا تصدقني، هي لم تهجرني بل تعتقد أني ميت.. أنت لا تفهم.. كلنا في خطر داهم، من يعرف الحقيقة يواجه خطرًا داهمًا، وأنت تحدثت معي، ولذا أنت كذلك في خطر، و«سيلين» في خطر؛ لأنها ابنتي، وابنتي كذلك في خطر، آه انتظر، «سيلين» في خطر لكن ابنتي لا تعرف بعد، ابنتي ليست «سيلين»، تبًّا لهم، فقط لو تذكرنا، نعم.. «سيلين» ليست ابنتي.. ولكن عليك حمايتهما.. لكن «سيلين» ماتت.. آه رأسي.. رأسي يؤلمني، اذهب واسأل «سيلين»، سيعتقدون أني قد أخبرتها كذلك.. أنا أعرف أين تقطن هي، لكني لم أجسر أبدًا على مواجهتها، كيف أواجهها بمظهري هذا.. ابنتي الحبيبة.. «موسى».. لقد اعتادوا تغطية المرايا؛ لأن «موسى» مثل الموتى يبغي خطف أرواح الأحياء من المرآة.. ستراه يقف خلفك ويمد يده في ظهر انعكاسك

ليعتصر قلبك.. تلك واحدة من حيله الشيطانية، لا تنطق اسمه بصوت عالٍ أبدًا وإلا أتى إليك؟ هل تفهمني؟ لا تنطق اسمه أبدًا بصوت عالٍ.

ثم صاح العجوز بعينين تُنذِران بالويل:

- امووووسى!..

تزلزلت الدنيا برأس «داغر» في تلك اللحظة؛ إثر كل تلك المعلومات المتناقضة من العجوز الذي ظل يخلط بين «سيلين» وابنته.. هنا أشار القبطان لنفسه بكبرياء جريحة وأردف بنوع من التشفي:

- أنت كذلك في خطر؛ لأنهم سيعتقدون أني قد أخبرتك بالحقيقة.. هم دومًا يراقبون.. سوف يأخذونك بعيدًا لو أظهرتَ أي عاطفة، عليك أن تتصرف بالجمود وإلا أدركوا أنك بشري ولست تقليدًا.

- ما هذا الهراء؟ عمن تتحدث؟ من هم بالضبط؟

تلفت المجذوب حوله بعينين تنطقان رعبًا وهمس:

- هم.. الضباع التي تتخفى في هيئة بشر.. أبناء «موسى».. في كل مكان.. أتوا من البئر السحيقة، حيث تصرخ شياطين سقر وتعوي الغيلان، هذا العالم القديم، ألم تكن تعرف أن هناك عالمًا مماثلًا في المدن القديمة؟ مثل الإسكندرية، المدن التي يمتد عمرها لقرون تقع فوق عالمهم، هؤلاء الذين يسكنون عالم السفلي، يتحلون هيئتنا، لكن وجوههم لا تتغير، ضباع، كلهم أبناء «موسى»، يسيرون بيننا ويطقطقون ويأخذون بعضنا ليذيقونا الأهوال في عالمهم.. ألا تفهم يا رجل؟ لكنهم ليسوا مثلنا في شيء واحد فحسب، لا يمتلكون مشاعر، لذا لو تظاهرتَ بالجمود سيتركونك لحالك معتقدين أنك واحد منهم، العراف قال إن العامل الوحيد المشترك بين كل الذين اختفوا كان أنهم أبدوا عواطف مختلفة قبل اختفائهم، ربما بكوا أو ضحكوا أو صرخوا

أو انتابهم حزن.. من يُبدي مشاعر لسوف يختفي.. سيأخذونه بعيدًا ويدفنونه في التراب.. عليك باللامبالاة والصلابة وإلا الويل لك!

هنا وصل «داغر» لقراره واستدار راحلًا، حقيقة أن الرجل يمتلك قدرًا هائلًا من الأساطير، وربما كان حقًا بحارًا وسمع تلك الأساطير خلال رحلاته، لكن تلك مجرد احتمالات، الواقع الوحيد أن عقل الرجل تالف، وهو يدلي بكلام متناقض وغير مفهوم، ولا يوجد أحد يطارده.. كانت الأفكار تتراصّ بنعومة داخل عقل «داغر» وهو يرحل من الميناء، بينما صيحات المجذوب تلاحقه عبر الميناء:

«هم يتحكمون بكل شيء».

«لا يوجد شيء اسمه اكتئاب.. شركات الأدوية اخترعت هذا الاسم، وأقنعوا بها الناس؛ ليبيعوا لهم الحبوب المخدرة والمنومة كي يتحكموا بعقولهم ويبقوهم غافلين».

يهز «داغر» رأسه وهو يواصل الرحيل دون الالتفات خلفه مغمغمًا: «بارانويا».

«لماذا لا تريد أن تستمع للحقيقة؟ ألا تعلم أن هناك منظمات غايتها الوحيدة هي إفساد الزواج، يغسلون عقول الفتيات ليقفن أمام المرآة ويحببن أنفسهن فحسب، ويُخْصُون الرجال المقبلين على الزواج».

يصل «داغر» لبوابة الميناء..

«كل الأطباء في العيادات حقًا ليسوا أطباء بل هم جزارون، داهموا كلية الطب وسرقوا المعاطف».

يرفع «داغر» حاجبيه، متعجبًا من خيال المجذوب..

«وموسى.. يسير بيننا ناشرًا الرعب وأنهار الدم، هو خلف كل هذا».

يخرج «داغر» من الميناء ويسمع صيحة المجذوب الأخيرة:

«وإليك الحقيقة الأكثر هولًا، الكابوس الحقيقي الذي اكتشفته عند الثالثة.. هل أنت مستعد لمعرفة تلك الحقيقة؟ نحن...

عادت الرياح مرة أخرى بقوة بصفير عالٍ واحد..

ورغمًا عنه توقّف «داغر» راغبًا في سماع ما الذي سيقوله القبطان..

لكن صفير الريح ودويّ الرعد في تلك اللحظة حمل إليه للمرة الثالثة أحرفًا متناثرة من الجملة مرة أخرى: «ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف».. «ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف».

ما الذي يحاول العجوز قوله بالضبط؟ وما المقصود بـ«لماذا لم يسألوا سيلين؟».. اكتفى «داغر» من خبال المجذوب وعاد سيرًا للزقاق.. معدته تتخيل عشرات شطائر الفول الدسم..

اندهش داغر من طول المسيرة إبان عودته لبائع الشطائر، لم يشعر بكل هذا الوقت وطول المسافة خلال ملاحقته للعجوز، فكر بجملة آينشتاين أياها عن أن الوقت نسبي يمر بسرعة عندما تقضيه مع حسناء، وينقضي ببطء متثاقل وأنت تقف بطابور مزدحم، لم يذكر أحدهم شيئًا عن نسبية الوقت عندما تقضيه في ملاحقة قبطان عجوز فقد عقله، وجد «داغر» نفسه يتساءل: هل الرجل قبطان بحق؟ أم تلك تخيلات رجل فاقد الأهلية؟ وصل «داغر» للبائع، وابتسم في قرارة نفسه؛ لأن الأخير ظل صامدًا يعد الشطائر الساخنة بعد انقضاء الأمطار..

- شطيرة طعمية بالسلاطة وشطيرة فول ممزوج بالطحينة..

بدا شرود غريب على وجه البائع وهو يلتقط العملة الورقية من يد «داغر»، وأعطاه الشطيرة الأولى دون حتى أن ينظر إليه، علام ينظر البائع؟ التفت «داغر» خلفه فلم يجد شيئًا، قضم من الشطيرة الساخنة

ليُسكت ضجيج معدته، يا إلهي لشدة ما كان جوعان، يتخيل منذ تلك اللحظة كوب الشاي الأحمر الساخن الذي سيلحق تلك الوجبة، منذ تزايد الشرود وامتزج مع وجوم غريب على وجه البائع، فقال "داغر" بشرود رغم تعليمات المُعلمة الصارمة داخل عقله بعدم التدخل في شئون الآخرين:

- هل كل شيء على ما يرام؟

ردّ البائع بآلية غريبة، وبعقل محموم:

- زوجتي لم تعد زوجتي!

تراجع "داغر" للخلف بدهشة، كاد أن يصيح: "ما بال الجميع الليلة ليلة المخابيل؟"، لكنه آثر الصمت واستمع لحديث البائع وهو يشعر بالندم لسؤاله، ولم يخف عليه نظرة التشفي على وجه المعلمة إياها..

- زوجتي لم تعد زوجتي.. هناك شخص آخر يتظاهر بأنه زوجتي..

تناول داغر الشطيرة الثانية من يد الرجل الغافل، لا يعتقد أن البائع يتفلسف، ولا تبدو عليه أمارات الرومانسية، ولا يبدو حتى كشخص عاطفي، هذا البائع يبدو كرجل باسل كافح طيلة عمره أحد الأعداء اللدودين للبشرية، وهو عدو صنعته البشرية نفسها بالمناسبة، ألا وهو الفقر.. ولو كان قد وجد وقتًا للحب، فهو بالتأكيد لن يجد الوقت الكافي ليلاحظ تبدُّل طباع زوجته، هذا الرجل يعني حقًا ما يقوله بالحرف.. هو يعتقد أن هناك شخصًا آخر يتظاهر بكونه زوجته، ومعنى هذا أنه مخبول مثل القبطان، انتهت أفكار "داغر" عند هذا الجزء بحمل الشطيرة الباقية بعدما التهم الأولى راحلًا باحثًا عن أي مقهى يصنع له كوب الشاي، عندما سمع رجلًا يقول للآخر بجواره وهما

يقفان قبالة الرصيف:

- لم أعد أعرف إن كنت بشريًا أم تقليدًا..

«تبًا لوادي الفلاسفة هذا الذي انتهيتُ إليه!! هل أصيب الجميع بحالة هلوسة جماعية إثر تلك العاصفة الهوجاء»..

قالها «داغر» وهو يبتعد عنهم، ولمح المقهى، فاتجه إليه مسرعًا، مارًا بمدخل الشارع الخلفي المؤدي للميناء، وهنا سمع الصرخة العاتية القادمة من على بُعد.. من الميناء.

***

أراح القبطان العجوز رأسه للخلف ساندًا إياها على صندوق تحميل بضائع ينمو منه الزغب بعد رحيل «داغر»، أغمض عينيه في وجع وتمتم:

- سامحيني يا «سيلين».. لم أستطع الاعتناء بكِ مثلما اعتنيتِ بي..

لا يعلم متى ولا كيف، لكنه وجد نفسه يبكي، كأن البكاء هو العلاج السحري لكل شيء، هو ترياق الحب والفقد والوحدة، هو المخدر المجنون لكل ما هو مؤلم، هو العناق الدافئ والقبلة الساخنة، هو الابتسامة الجميلة التي لا توجد سوى داخل الأحلام، كأنما البكاء هو الضحك، بكى بصوت عال، وانسابت كل ذكرياته لعقله بلا هوادة، لم يكن دومًا كهذا، لا يتذكر حتى أنه استسلم للحياة، لقد كان دومًا يصمد، ومنذ خمسين عامًا وقف أمام كابينة قيادة أول باخرة يتسلم مسئوليتها، وخطيبته الجميلة تلوِّح له من على الميناء، لشدة ما أحبها، لكنه لم يُلوِّح لها بنفس الحماس؛ خشية من أن يفقد جدية قيادته أمام طاقمه، ليته كان لوَّح لها، يا لحماقته حينها! كل ما اهتم به هو مظهره أمام طاقم الباخرة، تلك كانت مخاوفه، المخاوف.. ها..

يتذكر ما رآه منذ ساعة، عند التلة، هذا هو الخوف الحقيقي، الرعب الخام الذي لا قِبَل لبشر به، يضحك.. يضحك ويقهقه بينما دموعه تنهمر، لشدة ما هي قاسية وعبثية تلك الحياة، القبطان الشاب ذو الخطية الجميلة أصبح مجذوبًا بلا مأوى، يتذكر الحريق في تلك الليلة المشئومة منذ ثلاثين عامًا، رحلته الأخيرة عبر البحر، العاصفة الهوجاء، الضباب، تلك الباخرة العتيقة التي مرَّت بجوارهم، ثم اندلاع النيران فجأة، غرقت باخرته مشتعلةً بالنيران وسط أمواج بحر هائج لا يرحم، فقد جزءًا من عقله تلك الليلة وهو يرى أجساد البحارة المشتعلة بالنيران وهي تقفز في قلب البحر المظلم، كتل نارية مشتعلة تصرخ كعويل إبليس من سقر، لن ينسى مرآهم أبدًا، يتذكر شعوره جيدًا في تلك اللحظة، شعور بوجود شيء ما قاتم ومظلم في الأجواء، شيء يحمل رائحة الموت.

ولم يعد كما كان أبدًا بعد ما حدث، بعد عودته للبر، وتركته زوجته آخذة ابنته الصغيرة بعد تدهور حالته العقلية، وأدرك ببطء مؤلم أن الكل يبتعد عنه، هل فقدت عقلك في لعبة الحياة وغلبتك العاطفة؟ ستوليك الحياة ظهرها إذن لتصبح مجذوبًا يهيم في الشوارع.. ومرت الأعوام، ثم رأى الهول بعينه مرة أخرى، ليته ما ذهب عند التلة متبعًا "موسى"، ليته ظلَّ في المدينة، لم يتوقع أن يشعر بأي شيء وهو في أواخر العِقْد السابع من العمر، وبالتأكيد لم يكن يتوقع أن يشعر بالرعب، لكن ما رآه أعاد له هذا الشعور القديم الذي انتابه وهو يرى أجساد البحارة المتفحمة تغرق أمام عينيه، هذا الشعور بوجود شيء ما في الأركان، شيء يحمل رائحة الموت.. يا إلهي.. هل ما رآه كان حقيقة بالفعل؟ كيف يعيش سكان المدينة الغافلون عن هذا الكابوس

القريب منهم جميعًا؟

هنا سمع صوت شيء ما يتحرك خلفه.. ثم صوت الطقطقة...

طاك!

طاك!

طاك!

ابتلع ريقه وهبَّ واقفًا، فصرخت عظامه ألمًا من الحركة المفاجئة..

تلفَّت حوله وسط الظلام والهدوء، حاول أن يقول شيئًا، لكن الكلمات احتبست في قلبه..

ثم رآه..

حدث الأمر ببطء..

في البدء رأى انعكاس ظل طويل على الجدار..

وتزايد حجم الظلام معلنًا اقتراب صاحبه من القبطان العجوز..

وتمتم العجوز مشدوهًا: «موسى»..

أغمض العجوز عينيه.. لا يريد أن يراه مرة أخرى..

لا يريد أن يراه مرة أخرى..

شعر بأنفاس حارة على عنقه، ففتح عينيه..

***

لو شعرتَ به يتنفس في عنقك فقل على الدنيا السلام.

***

هو يقف خلفه..

طاك طاك طاك

ليت تلك اللحظة تنتهي، ليته يموت، فقط لا يريد أن ينظر خلفه..



CamScanner

هناك ملمس أنامل حادة في خاصرته..

شهق القبطان وتسارعت دقات قلبه، حاول أن يستدير فتز[...]
وسقط للخلف، واتسعت عيناه وهو ينظر لهذا الواقف أمامه..

•••

يطقطق بلسان ثعبان بأحرف مقلوبة.

•••

وعلى انعكاس عيني القبطان انتصب «موسى»..
فارع القامة.. شديد الشحوب والبياض..
يرتدي طربوشًا عتيقًا ذا لون أحمر داكن..
جثم «موسى» فوق القبطان ومسح بيده برفق على وجه الآخر،
وهو يطقطق بلسانه..

•••

طاك.. طاك.. طاك..!

•••

فتح القبطان فمه وأطلق صرخة صامتة، بينما الرعب يشلُّ جسده،
وصوت الطقطقة يتزايد..

طاك طاك طاك

يدا «موسى» مشعرتان وتستقر أظفار طويلة حادة عند أصابعه
الطويلة أشبه بالمخالب..

عيناه بدتا أشبه بعيني ثعبان زجاجيتين تستقران داخل تجويف
بشري.. سوداوان لا حياة فيهما..

حاول القبطان أن يتوسل، ألم حاد يعتصر صدره.. وهن رهيب
يكتنف جسده..

فتح «موسى» فمه، طاك، طاك، طاك، وقال شيئًا ما بأحرف مقلوبة ولغة قديمة، بصوت وحاد وسريع، ثم مسح بيده على وجه القبطان بشرود كأنه ينظر ويرى أشياء أخرى بخلاف القبطان، ثم قال «موسى»:

موت عميق ينتظرك، وعذاب أليم يسبقه، أفلا تسعد؟ أفلا تلبي ندائي؟ يا دم دمائي وابن أبنائي..

صوته حاد وهامس، خافت وقادم من عالم آخر، من الجحيم حيث تصرخ الأرواح المعذبة..

ثم أطلق «موسى» صيحة، بدت كضحكة ضبع، أو كعويل لشخص يتثنى، صوت حيواني قديم ستسمعه في البرية وتعرف أنك قد هلكت بعدها..

وانقضَّ «موسى» بعدها على القبطان..

وفي لحظاته الأخيرة، بينما دماؤه تُغرق الأرضية وتكاد تكون نهرًا يحمل جسده، خُيِّل للقبطان أنه رأى باخرته القديمة تقترب من المرسى، ويترجل منها أجساد بحارته، يسيرون الهوينى وهم جثث محترقة يبغون الانتقام من قبطانهم الذي تخلى عنهم، جثث غارقة بأعناق منتفخة وعيون بيضاء، يقتربون منه في لحظاته الأخيرة، انبثقت الدماء من فم القبطان، وجالت في ذهنه فكرة أخيرة: لقد وصلت الباخرة أخيرًا..

ثم رأى كبده في يد «موسى» الجاثم فوقه، وتلك المرة أطلق صرخة عاتية وأخيرة..

***

خيل لـ«داغر» أنه قد سمع صرخة عاتية وهو يمر من أمام مدخل شارع الخلفي.. تلفت حوله، لم يبد أن أحد سواه قد سمعها، هل

هـذا هو صوت الرياح؟ كل ما يريـده الآن هو الذهاب للمقهى
كوب شـاي بعد الانتهاء من شطيرته الثانية، لكن شيئًا بداخله، ربما
الحدس، أخبره بأن تلك الصرخة مصدرها المجذوب إياه، نظر
للبائع واجم الوجه الذي يعتقد أن زوجته لم تعد زوجته، وللرجل الذي
كان يخبـر صديقـه أنه لم يعد يعـرف إن كان بشريًا أم تقليدًا، و
«الليلة المخابيل لا تريد أن تنتهي»..

سـار «داغـر» بعدها في الشـارع الطويـل بخطى مسرعة، لم يكن
مستعدًا لقضاء الليلة متسائلًا هل كان العجوز هو مصدر تلك الصرخة
أم لا..

وصل «داغر» للميناء، وأبطأ من حركته وهو يصيح:

- أيها الرجل.. آه يا قبطان.. لقد عدتُ..

ثم نظر للشطيرة في يده وأضاف بحسرة:

- لقد أحضرتُ لك وجبة طعام أخرى..

لا رد..

غريب هذا، الرجل كان متحمسًا للغاية كي يأكل..

وصـل لصندوق التحميل حيثما ترك العجوز، وعقد حاجبيه وهو
ينظر لسائل لزج أسود يُغرق المكان..

تبًـا إنها تمطر مرة أخـرى.. بهدوء تلك المـرة، لكنها أمطار لزجة
وثقيلة و.. مسح داغر وجهه ونظر ليده..

هل تلك دماء؟

رفع رأسـه لأعلـى ووجد مـا تبقَّى مـن القبطـان، كان معلقًا فوق
خطـاف حديدي أعلى المرسـاة، بطنه مشـقوق بالكامل وقد سقطت
أشـلاؤه، أسـلوب شـنق جهنمي يعود للعصور الوسـطى، لم يكن هذا

كل شيء، وجه القبطان كان كتلة لحم آدمية وعظام، تراجع «داغر» للخلف خطوة واحدة، ووضع الشطيرة الغارقة في الدم جانبًا، وظل ينظر للقبطان بوجه واجم.. ثم سار صامتًا وانحنى صوب شيء ما وأخذه ليضعه في جيبه، ورحل في هدوء..

بعد ثلاث دقائق من السير وقف «داغر» خارج الميناء، نفس تعبير وجهه الواجم لم يتغير، فقط ذكريات عدة تعصف برأسه منذ رؤيته لجثة القبطان، صراخ الجنود، الدبابة تدهم صديقه ليرى جزءًا من عظام رأسه، الصراخ والانفجارات وصوت الرصاص، الجنون والعبث، كل ذكرياته في حرب أكتوبر، عام ١٩٧٣، منذ عشرة أعوام كاملة، عندما رأى «داغر» مدى وحشية البشر، صياحه وهو في الخندق..

لقد اختبر «داغر» الحرب، واختبرت الحرب «داغر»..

تغيَّر الأول وبقيت الثانية على حالها..

والآن يرى مرة أخرى هذا الجنون.. كان يعتقد أنه لن يرى أشلاء بشرية أبدًا مرة أخرى..

أخذ نفسًا عميقًا، وأخرج ما أخذه في الميناء من جيبه..

صورة «سيلين»..

التقط «داغر» الصورة بأصابع ملطخة بالدماء.. وبنفس تعبير الوجه الواجم نظر للميناء..

ثم جلس أرضًا ووضع يده على رأسه وهو يشعر بألم داهم في منتصف رأسه..

الأفكار تتلاحق..

الدبابة تسير فوق جسد صديقه..

جثة تسقط فوقه في الخندق..

والدته تنتابها نوبة جنون وهو طفل، تقيده وتهوي بالحزام فوق
وجهه، تاركةً تلك الندبة الأبدية هناك، ثم تحبسه لساعات في الظلام.

يبكي، يصرخ، يستغيث، صمت وظلام ووحدة، ثم يبدأ يسمع
أصواتًا تحدثه من الظلام، وهمسات، أشياء تقترب منه، هلاوسه بدأت
وهو طفل مقيد في خزانة ثياب والدته..

انفجار.. صياح.. موتى في كل صوب.. خندق.. بووووم! هو الآن
جندي في الحرب، حتى عقله يعرف أن هذا ليس بتوقيت هلاوسه،
فيكفّ عن ألاعيبه تاركًا المجند «داغر» يزحف أرضًا فوق الرمال
قابضًا على بندقيته..

يزحف أرضًا وهو يطلق الرصاص، ينظر بجواره، يحمل ساق
جندي مشاه مثله، ساق مبتورة لا يجد صاحبها، يرى صاحبها وهو
يصرخ في نهاية الخندق، انفجار آخر، طائرات لعينة تُطلق الصواريخ
صوبهم، يا لكل هذا الصياح والدخان والجنون.. لقد جُنَّ العالم
وهو هنا، في نفس اللحظة هناك أناس يأكلون في بيوتهم ويتشاجرون
لأسباب حمقاء، لكنه هنا، في خندق الموت هذا، يحارب ويزحف
وسط جثث الموتى، يا لمدى خبال هذا العالم، يصل «داغر» للجندي
الذي فقد ساقه عقب انفجار آخر، لكنه فقد الساق المبتورة، الجندي
يبكي وينادي أمه، يحتضنه «داغر» ويصيح:

- سوف أجد ساقك، سوف أجد ساقك..
- لا تتركني، لا تتركني أرجوك.

يتمسك الجندي بعنق «داغر» كالطفل، ثم تنطلق رصاصة لتطيح
بوجه الجندي، وتغسل دماؤه وجه «داغر» الذي ظل يردد في ذهول
بعينين متسعتين:

- سوف أجد ساقك.. سوف أجد ساقك.. سوف أجدها..

تنهمر الأمطار بغزارة دون مقدمات، ويضيء البرق السماء للحظة، ومعه الرعد بصوته الآمر، يواصل «داغر» النظر لصورة «سيلين»، ثم يحدق صوب الميناء ويقول لبقايا القبطان:

- سوف أجدها.

***

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف»

***

وضع «داغر» الصورة في جيبه واستقلَّ سيارته، ثم عاد بها وأوقفها أمام الميناء، ظل على هذه الحال لساعة كاملة، لا يعرف ما الذي ينتظره بالضبط، أحدهم قتل العجوز، وتحدث عن سر ما، وعن «موسى»، و«داغر» قد سمع من القبطان أسطورة «موسى» هذا، لقد انتشرت الأقاويل بين العامة وفي الصحف عندما بدأت حالات الاختفاء على أي حال، وكان هناك عدة تفسيرات..

هواء ملوث..

كارثة مثل تشرنوبل..

ثقب الأوزون.. لا يعرف «داغر» علاقته بالأمر، لكن البعض تحدث عنه..

آخرون تحدثوا عن يوم القيامة وقرب النهاية..

البعض قال إن شركة أدوية تسببت بهذا؛ لأنهم يصطادون البشر يخطفوهم لبيع أعضائهم، آخرون قال إنهم يُجرون تجارب عليهم..

لكن لم يتحدث أحد عن عالم سفلي تحت الأرض، تأتي منه

مخلوقات تتمثل وتتصرف مثل البشر ولا تبدي مشاعر، تذكَّر «داغر» عبارة بائع الشطائر: «زوجتي لم تعد زوجتي».. هز رأسه، وقال: «داغر، أنت مصاب بجنون الارتياب بالفعل، لقد تم تشخيصك رسميًا، لا تنسَقْ وراء تلك الأفكار.. إن «موسى» ليس سوى حكاية قديمة مرعبة تخيف بها الأمهات أبناءهن كي يخلدوا للنوم، لو لم تسمع الكلام فلسوف يأتي «موسى» من أجلك، مثل الغولة وأبو رجل مسلوخة»..

حاول «داغر» اعتصار عقله ليتذكر شيئًا آخر قاله المجذوب، جريمة ما مماثلة وقعت منذ مائة عام وهم قد استحضروا روح الضحية؛ لتخبرهم عن الفاعل، منذ مائة عام كان الناس يختفون من داخل غرفهم المغلقة بلا تفسير والآن الأمر يتكرر، تلك معلومة يعرفها «داغر» بحكم وظيفته السابقة كباحث تاريخي، كانت هناك عدة حالات اختفاء على ما يظن، لا يتذكر «داغر» الحكاية بالضبط، أخرج «داغر» الحبوب المهدئة من جيبه وتناول قرصين، سيذهب ويبحث عن «سيلين»، لم يفهم من ترهات القبطان إن كانت على قيد الحياة أم لا، لكن يبدو أنها بحاجة لمساعدة، وسيحاول أن يفهم ما حدث، لنفس السبب الذي جعله يتتبع المجذوب منذ البداية؛ لأنه على شفا الجنون بدوره، نظر «داغر» لانعكاس وجهه وقال محدثًا نفسه: نعم، أنت لا تختلف كثيرًا عن هذا القبطان، أنت كذلك بلا منزل، تنام في سيارتك، وتتحدث مع نفسك؛ لأنك بلا أصدقاء ولا عائلة، ولا تمتلك شيئًا آخر تفعله سوى محاولة تنفيذ وصية العجوز، وربما معرفة من قتله..

ابتسم «داغر» بجانب وجهه في إرهاق، الكل يقتل الكل، لا أحد يتوصل لهوية القاتل أبدًا، هذا أمر غير واقعي، سيذهب لعنوان «سيلين»

تحسب ويتحدث معها، وفي الأغلب ستطرده ولسوف تنتهي الحكاية معها بكل روتينية وسقم، هذا هو الواقع..

ولم يعرف «داغر» لكم كان مخطئًا..

بدأ تأثير الحبوب المخدرة يعمل في عقله، وبسبب ما انسابت كلمات العجوز إليه..

«لا يوجد شيء اسمه اكتئاب، تلك كذبة ليجعلوك تأخذ الحبوب ويتحكموا في عقلك»..

تراخت عينا «داغر»، وهمس: «أنت مخطئ أيها العجوز»..

ولكن لماذا لم يُصَبْ جند هارون الرشيد بالاكتئاب؟ لماذا لم يتحدث عنه التاريخ؟ أم إنهم لم يجدوا مسمى له بعدُ.. لعله هو ما أودى بعقل كاليجولا قيصر روما وجعله يقر بطن أخته الحبلى ويعين حصانه مستشارًا شخصيًّا له كحاكم للبلاد..

ثقل جفنا «داغر»، وقال: سوف أجدك يا «سيلين»، أنا فقط بحاجة للقليل من النوم.. أريد أن أراهم..

كان يتحدث عن عائلته، زوجته وابنه اللذين فقدهما وفرصته الوحيدة في رؤيتهما كانت في الحُلم..

***

في الحُلم ابتسمت له «جيهان»، هناك غيوم حمراء تقترب منهم من كل صوب، في الحلم كان الهواء يتنفس بتثاقل مسموع، وكل شيء يتحرك ببطء رهيب، لكنه لم يبالِ، «جيهان» معه، و«محمود» كذلك، ابنهما الصغير، اقترب منها واحتضنها حاملًا الرضيع بين يديه، الغيوم الجهنمية تقترب أكثر فأكثر، والهواء يضيق الخناق عليهم، لكنه لم

يـالٍ، لا يريد أن يستيقظ، هـو معهـم الآن.. في بيتهم، هـو يريد تلك الحياة البديلة، لكن الجملة التي قالها القبطان ترددت في الأرجاء:

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف».

ترى ما الـذي كان يحاول قوله؟ مَن الذي قتله؟ وما الذي يحدث لهؤلاء الذين يُختطفون؟ وعن أي خطر كان يتحدث؟

هو..

يجد نفسه فجأة داخل غرفة مقفرة في بيت مهجور، ويسمع صرخة زوجته، يستدير فلا يجدها ولا يجد ابنه، يصيح باسمها ويفتح باب الغرفة وهو يجري متبعًا صوتها، فقط ليجد نفسه في الغرفة مرة أخرى، وهناك شخص يجري بسرعة أمامه ويغلق البـاب المقابل له، هناك شِبَاك عناكب عدة ولوحات متراصة في الغرفة، لوحات قديمة كلها تحمل وجه امرأة ترتدي فستانًا وقلادة، وعيناها تحدقان به، صرخت زوجته مرة أخرى، يعدو للأمام مندفعًا ويفتح الباب فإذا به داخل الغرفة مرة أخرى، وهناك شخص يعدو ويغلق الباب المواجه له، لا ينتظر «داغر» تلك المرة بل يجري مطاردًا الرجل..

يفتح الباب.. يجد نفسه في الغرفة ذاتها مرة أخرى.. الرجل يوله ظهره.. الباب ينغلق..

يجري داغر.. يفتح الباب ويزيد من سرعته للحد الأقصى.. يمد يده ويقبض على كتف الرجل الهارب قبل أن يصل للباب الآخر..

يتوقف الرجل ويستدير لـ«داغر» وهناك ابتسامة واثقة على وجهه، وضوء أزرق رهيب ينعكس على ملامحه، كان هو، «داغر» نسخة أخرى منه تنظر له بثقة عتيدة وشر خام، تراجع «داغر» للخلف مبهوتًا، ومادت الدنيا من حوله، الوجوه في اللوحات تضحك، الغرفة

أصبحت دوامة، ويسقط «داغر» في تلك الدوامة محلقًا بيديه، حيث هو يترنح الآن، لقد عاد للغرفة مرة أخرى، يمسك برأسه الهاوية.. هو يترنح على لوحة لقصر قديم.. ذي سياج عملاق وحديقة ويستند بظهره على لوحة لقصر قديم.. ذي سياج عملاق وحديقة خضراء مظلمة تحيط بالقصر المهيب، يغفو «داغر» وهو مستند بظهره على تلك اللوحة التي كتب فوق إطارها «قصر سليمان باشا»..

«أنت تحلم، لقد غفوتَ داخل حُلمك»..

صوت رقيق يقول له هذا، صوت بنكهة الشهد، يفتح «داغر» عينيه ويعتدل مترنحًا ليجد نفسه في حديقة القصر والسياج من خلفه، ينقبض قلبه في رعب لم يشعر به أبدًا وهو ينظر للقصر المهيب، هناك رجل يجلس في الحديقة، يكتب شيئًا ما، رؤية «داغر» تزوغ، يحاول الاقتراب من الرجل ليتبين ملامحه، هناك رمح بجواره..

«استيقظ يا داغر»..

- أفق يا «داغر».

يفتح «داغر» عينيه ببطء شديد بعدما أفاق من الكابوس، يفتح عينيه بتلك الطريقة إياها لرجل لا يريد أن يفتح عينيه، الاستيقاظ أمر مؤلم، سعل واعتدل في مقعد سيارته ونظر لانعكاس عينيه في المرآة مغمغمًا: «في الحلم حملوني صوب الضوء، كانت تلك كذبة جميلة»..

- أنت لستَ بشاعر، كُفَّ عن جُمَلك تلك.. أنت رجل بلا منزل، ينام في سيارته العتيقة التي أعتقد كلما رأيتها أن سنة تصنيعها كانت منذ قبل مائتي عام، أنت لم تغير ملابسك منذ أشهر، انظر لشحوب وجهك ولحيتك شبه النامية تلك، أنت..

يرفع «داغر» عينيه قائلًا للرجل الجالس بجواره:

- كُفَّ عن حديثك المحفز هذا من فضلك، ليس في لحظة

الاستيقاظ على الأقل، ولا داعي لكل هذا الغضب المعتاد، أنت غاضب لما قلته لك أمس..

يتحرك الرجل صوب «داغر» صائحًا:

- لو قلتها مرة ثانية سوف أحطم وجهك..

يتنهد «داغر».. وينظر بطرف عينيه لمحدثه ثم يقول:

- أنت لست حقيقيًا، أنت من محض خيالي، لسبب ما قرر عقلي إنشاء شخصيات وهمية لأتحدث معها، أنت مجرد هلوسة أخرى ربما تلك محاولة من عقلي كي لا أجنّ من الوحدة أو شيء كهذا والله يعلم أني لا أمانع الوحدة، لكني أفتقد زوجتي وابني، هناك فارق بين الأمرين، على أي حال، الأهم من معرفة أن كونك محض خيال هو أنك لست هو.. لا أعلم لماذا اختار عقلي شخصية تاريخية وأدبية شهيرة مثلك كي تسكن عقلي، لا أعلم السبب حقًا.. وهذا كذب بالطبع فالسبب أني كنت باحث تاريخ، وقد سافرت في بعثة لموطنك بعد تخرجي، الغريب أنك مقتنع تمامًا بأنك حقيقي وأنك هو، وهذا أمر مقلق نوعًا، ربما أنا أفقد عقلي حقًا، هذا الاضطراب اللعين منذ أن كانت تحبسني أمي في الخزانة بعد أن أتلقى علقة لا بأس بها.. على أي حال.. أنت لستَ هو..

تعالت ملامح الغضب على وجه الرجل بينما «داغر» يكمل:

- أنت لست «راسبوتين».. أنت لستَ بساحر تحدى الموت ودماؤه تمتلك القدرة على تجديد حياة المرضى..

كان الرجل ضخم البنية لحد لا يُصدَّق، يرتدي الأسمال السوداء وهناك لحية سوداء هائلة تحتل وجهه، فارع القامة لتشعر بأنه لو وقف ستقارب رأسه السماء، وعيناه.. عيناه سوداوان وغائرتان بهما كاريزما

وقوة شخصية هائلة، مثلما تحدثت عنه كتب التاريخ ووصفته.. يا لقوة شخصيته الجبارة وقدراته في التأثير بالآخرين وسلب إرادتهم بل وحتى تنويمهم مغناطيسياً بعينيه..

- كيف تجرؤ على قول شيء كهذا أيها المهرطق؟

صاح بها «راسبوتين» وهو ينقض على «داغر» ليأخذه من تلابيبه ويردف:

- أنا «جريجوري راسبوتين»، الذي فتن ملكة روسيا وجثا له قيصرها، أنا الذي حكمتُ الجموع وكل ما أردته كان لي، وسخرت قوى السحر الأسود كلها من أجلي.. كيف تجرؤ؟

جزء من عقل «داغر» كان يتخيل نفسه يتشاجر مع الفراغ، ويداه تضغطان على عنقه وهو يحاول التملص من نفسه، وفكر «داغر» أنه ما دام هذا الجزء موجوداً فهو لم يجن كلياً بعدُ، حسناً، أغمض عينيه وصاح:

- كفى..

سيفتحهما ليجد أن الروسي الغاضب قد اختفى، فقط عليه أن يعد لعشرة، وللحظة شعر بالحنق من قوة عقله التي جعلته يشم رائحة «راسبوتين» العطنة كذلك، واحد.. اثنان...... عشرة.

يفتح عينيه ببطء ليجد وجه «راسبوتين» الغاضب أمامه.. يطلق سبة وينقض عليه «راسبوتين» بفم مفتوح وهو يصيح:

- سوف أقضم أنفك و...

- أنا آسف.. أنا آسف.. أنت «راسبوتين».. لك كامل اعتذاري..

ظل «راسبوتين» يحدق به، ليتبين إن كان يعني اعتذاره حقًّا أم لا، وشعر «داغر» بقليل من الخوف ينساب لصدره، تلك العينان السوداوان تسلبانه أغوار روحه، شعر بوهن مفاجئ كأن «راسبوتين»

سينومه مغناطيسيًا، أو يقرأ أفكاره، قطب «راسبوتين» جبينه فجأة
كأن فكرة ما انتابته أو كأنه قد قرأ شيئًا ما داخل عقل «داغر»، ربما
رأى الذكرى للحظة الأخيرة لـ«داغر» مع زوجته وابنه قبل أن يفقدهما
ويتغير كل شيء في حياة الرجل..

ظل «راسبوتين» يحدق بوجه «داغر»، ثم قال بصوت أجش غليظ:

- سوف أرحل..

خرج من السيارة بتؤدة وغلظة عجيبة في الآن ذاته، ظل «داغر» يراقبه حتى اختفى عن ناظريه، ثم تنهد ووضع وجهه بين راحتي يديه، ترجّل «داغر» من السيارة بعدها ووقف قبالة الميناء، وشعر بقشعريرة لا مبرر لها تداهمه.. ربما سببها هو مرأى الباخرة المهجورة والتي غفل عنها الزمان الرابضة عند الميناء المهجور، بالمرساة العملاقة، لعله يومًا ما يبيت في تلك الباخرة كذلك، وقف «داغر» أمام الباخرة والمدينة الغارقة في ظلمات الليل من خلفه، وقال محدثًا الباخرة ويشعر بأنه بحاجة لترتيب أفكاره لكل ما حدث في تلك الليلة:

- أنتِ هنا منذ البداية أليس كذلك؟ رأيتِ كل شيء؟ لعلك تعرفين.. من الذي قتل القبطان ومزقه إربًا إربًا؟ وما هو السر الذي تحدث عنه؟ من الذي يرتكب تلك الجرائم الآن؟ الاختطاف.. ولماذا هي مطابقة لجرائم حدثت منذ مائة عام؟ لعلك تعرفين.. آه أيتها الباخرة الجميلة، ولسوف أسميك اسمًا يليق بكِ، أنت غيداء، الباخرة غيداء.. كلا، الاسم لا يليق، لا يوجد به تناغم، ربما أنا أمتلك حسًا شعريًا بعد كل شيء رغم ما يقوله هذا «الراسبوتين» القادم من هلاوس عقلي، حسنًا، سوف أسميك بـ«مليكة».. الباخرة «مليكة»، يبدو مبتذلًا قليلًا لكن سامحيني فعقلي محموم قليلًا.

انظري إلينا يا مليكة، ومرحبًا بكِ معنا في المدينة التي لا تنام، المدينة التي لا تشرق بها الشمس أبدًا، لا أتذكر متى بدأ الليل، ولكنه لا ينتهي، في تلك المدينة تشعرين بأن كل شيء يحترق، هناك دومًا أمطار، وزجاج مهشم في الشوارع، سيارات مهجورة، ومبانٍ عتيقة، في تلك المدينة سيرتطم أحدهم بمارّ في الشارع ثم يترجل من السيارة ليوسعه ضربًا؛ لأنه قد آذى سيارته، هذا هو المنطق هنا، حياة ليلية لا تنتهي، وكل حين وآخر يدوي الرعد ويسطع البرق.. ننظر للسماء ثم نواصل حياتنا العجيبة.

هل تريدين أن أصف لك مدينتنا؟ حيثما يقع البيت الكبير فوق التلة العملاقة يمتد أمامه حقل هائل به بئر سحيقة، أحيانًا أشعر كأننا في لوحة لقصة أطفال وهذا هو بيت الساحرة الشريرة، هذا البيت الكبير المكون من طابقين ويخرج منه عمود فحم يطل على المدينة كلها فوق تلك التلة العملاقة، وأمامه القضبان الحديدية للقطار الذي لا يعبر أبدًا، أشعر وكأن الركاب الجالسين في المحطة ينتظرون هذا القطار منذ بدء الخليقة وللأبدية، هو لن يأتي يا سادة، أم تريدين أن أصف لك اللافتات الإعلانية العجيبة المعلقة في كل صوب، لمنتجات لن أفهمها أبدًا، لافتة إعلانية لشخصية رب أسرة كرتوني يضرب ابنه على مؤخرته بينما زوجته تضحك وتشرب الجعة والملصق يقول: «لنشرب دومًا من أجل حياة أسرية سعيدة»..

هناك الميدان في قلب المدينة، ميدان الساحة كما يطلقون عليه، هذا الميدان بمعجزة هندسية ما تتلاقى فيه كل شوارع المدينة، وكأنما أينما ذهبت فلسوف ينتهي بك الأمر في الميدان، في قلب المدينة حيثما سيراك الجميع، هناك عدد وافر من الأزقة الجانبية، نحن نحيا في

مدينة ساحلية بلا بحر، لم أرَ البحر أبدًا، اللهم إلا عند الميناء المهجور والباخرة العتيقة، كأنهم قد جففوا البحر بعدما أغلقوا الميناء.

آه يا مليكة، هناك سر آخر عليك معرفته بشأني، أعتقد حقًا أني أفقد عقلي ولعلك قد لاحظتِ هذا من وصفي للمدينة، أنا أهلوس باستمرار، لن أكون الأول ولا الأخير في مدينة الضباب تلك التي يفقد عقله، لكن الأمر لا يقتصر على الهلاوس الخاصة بـ«راسبوتين» فحسب، في البارحة كنت أسير بجوار المسرح القديم، لعله كان وقت الغروب، لا أدري، لا أتذكر متى كان هناك شمس، على أي حال، كنت أسير الهوينى، تطوف بعقلي ذكرى الشمس، حينئذ كانت «جيهان» تتأبط ذراعي، وترانا نخرج ضاحكين من المسرح، و«محمود» الصغير معنا، حينذاك كان لا يزال القوم مبتسمين، ولمحت البيت ذا المدخن أعلى التلة يراقبنا في رضا، كل شيء كان على ما يرام، ثم وقعت الحادثة وفقدت «جيهان» و«محمود»، وأصبحت الرجل الذي ينام داخل سيارته، ويهيم ليلًا في الشوارع.

على أي حال أين كنت؟ دعك من ذكرى الشمس فهي لم تعد تشرق، نعم ما حدث بالبارحة، أعتقد أنها البارحة؛ لأني لم أعد أدرك الوقت وهذا جزء من مَرَضي، كان هذا عندما مرّت سيارة فارهة بجواري تقودها شقراء فاتنة ويجلس بجوارها رجل أشيب الفودين تبدو عليه أمارات الكهولة، لم ألقِ لهما بالًا رغم أنه لم يبدُ لي كوالدها، إنها مجرد قصة حب أخرى من أجل الثراء، كما قلتُ يا مليكة، يا باخرتي الجميلة، لم ألقِ لهما بالًا، ولكني ألقيت الكثير من البال للحنطور الذي مر بجواري بعدها، كان به رجل سقيم الوجه يبدو عليه الوهن، هزيل ونحيف، يرتدي حلة عتيقة، رفعت حاجبي

مندهشًا وأنا أحدق به، فالتفت إلـيَّ وقال جملة واحدة قبل أن يواصل الحنطور رحلته، قال ببطء وبلكنة صعيدية: «أنا قاسم أمين»!

الحقيقـة أنـه كان يشـبه الصـور التـي درسـناها في كتـب التاريخ كثيرًا، هل صدمة فقداني لعائلتي تجعلني أتخيل وأهلوس شخصيات تاريخية؟ أي مرض نفسي هذا يتحكم بعقلي، فيجعلني أرى الهلاوس في كل صوب، لم أعد أرى الشمس، لا شيء سوى الليل وشخصيات وهمية مثل راسـبوتين وقاسـم أميـن، في مرة أخرى رأيـت رجلًا عتيد البنية ذا شخصية رهيبة يمتطي خيلًا جبارًا ويجول في الشارع صائحًا: «أعاتب دهرًا لا يلين لعاتب». أنا عنترة بن شداد..

ولـم يبدُ أن أحد يـراه غيـري، الكل يسـير بجمود ولا مبـالاة ولا أحد يتدخـل في شـئون الآخـر، لـم أندهـش، فقـط أدركـت أنـي أفقد عقلي تدريجيًا، ربما هي الوحدة، لـم أبالِ بكوني وحيدًا طيلة عمري، لكن بعد زواجـي من «جيهـان» وإنجابنـا لـ«محمود» اكتشـفتُ معنى الـدفء الإنسـاني، فصرتُ وحيـدًا بعدما أحببت، بعـد رحيلهما، ربما هي ذكريات الأعوام التـي قضيناها معًا.. كنت أخفـي مرضي عنهما، «جيهان» و«محمود»، أو ربما هما كانا علاجي، أو لعلني أصبت به بعد فقدانهما، آه التفكير الحاد يؤلمني، رأسـي يكاد ينفجر، عليَّ أن أهدأ، انتظري يا مليكة حتى أبتلع الكبسـولة، التحدث بصـوت عالٍ يهدئني قليلًا كمـا تعلميـن.. نعـم.. آه.. لحظة سـأتناول حبة أخـرى.. نعم يا مليكة، الذكريات لعبة عقلية خطرة...

الذكريـات تقتل بعـد كل شـيء.. والذكريات السـعيدة تقتل أكثر من سـواها، فأنا أطرب لنجاتي من الحرب بأهوالها وأشتاق لزوجتي وابنـي، لا تنظـري إليَّ كهذا يا مليكة، نعم أنا أحب الشِّـعر، ولأسـباب

كتلك درست في كلية الآداب قبل اندلاع الحرب، أعلم أني أفقد عقلي الآن، هـل أنتِ السـبب أيتها الوحدة بابتسـامتك الخبيثة تلك؟ أم إنها الذكريات؟ برقصتها الماجنة ودهائها؟ لعل الاثنتين قد تحالفتا ضدي، كلا أنا لسـت بحاجـة لطبيب مخ وأعصاب، الجنون هـو الجنون، ولكن باحـث تاريخ، تلـك كانت مهنتي فـي الحياة السـابقة، وأدرك جيدًا أن ما يصيبني لهو حالة متقدمة من الهلاوس، الشيزوفرانيا كما يدعونها، نفـس ما أصيب بـه كاليجولا قيصر رومـا القديم قبـل أن يعين حصانه مستشارًا له ويبقر بطن أخته الحبلى، آه أشعر بالقليل من الديجا فو، هل انتابتني تلك الفكرة من قبل؟ آه ليتني أتذكر.. تبًا لك يا كاليجولا لماذا لم تكن أكثر بسـاطةً مثل نيرون وتحرق روما فحسـب؟ التاريخ يُعلمنا الكثيـر أليس كذلك؟ ربما هذا سـبب الهلوسـة بشـخصيات تاريخية، وحقيقـة أني أتحدث مع نفسـي ومع باخـرة رابضة في ميناء مهجور، لكـن مـن فضلك لا تقولـي لي إني قد هلوسـت أمر القبطـان، جثته لا تـزال معلقة بالداخـل، ولم يأتِ أحد من أجله، إكـرام الميت هو تنفيذ وصيتـه الأخيـرة وإيجاد ابنته قبل دفنـه في حالتنا تلك، تبًا، سـواء كان هلاوس أم لا.. وما الذي كان يقصده بجملته تلك؟

«ض ن ذ ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف»

لنسـتعرض الحقائـق معًا يـا مليكة، كأننـا الوزير الخـاص بهارون الرشيد في حكاية شهرزاد، هل تذكرين تلك القصة؟ لقد تقمص الوزير دور المحقـق لكشـف هوية القاتل، كانت هناك جثة وأكثر من شـخص يعتـرف بقتلهـا في الحكاية، وأمام الوزير مدة محـدودة لحل اللغز وإلا فقـد ابنتـه، لنسـتعرض الحقائـق مثله.. هنـاك شـخص مخبـول، كلا لا تنظري إليَّ هكذا، أحد آخر سـواي، يختطف القوم من بيوتهم، ويرسل

رسالة واضحة، لا أحد آمن، هذا الشخص بارع كحاوٍ على خشبة مسرح يقدم خدعة، كيف يختطفهم من داخل الغرف المغلقة؟ هل يستخدم سحرة المسرح؟ الآن تراه.. الآن لا تراه.. يشتت الجمهور بفتيات جميلات وعروض جانبية ثم يفاجئهم بالحقيقة ليشهقوا؛ لأن الأمر كان شديد الوضوح منذ البداية أمام أعينهم لكنهم لم يلاحظوا؟

لا أعلم كيف يفعلها، لكنه يختطف القوم.. وهو يعيد تمثيل جرائم وقعت منذ مائة عام بنفس المدينة، لعل هناك هوسًا ما يحركه، ولذا يقلد تلك الجرائم، ربما الإجابة نفسها تقبع في سر ما حدث منذ مائة عام، وهو يقتل مَن يقترب من الحقيقة مثل القبطان، والحقيقة هي ما الذي يحدث لهؤلاء الذي يتم اختطافهم أليس كذلك؟ وفقًا لرواية القبطان لهذا الرجل، ولسوف أدعوه «موسى» كما دعاه القبطان، قد اختطف زوج امرأة تدعى «سيلين».. وهناك نصاب ما أقنعها بالقيام بجلسة تحضير ما لمعرفة مكان زوجها، أكره هؤلاء النصابين الذين يستغلون آلام الآخرين.

لنعد للحقائق.. هم اقتربوا من الحقيقة بشكل ما فهاجمهم «موسى».. ومن المفترض أن «سيلين» في العنوان المدون على الصورة، و«موسى» يأخذ الناس للبيت أعلى التلة، لم أفهم الهراء المحض عن كتاب الأحلام هذا، لكن المفترض أنه يحمل بين طياته حقيقة ما حدث منذ مائة عام.. حسنًا.. دعيني أهنئ نفسي يا مليكة، لقد رتبت الأفكار بشكل واضح..

أنظرتك تقول إني قد نسيت شيئًا.. هممم.. كلا كلا.. قلت لك إن مسألة فقدان الوعي الجمعي تلك ظاهرة كونية لا تفسير لها ولا علاقة لها بما يحدث، تشتيت من حاوي المسرح، الأمر بسيط

للغاية، هناك جرائم حدثت منذ مائة عام وشخص يكررها.. ماذا تقولين؟ الهلوسة الجماعية بشأن أن الناس يتغيرون؟ وأن بعض من يسيرون بينا تقليد وليسوا بشرًا؟ أناس بوجه ضِباع أتوا من نسل مسخ اسمه «موسى».. هاها.. لقد أجبتِ سؤالك بنفسك يا عزيزتي، إنها هلوسة جماعية، لا توجد مسوخ، لا كائنات تتجسد بشكل البشر، ألم تدركي الحقيقة بعدُ يا مليكة؟ ألم أحكِ لك عن ذكرياتي في الحرب؟ والأنباء التي طالعتها عن خطف الأطفال والمتاجرة بهم وبيع الأعضاء البشرية؟ نحن المسوخ يا مليكة، لقد كنا دومًا المسوخ..

حسنًا، لقد أطلتُ عليك يا مليكة، أراكِ لاحقًا..

لوَّح «داغر» بيده للباخرة، نظر لصورة «سيلين» وطالعت عيناه ما هو مكتوب على ظهر الصورة: «فندق كابريني، ٢١ الساحة».. دلف «داغر» لسيارته وأدار المقود عائدًا للمدينة..

ولم يرَ صاحب الظل، الذي كان يقف خلف مرساة الباخرة، يراقبه في صمت..

فارع القامة، تحيط الظلال بوجهه، لكن بإمكانك تمييز أنه شديد الشحوب، له أصابع طويلة، يرتدي جلد ضبع أسفل هذا المعطف الأسود الطويل، وعيناه تكادان تكونان بلا مقلتين ولا حدقتين، سواد مطلق.. عيون أفعى، وأعلى رأسه يستقر طربوش داكن اللون..

طاك.. طاك.. طاك!

***

اذهب لأقصى المدينة حيث التلة وسترى الهول.

***

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف».

# الفصل الثالث

انعكست أضواء المدينة فوق زجاج سيارة «داغر» العتيقة، توقف الأخير أمام فندق «كابريني» وترجَّل من السيارة، لم يكن يمتلك خطة محددة، هل «سيلين» نزيلة في الفندق؟ أم تعمل به؟ هل هي في خطر؟ نظر لصورتها في يده وغمغم: أتمنى أن تكوني أكثر عقلانية من القبطان!

فور دخول «داغر» للفندق أدرك أن هناك شيئًا خاطئًا، المكان كان مهجورًا بالكامل، وشعر فور دخوله بأنه في عالم آخر، ضجيج المدينة بكل لامبالاة قاطنيها الذين يسيرون برتابة وآلية قد خَفَتَ تمامًا، خطا «داغر» للأمام وهو يتمتم: فندق مهجور، كلا مهجور ليست الكلمة المناسبة للوصف يا مليكة، أيتها الباخرة الرابضة في ميناء بلا بحر، يا إلهي إني حقًّا أفقد عقلي، أتحدث مع سفينة رابضة على بُعد أميال وأنا داخل فندق لم يدخله بشر منذ قرن أو ما شابه.. شِبَاك عناكب في كل صوب، رقصة الظلال تلك على ضوء القمر الخافت، والرائحة المقيتة بالأرجاء، وأنا أتقدم للأمام بحثًا عن «سيلين»، العجوز كان خَرِفًا بحق، كيف لي أن أثق بعنوان مخطوط في صورتها؟ ينتابني ألم حارق في صدغي وجبيني، لم يحن موعد الحبة المهدئة بعدُ، ما هي الجملة التي قالها الرجل؟ كيف أعرف إن كنت بشريًا أم تقليدًا، كيف أعرف أني قد رأيتُ ما رأيتُ وتلك ليست ألاعيب عقلية، كلا، أنا لم أجنَّ بعدُ، ربما أنا في طريقي، لكن ليس بعدُ.. لا يزال هناك بضعة أيام، أسابيع وربما أشهر قبل أن ألبي نداء النداهة وأصبح مجذوبًا آخر..

يهز «داغر» رأسه محاولًا نفض تلك الأفكار عن رأسه وهو يخطو بحرص داخل ردهة الفندق، ظلام، شِبَاك عناكب، غبار، هناك مقعد مقلوب ومنضدة بالية، وبيانو صدئ.. أشعل «داغر» لفافة تبغ، وبدأ يسير على وهجها للأمام، لم يكن هناك موظفون بالطبع خلف منضدة الاستقبال، لكنه لمح مفاتيح الغرف معلقة، استدار «داغر» يسارًا ونظر للدرَج، بدأ يصعد للطابق الثاني، لا يعلم ما الذي يتوقع أن يجده بالضبط، بالتأكيد «سيلين» ليست هنا، فالمكان يبدو كأنه مهجور منذ عقود، أصدرت الدرجات صريرًا رتيبًا وهو يعتليها، وبدا له أن غبار الهواء ينتفض من حوله إثر هذا الصرير، وفي الطابق الثاني حيثما استقرت غرف النزلاء وقف «داغر»، لمح قابس نور فنظر إليه مترددًا، لا يريد أن يلمسه فيصاب بصاعقة كهربائية، وانساب لعقله صوت زوجته الراحلة «جيهان» وهي تقول له: «كُفَّ عن وساوسك القهري، ستصاب يومًا ما بجنون الارتياب والشك لو استمررتَ كهذا»..

هزَّ «داغر» رأسه، والتقط خرقة من فوق الأرض، ومدَّ يده بحرص بينما لفافة التبغ تتدلى من فمه وضغط على قابس النور، لثوانٍ لم يحدث شيء، ثم سمع صوت محرك كهرباء يهدر من الطابق السفلي قبل أن يتسلل للمكان ضوء أحمر قاتم، نفث داغر دخان لفافته وقال بسخرية: «ربما أعيش هنا بدلًا من السيارة»!

هنا خطر له خاطر عجيب، هل «سيلين» متشردة أيضًا؟ وهذا الفندق كان مأوى لها هي والمجذوب؟

لم تلُح له إجابة في الأفق، فكَّر أن ينادي على اسم الفتاة بعلو صوته، ونظر للغرف المغلقة بردهة الفندق، كهذا سيكون مأوى لأحدهم بالتأكيد؛ مدمني مخدرات أو مجاذيب، لكنه لم يكن أحمق، مكان

لا يريد أن يخيفهم فيهاجموه، هل يرحل؟ ليعود ويأكل شطائر الفلافل وينام في سيارته حتى تنفد مدخراته الضئيلة أو يفقد عقله أيهما سوف يجيء الثاني، كلا، لن يرحل..

نظر لصورة «إسيلين»، شعرها كستنائي طويل، أنف رقيق وذقن بها كبرياء وقوة شخصية، وجه مستطيل ونحيف، تبدو كفتاة كادحة، أو ذات شخصية، بعض من كاريزما شخصيتها قد تسللت للصورة، هو لم يتبين ملامح القبطان وسط تجاعيد الزمن على وجهه، لكن ملامح «إسيلين» كانت بادية وواضحة..

وجد نفسه يمد يده ويدير مقبض أقرب غرفة له، لم تكن موصدة، لا حاجة لجلب المفاتيح من الأسفل، ثم لمح ظلالًا تتلاعب على الضوء الأحمر بالغرفة، ولسبب ما شعر بقلبه ينبض، الأماكن المهجورة تمتلك شخصية مستقلة بالتأكيد، مثل الميناء والملاهي والباخرة وهذا الفندق وهو شخصيًا، الوحدة تترك بصمة لا يمكن تجاهلها بهم..

بيت مهجور.. إنسان مهجور.. كلاهما يجذبان نفس الطاقة الليلية السوداء، نفس شِبَاك العناكب والزواحف الليلية..

غمغم: من الواضح يا «مليكة» أن كل ما قاله القبطان لم يكن سوى كذب.. لا أعتقد أن أحدًا أقام في هذا الفندق منذ دهور، كلا لن أصدق وجود «موسى» داخل الفندق. قد أصيب الأخير بالشيخوخة، ربما أنا فقدت إحساسي بالوقت، ولكن الغبار وشِبَاك العناكب والجدران المهترئة لا تظهر خلال ليلة وضحاها.. الأماكن لا تشيخ مثل البشر ولا تتبدل حالتها النفسية لموت أصحابها.. أليس كذلك؟

تفقَّد بعدها «داغر» باقي الأرجاء، هناك خزانة ثياب وفراش ولوحة لحقل أخضر ينتهي على أعتاب البيت ذي المدخنة أعلى التلة،

قطب «داغر» جبينه وهو ينظر للوحة، ثم اتجه صوب النافذة وفتحها، عاد ضجيج المدينة وصخبها لأذنيه، أصوات السيارات والبشر، لكن لم يُعِرْ أيًا من هذا اهتمامًا، كان ينظر لأطراف المدينة، حيث التلة الخضراء والبيت ذو المدخنة المستقر فوقها، عاد بناظريه للوحة فوجدها مطابقة للبيت تمامًا..

- وسيلة تسويق سياحية جيدة من إدارة الفندق، مثل الغرف المطلة على البحر في الإسكندرية، ولكن هنا سترى البيت والتلة ولوحة زيتية لهما..

كان يعلم جيدًا في قرارة نفسه أنه سيذهب لهذا البيت فوق التلة لو لم يجد «سيلين» هنا، العجوز قال له إنه قد رأى شيئًا هناك، ووفقًا لما رواه فهو قد دفع حياته ثمنًا لهذا، لمح «داغر» مرآة بها بُقَع تكاد تمحوها، تبيَّن انعكاسه وقال محدثًا نفسه: «نعم، نعم.. سوف أذهب هناك، أي شيء أفضل من حالتي تلك»..

هنا داهمه صداع عنيف، فاستند على جدار الغرفة ممسكًا برأسه، ومدَّ يدًا ترتجف ليُخرج علبة الدواء، لكن يده المرتعشة أسقطت العلبة، تأوه «داغر» وهو مغمض العينين، لقد حذروه في المصحة من النظر طويلًا للمرآة، الأولاد المهذبون لا يتحدثون مع أنفسهم في المرآة يا «داغر»، تبًا لكم جميعًا.. لا يريد تذكُّر مراهقته التي قضاها في المصحَّة، أسبوع كامل من طفولته وليس فترة مراهقته كلها، بعد أن كسرت والدته ذراعه، في تلك المرة تلقى العلقة المعتادة بالحزام الجلدي، لم تكن هناك نظرات أسى مصطنعة من أبيه؛ فلقد رحل الأخير تمامًا، أمه قد تعاطت جرعة زائدة من المهدئات تلك المرة، ونوبة جنونها كانت أعنف من أي شيء سبق، تلك النظرة في عينيها

وهي تتقدم إليه، لن ينسى تلك النظرة أبدًا، أي رعب يشعر به الأطفال إزاء عنف آبائهم، ثم جذبته من ذراعه وظلت تلوّح به كقطعة خردة، سمع صوت العظام وهي تتهشم قِبَلها، لكنه لم يبكِ، لم يصرخ، لقد بدأ في ابتلاع لسانه من فرط الألم، وبينما هي تجرُّه صوب الخزانة كان قد نجح في ابتلاع منتصف لسانه بالفعل، وتكوَّرت حنجرته بشكل غريب، ويبدأ يتشنج ويرتج، تلقَّى صفعة هائلة من والدته، التي لم تلاحظ ما يحدث، لكن الصفعة أنقذت حياته؛ لأنها جعلته يبصق لسانه ويصرخ في ألم رهيب بعد أن شهق طلبًا للهواء.. ما يعرفه بعدها أنه ظل لأيام في الخزانة، يستيقظ، يفقد وعيه من الإعياء، يتخيل الأطباء وهم يبترون ذراعه المهشمة، في البدء تخيَّل فأرًا معه في الخزانة، وبدأ يتحدث معه، ونصحه الفأر بالخروج..

«لكن أمي ستعاقبني لو خرجتُ دون إذنها».

يقولها ببراءة تجعله يستشيط غضبًا وهو يتذكر، في النهاية لم يعد نادرًا، لا يعرف بالضبط أيهم تغلب على مقدرته، الجوع أم الألم أم الظمأ.. لقد كان الثلاثة يركبون خيولهم ويتقدمون للأمام في سباق رهيب بينما رمال الصحراء تتناثر من حولهم، لعل الألم هو من وصل أولًا.. يزحف «داغر» الطفل خارج الزنزانة، أقصد الخزانة، يزحف أرضًا؛ لأن الفارس المتوج في السابق، الألم، يمنعه من الوقوف، يصل للثلاجة أولًا وهو يتلفت حوله في رعب، سيهدر المارد في أي لحظة وينقضُّ عليه، يقصد أمه بالطبع، نعم هو محق فيما قاله للباخرة ملكة، نحن المسوخ أليس كذلك؟ ولعل أمه مسكينة في النهاية كانت تعيد تمثيل طفولتها معه، لا يعرف ولا يهتم، سيتعلم فيما بعدُ أن البشر يختارون من يكونون، لكن تلك أمور لاحقة للبالغين، يمد ذراعه

المكسورة، محاولاً فتح باب الثلاجة وهو يهمس محدثًا ذراعه: أنت مكسورة، لماذا تؤلمين؟

يعرض بأصابعه ويفتح باب الثلاجة، ويجرع المياه بسرعة فيشهق ويسعل ويختنق قبل أن يضع يده بسرعة على فمه ليكتم صوته كي لا تسمعه، هنا تدمع عيناه في ألم، لقد حرّك ذراعه المكسورة، تلك اليد تنتهي بذراعه المكسورة، يعض يده في ألم محاولاً كتم صرخة كادت أن تنفلت منه، ثم لمح شريحة من الجبن فانقضّ عليها والتهمها بسرعة القوارض، هنا استعاد الجوع نشاطه وهمته وانطلق بخيله ليتقدمهم في السباق، ثم بعد يشعر سوى بمزيد من الجوع وهو يمضغ الجبنة ويبتلعها ثم ينقض على القطعة الأخرى.. مسح دموعه بيده السليمة وحاول أن يقف، أين هي؟ لعلها تختبئ وتراقبه، كانت تقول له دومًا إنها دومًا تعلم، دومًا تراقبه..

هم دومًا يراقبون أليس كذلك؟ لقد فعلت تلك المرأة كل ما بوسعها لكي تصيبك بجنون الارتياب.. يراها ممددة فوق فراشها فيتراجع للخلف، علبة الدواء، تلك المهدئات اللعينة، لماذا يبيعون تلك السموم للناس؟ لماذا ينصح بها الأطباء؟ إنها تطلق العنان للوحوش بداخلهم.. يسير للأمام ويهمس: «ماما».

هناك عروس لعبة ماريونيت، مثل تلك الفتاة «شهد»، تقبع فوق الكومود وتنظر له بعينين زجاجيتين، يقترب «داغر» الطفل من أمه ويكرر: «ماما.. أنا آسف»..

يلمس كتفها، ثم يديرها ناحيته..

وجه محدِّق.. وجه غاضب.. ورغاوي بيضاء حول فمها.. لقد ماتت أمه.. ابتلعت الدواء اللعين وماتت..

ظل معها لأيام قبل أن يكتشف مُحصّل الكهرباء الغاضب لعدم دفع الفواتير ما حدث، ذهب بعدها للمصحة أسبوعًا، ثم ألحقوه بالمدرسة العسكرية..

ارتمى أرضًا وهو يشعر برأسه يكاد ينفجر، وصاح لذكرياته وللمرضين في المصحة: «تبًا لكم جميعًا.. تبًا لكم جميعًا»..

كان يعلم أنه لو نظر لمرآة داخل برواز طويلًا فلسوف تنتابه نوبة؛ لأنه ظل لأيام يحدق في انعكاسه النائم بجوار جثة أمه في غرفتها داخل بيتهم، بينما العروسة الماريونيت تنظر له، «مَن الذي يحضر عروسة لطفل؟» قالها أبوه ذات مرة بصوته اللامبالي، تبًا لأبيه وللدمية وللمرآة.. رأسه يكاد ينفجر.. تبًا لمرايا فندق كابريني..

كان يغطي المرايا كلها في بيته بالقماش.. زوجته كانت تخاف منه بسبب هذا.. أحيانًا يتخيَّل أنه لو كشف الستار عن المرايا ليلًا لرأى أشياء أخرى بخلاف انعكاسه..

بدأ «داغر» يزحف فوق أرضية الفندق نحو علبة الدواء.. الضوء الأحمر يتراقص في الغرفة، وكذلك الظلال على الحائط، ثم رأى باب الغرفة المقابلة في الردهة ينفتح ببطء، ومن خلفه ظهر وجه أبيض في الظلال، انقبض قلب داغر بعنف وتمتم: «هلاوس، هلاوس.. أنت لست حقيقيًّا».

وتقلَّب على الأرض محاولًا الاقتراب من علبة الدواء، فارتطم بقدم أحد يقف بجواره، صرخ «داغر»، ورفع رأسه لينظر لصاحب القدم، فوجد امرأة عجوزًا ترتدي قبعة كلاسيكية وفستانًا أرستقراطيًا من الطراز الفيكتوري، بدت كجثة، بجلد متساقط، حرك «داغر» عينيه لينظر لقدمها فوجدها قدم جذي، هنا سقط أحد أظافر المرأة الميتة

فوق وجه داغر الذي صرخ: «هلاوس»..

وواصل الزحف بعيدًا، هناك أضواء مباغتة أمام عينيه، كأنها أضواء ملهى ليلي، ثم رأى أحدهم ينام أسفل الفراش ويحدق به بعينين حمراوين..

تزايدت دقات قلب داغر والتقطت يده علبة الدواء وهو يصيح: «هذا مجرد فندق مهجور، لا يوجد به أشباح.. تلك مجرد هلاوس»..

وابتلع ما في العلبة، ثم حبا مبتعدًا حتى خرج من الغرفة، وجلس فوق أرضية الردهة لاهثًا..

شعر بيد تلتفُّ حول عنقه بعدما امتدت من داخل الغرفة، فأطلق صرخة أخيرة قبل أن تظلم الدنيا من حوله، وآخر ما لمحه هو دماء تفور من ثقوب الجدران لتغرق وجهه..

***

الدبابة تدهم جندي المشاة..

***

سوف أجد ساقك..

***

نظر الطبيب لـ«داغر» بغرفته في المصحة وتابع: سترتجف يداك دومًا نتيجة خلل الأعصاب بسبب اعتيادك للمهدئات، أعلم أنها المسكن الوحيد لألمك بعد فقدانك لعائلتك ولكن...

***

«جيهان» تهمس له: أحبك.

***

يحمل ابنه بين ذراعيه للمرة الأولى.

***

أنت مصاب بجنون الارتياب، وسواسك القهري هذا يتزايد يومًا بعد يوم..

***

شعر «داغر» بنفسه يحلق داخل دوامة هائلة تبتلعه، ثم استعاد وعيه، هو لا يزال في ممر الغرف بالطابق الثاني من فندق كابريني، تلفت حوله بذعر وابتلع ريقه، وتمتم وهو يمسح جبينه: لم يكن هناك أشباح، مجرد هلاوس..

وقف بإرهاق وهو يشعر بطعم مرير في فمه، خُيِّل إليه أنه لمح شيئًا غريبًا في اللوحة المعلقة داخل الغرفة للبيت فوق التلة، لكنه لم يدقق النظر وعاد أدراجه للطابق الأول قابضًا على صورة «سيلين» في يده، كعادته بعد كل نوبة نفسية تهاجمه خيل إليه أنه يرى شخصية تاريخية أخرى، دقق النظر فوجد امرأة تجلس في مطعم الفندق المكتظ بالغبار والحشرات، لمح فأرًا يطل عليهم برأسه من خلف أريكة بعيدة في المطعم، لعله نفس الفأر الذي تخيله إبان طفولته داخل خزانة الثياب، سار «داغر» بخطى واهنة صوب المرأة الجالسة بشرود، جذب مقعدًا وجلس عليه آملًا ألا يتهشم به ولم يستطع مقاومة فكرة أن هذا المطعم كان مكتظًا بالنزلاء ورواد الفندق منذ دهر، يلتهمون طعامهم ويمارسون حياتهم، يتركون ذكرياتهم في الغرف من خلفهم، غير عالمين أن الفندق نفسه سيصبح مهجورًا، اللهم إلا من رجل يعاني من الهلاوس يجلس ويتحدث مع....

- أنا شجرة الدر.

أومأ داغر برأسه في إرهاق، متذكرًا أيامه كباحث تاريخ في الجامعة، ومزاح «جيهان» معه وهو يتحدث معها بشغف عن التاريخ، وخططه لمئات الحكايات التي كان ينتوي قصَّها لـ«محمود» الصغير، أردفت المرأة التي كانت ترتدي فستانًا فاخرًا مزخرفًا بالذهب والفضة، وعلى رأسها استقر تاج أنيق، كانت متوسطة الطول ممتلئة الجسد، ذات عينين سوداوين ووجه يعطي الحياة تجاعيد وليس العكس، أردفت هي بصوت آمر به لمحة شرود من ضل طريقه:

- أنا ملكة مصر..

- أعلم هذا..

- ما الذي أتى بي هنا؟

قالتها بعد تردد، كأنها كانت تصارع نفسها قبل الإقرار بحقيقة أنها لا تعلم أين هي..

زفر «داغر» ثم أسند رأسه على مرفقه مجيبًا إياها:

- أنت وليدة خيالي.

- ما الذي تتفوه به؟

لقد تعلَّم ألا يخبر هلاوسه الخاصة بأنهم وهْم، فتدارك:

- لا أعلم ما الذي أتى بك هنا يا سيدتي..

لمح نظرة امتنان في عينيها، سرعان ما اختفت خلف نظرات قوة مكابرة، لعل هذا الامتنان نجم عن تلقيبه إياها بـ«سيدتي»، هي خائفة لكونها في مكان غريب بعد كل شيء..

- لقد كنتُ في قصر، انتشرت الشائعات عن عودة عز الدين لزوجته الأولى.. ثم نمتُ واستيقظتُ لأجد نفسي هنا، رأسي.. رأسي يؤلمني.

هز «داغر» رأسه بتفهُّم وفكر:

- هذا لأن الصداع يداهمني كذلك.. آسف لأني جلبتُك من قصرك العتيق بسبب نوبة خرقاء اقتحمت عقلي.. لا تقلقي بشأن عز الدين أبيك..

أشارت شجرة الدر للخارج وقالت:

- لا أفهم كنه تلك الضوضاء بالخارج والمراكب المتحركة ذات العوادم.. هل أنا أحلم؟

- بلى، تحلمين.

- وأنت رؤيا؟

- آه هه.

ثم ابتسم لها وأردف:

- اعتبريني نذيرًا، ابتعدي عن القباقيب!

ثم وقف وبدأ في الرحيل، استوقفته هي قبل أن يخرج من باب الفندق قائلةً:

- لماذا لا توجد نجوم في السماء؟

نظر لها «داغر» في صمت، ورحل، توقف أمام باب الفندق لثوانٍ، من خلفه استقر الباب الموارب لدورة المياه الخاصة بالفندق، حيث رسمت «سيلين» بإصبعها كلمة على بخار الماء الساخن، كلمة فسدت حروفها بسبب عقلها المشوش في لحظاتها الأخيرة، وبسبب الألم الذي كانت تصارعه، لكن تلك الكلمة لا تزال هناك.. لم يستدر «داغر»، لم يتفقَّد دورة المياه، بل خرج من الفندق، يمكننا نحن الاقتراب واختلاس نظرة أخيرة لما كتبته «سيلين، نحاول ترتيب أحرف الكلمة «ه و» «ف م خ ل و»، وربما إكمال عدة أحرف ناقصة من

مخيلتنا، عندها سنفهم ونشهق في صمت، ثم نتراجع للخلف مسرعين
حيثما وقف «داغر» بالخارج والسيارات تمر من أمامه وأضواء المدينة
تنعكس على وجهه، قطب جبينه بقوة، لقد رأى شيئًا ما بالداخل، عقله
اختزله، رأى شيئًا دون أن يدركه، دخل الفندق مرة أخرى، رفعت
شجرة الدر رأسها صوبه وقالت:

- توقعت أنك ستعود، لم يُخلق رجل بعدُ قادر على مقاومتي.

ابتسم لها «داغر» مجاملًا، لقد تعلّم ألا يثير حفيظة هلاوس
الخاصة، هُم سريعو الفتيل وغضبهم عاتٍ، اتجه للوحة التي تمثل
البيت في التلة ودقق النظر بها، هناك كيان ضبابي أسود يخرج من البئر
في الحقل، لم يره «داغر» في المرة الأولى التي نظر بها للوحة، هو
متأكد من هذا، حكَّ رأسه ثم نظر لشجرة الدر وقال:

- هل يوجد أحد آخر هنا؟ امرأة تدعى «سيلين»؟ هل سألتك هذا
من قبل؟ اعذريني رأسي يؤلمني قليلًا وأحيانًا أجد صعوبة في التذكر..

أشارت شجرة الدر بإصبعها في صمت صوب المطبخ، وقالت
شيئًا ما عن المجاعة، دخل «داغر» المطبخ، وتلفَّت حوله، شيء
بداخله قد انقبض، وهذا الشيء يهيب به أن يخرج، نظر لثلاجة الطعام
الكبيرة الخاصة بالفندق وأخذ نفسًا عميقًا متذكرًا بقايا القبطان المعلقة
فوق الخطاف بالميناء، «موسى»، أو أيًا كان اسمه، يحب التمثيل بجثث
ضحاياه، كأنها مزحة سخيفة يصر قائلها على تكرارها، هذا ما فكر به
«داغر» وهو يفتح الثلاجة، بينما هناك إناء كبير يغلي بالماء من خلفه
فوق الموقد..

انفتح باب الثلاجة بصعوبة بعدما حمل «داغر» ثقل كتفه، تلك
المرة كل من ذراعيه سليمتان، وباب الثلاجة كبير للغاية، لكن لم يكن

هناك قطع جبن بالداخل، بل جثة مدام «كاميليا» وقد قطع أحدهم قدميها.. تراجع «داغر» للخلف بوجه واجم، نفس التعبير الذي يعتلي وجهه كلما رأى الموت، المرة الأولى في الحرب، والثانية عندما سحقت المقطورة جسد زوجته وابنه أمام عينيه، وفيما يبدو أن الليلة ستضرب الرقم القياسي، ظل يتراجع حتى كاد أن يلاصق ظهره الإناء الساخن، فالتفت للخلف ورأى ذراعًا بشرية تطفو وسط الماء المغلي، «كاميليا» تحتفظ بذراعيها في الثلاجة، وهذا الذراع ينتهي بأظافر أنثوية وعدة خواتم، أغمض «داغر» عينيه، إذن فقد كان هناك «سيلين» بالفعل.. هناك قاتل خفي في المدينة، يختطف البشر ويقتل الشهود.. ولسوف يجده «داغر» في تلك الليلة..

***

ابتلع أربع كبسولات من علبة الدواء، وانتهى من لفافة تبغ، تخلص أخيرًا من الدوار والصداع، وسار بوجه واجم لسيارته، ثم رفع رأسه ونظر لأقصى المدينة حيث التلة، لم يتمكّن من رؤية البيت أعلى التلة من موضعه، لكنه غمغم: أنا قادم إليك يا «موسى».

عاد الدوار ليرقص حول رأسه مرة أخرى، هو يعرف المعادلة جيدًا التي ستبقيه يقظًا بعد ابتلاع الكبسولات، الكافيين، قرر أنه بحاجة لبعض القهوة قبل الذهاب للبيت ذي المدخنة على التلة، فذهب للحانة في ميدان الساحة، حاملًا صورة «سيلين» في جيبه.. سيقابل «موسى» هذا بذهن يقظ..

دخل «داغر» الحانة..

الحانة..

ستشعر دومًا بأنك داخل مشهد مرسوم في لوحة قديمة غفل عنها

الزمن عندما تدخل الحانة..

وقفت الفتاة الحسناء أمام مكبر الصوت وهي تغني بصوت حالم وحزين..

«أهـواك».. بينما جلس خلفها رجل يمثل بحزن عبد الوهاب مرتديًا طربوشًا وبذلة لم تمسَّها مكواة وهو يعزف العود..

وجلس عدد لا بأس به من الأفندية مع سيدات يرتدين «اليشمك» على وجوههن، في حين استقرَّت الطرابيش فوق رؤوس الرجال، بعض الجنود الإنجليز كانوا يجلسون في شرود مع بعض الغانيات كذلك، سار «داغر» للركن الأيسر في الحانة، وجلس على مقعد بجوار فتاة عشرينية تظهر ملامحها الفاتنة من خلف «اليشمك» المنسدل من أعلى رأسها، وتلتف ملاءة حريرية أنيقة على جسدها الممشوق، التمعت عيناها السوداوان من خلف «اليشمك» ولم يبدُ أنها تُلقي بالًا لـ«داغر»، طلب بعض القهوة من النادل، هنا لمح نظرة سخرية في عين الفتاة التي قالت:

- من الذي يطلب قهوة بعد منتصف الليل «يا دلعدي»؟

كانت حسناء وجذابة، وكاد «داغر» أن يسألها عن كونها حقيقية أم هلوسة، لكنه آثر الصمت، فقط ابتسم لها بإرهاق، عاد له النادل بالقهوة بعد عشر دقائق، لمسها «داغر» بأنامله ثم تحسس رائحتها لتنساب إلى صدره منعشة إياها، هنا قالت الفتاة بنفس النبرة الضاحكة:

- لم أرَ رجلًا من قبل يُفضِّل القهوة على الغزل..

وفي الخلفية ترددت كلمات الأغنية، فدندنت الفتاة معها: «أنساك واتاريني بانسى جفاك.. واشتاق لعذابي معاك».

رغم كل شيء وجد «داغر» نفسه يبتسم، ربما لا يوجد شيء في

نبح هذا العالم قادر على الصمود أمام تأثير فتاة جميلة تغني بصوت حالم، ثم عاد إليه الألم في رأسه مع قليل من الدوار، أعقبه شعور بغضب عاتٍ وزاغت رؤيته، تحسس علبة الدواء في جيبه، وتكلف الابتسامة تلك المرة أمام الفتاة وسألها:

- ما اسمك؟

- «حسناء».

كانت تتوقع مجاملة ما أو إطراءً، ربما الرد التقليدي المبتذل التي لطالما سمعته بشأن مطابقة اسمها مع ملامحها، لكنه هز رأسه في صمت ورشف من القهوة، وهو يرى جثة «جيهان» و«محمود» أمام عينيه.. والجندي مبتور الساق في الخندق.. وبقايا «سيلين» و«كاميليا» في الفندق.. والخطاف الذي يحمل جسد القبطان الممزق عاليًا كأنها صيحة أخيرة منه تستجدي العالم بأن يبالي..

ابتلع قدح القهوة مرة واحدة وأجفلت الفتاة، ثم شهقت واضعة يدها فوق صدرها وهي تهتف: ستحرق لسانك..

تجاهل «داغر» الألم داخل فمه وهزَّ رأسه لها مرة أخرى، الرجل الذي يعتقد أنه محمد عبد الوهاب لا يزال يعزف على العود، الفتاة تغني، هناك مذياع يُدلي بأنباء انتصار روميل في ليبيا..

خرج «داغر» من الحانة شاعرًا بعين تلك الفتاة، «حسناء»، تتابعه..

ولم يرَ الرجل ذا الطربوش داكن اللون، والبشرة الشاحبة، ذا الأصابع الطويلة، الجالس في المنضدة المقابلة يراقبه..

***

بينما كان «داغر» يتجه لسيارته استعدادًا للذهاب للبيت إياه عند التلة بحثًا عما رآه القبطان، أو متابعًا لهلاوسه الخاصة، ظلت «حسناء»

مكانها، شاردةً كأنها تحاول تذكُّر شيء ما..

- ما بال القمر شارد الذهن؟

قالها أحد رواد الحانة مغازلًا إياها، فابتسمت له «حسناء» ثم تحركت مقررةً انتهاء الليلة والعودة لشقتها، خرجت الفتاة من الحانة ملوحةً لعازف العود والمغنية بأنها سوف تسبقهما للبيت، لم يكونا سوى أبيها وأختها، وبينما هي تسير في الزقاق الجانبي المتفرع من ميدان الساحة، فكرت «حسناء» أن هذا المكان الذي تتجه إليه ليس بيتًا حقيقيًّا، بل مجرد شقة وضيعة بها ثلاثة فُرُش ومروحة سقف، لم يكن هناك حتى دورة مياه، صاحب البناية ذو الأسنان النخرة قال لهم في جشع: «حمام خارجي بإمكانكم استخدامه في مواعيد محددة»..

سمعت «حسناء» دوي صوت نعل حذائها وهو يرتطم بالأرض، هي الأنثى الجذابة، التي يهيم بها الكل، وتمثل السعادة للكثير منهم، ليست سوى فتاة فقيرة، لشدة ما تكره هي الفقر، عدوها اللدود، أخذت «حسناء» نفسًا عميقًا، ونظرت للسماء طلبًا لأي شعور بالحرية بعدما أطبقت أفكارها على أنفاسها، قطبت جبينها وهي تنظر للسماء، ثم انتابتها حيرة مفاجئة وحاولت تذكُّر شيء ما قبل أن تلمح قطةً على جانب الطريق، ابتسمت «حسناء» وانحنت مداعبةً القطة التي كانت تبحث عن طعام بنهم، وغمغمت «حسناء»:

- أنتِ أيضًا جوعانة، نحن القطط نعاني دومًا أليس كذلك؟

وابتسمت وهي تمسح على ظهر القطة، ولم ترَ موسى الواقف خلفها عندما انحنت..

لكن القطة رأته وأطلقت هسيسًا سريعًا، ثم انتصب ذيلها وتقوست على نفسها..

- ما بك يا قطتي؟

قررت «حسناء» أنها ستأخذ القطة معها للبيت في تلك اللحظة، وستكون صديقتها المقربة الجديدة، مدَّت ذراعيها لتحمل القطة عندما..

طاك طاك طاك!

التفَّت ذراع «موسى» حول عنقها، اتسعت عينا «حسناء» في ذعر وتناثرت الدماء على وجه القطة.

***

ظلام دامس.. لا نجوم..

نعم، لا توجد نجوم في السماء.

فتحت «حسناء» عينيها، هناك شيء لزج ينساب من أعلى جبينها لفمها، تلك دماؤها، هي تنزف وبغزارة..

استغرق الأمر ثواني كي تستوعب «حسناء» الحقائق التالية..

تلك أصابع قدميها بالأعلى.. كل شيء مقلوب..

هي مقيدة في وضع مقلوب، رأسها بالأسفل..

ما الذي كانوا يقولونه وهي طفلة عن تدفق الدماء لرأسك وأنت في تلك الوضعية؟ لا تتذكر.. لا يهم.. تشهق، وعقلها يواصل استيعاب الحقائق..

أحدهم اختطفها..

ليتها تكون في شقتها الوضيعة في تلك اللحظة وتنتظر دورها لاستخدام دورة المياه..

طاك طاك طاك..

ما سر هذا الصوت؟ لقد سمعته من قبل..

يقشعر بدنها..

أمامها يقف «موسى»، مرتديًا معطفًا مفتوحًا أسفله غطاء من جلد الضباع، والطربوش يستقر على رأسه، لم يبدُ أنه يبالي مطلقًا بوجودها..

هنا رأت «حسناء» ما رآه القبطان..

في البدء كان عدم الفهم..

ثم الاستيعاب البطيء..

تلاه الصراخ..

اتسعت عيناها في عدم تصديق وذهول، وظلت تصرخ.. وصوت بداخلها يهيب: اصرخي يا فتاة، اصرخي للأبدية..

***

طاك طاك طاك!

@ART_OF_BOOK

# الفصل الرابع

اتجه «داغر» لسيارته وعلى الجهة الأخرى من الشارع استقرت لافتة أمام دار عرض الأفلام عليها ملصق مكتوب فوقه: «عرض أول وحصري، فيلم شمس الزناتي»..

همَّ «داغر» بدخول السيارة عندما أتاه صوت من خلفه، وصاحب الصوت كان «كامل كمال»، العراف الذي كان يتلفت حوله في ذعر..

- أنت ذهبتَ لفندق كابريني؟

توقَّف «داغر» ببطء، ولثلاث ثوانٍ خاض داخل عقله مناقشة حادة، هل يستدير ناحية صاحب الصوت؟ هل تلك هلوسة أخرى أم حقيقة؟ في النهاية استدار «داغر» ليواجه رجلًا متوسط الطول، يرتدي معطفًا صوفيًا، وطربوشًا أنيقًا، يتدلى من فمه غليون منطفئ، تقاسيم وجهه كانت غير معتادة، تدل على أن صاحب الوجه أكاديمي، قضى عمره بالكامل وسط أراشيف الكتب، نظراته تقول بوضوح إنه لم يختبر الحياة سوى من خلال الكتب، عيناه لم تتعرضا لزهق الروح الخاص بمن يختبرون الحياة، الكتب تدحض ادِّعاءات الحياة طيلة الوقت بالنسبة لمن يعيش معها.

لم يكلف «داغر» نفسه عناء سؤال: «هل أنت حقيقي أم لا؟» لسوف يفترض مع كل من يتحدث معهم أنهم حقيقيون لحيث إثبات عكس هذا، كما أن الرجل أشيب الشعر لم يبدُ وكأنه شخصية تاريخية معروفة، فقط أنف معقوف وغليون منطفئ، لكن شيئًا ما بدا بعيني الرجل وطريقة تدلي الغليون المنطفئ من فمه كأنه قد نسيه في فمه،



CamScanner

رجل قد رأى كابوسًا شنيعًا وهو متعجل للغاية، لكنه مستعد لبذل مجهود ما لإقناع «داغر» بشيء..

تفحَّص الكهل «داغر» بعينيه جيدًا قبل أن يقول:

- أنت رجل متأنٍّ، تُفضِّل الصمت عن الحديث، رجل حريص. تحاول تكوين انطباع عني من هيئتي..

- الحقيقة أني أحب الحديث، بإمكاني الحديث معك عن مدى ولعي بالشطائر، خذ عندك الفلافل مثلًا تلك الوجبة الفاتنة، والفول المدمس بالطحينة، لينافسهم الكشري كما شاء، ولكن سيظلان دومًا صامدين.

- أنت تستخدم السخرية لكبح جماح شخصيتك، سخريتك مريرة وسوداوية بعض الشيء.

- كذلك أجد جواربي، هم أكثر مرارًا لو أردتَ رأيي..

- لا داعي للعدوانية يا أستاذ.. أنا لست بعدو..

- من أنت إذن؟

لم يخف على «داغر» نفاد الصبر الذي يتحدث به «كامل»، بدا أنه يحاول تهدئته بهذا الحديث غير المباشر معه..

أشعل «كامل» غليونه وزفر قدرًا هائلًا من الدخان شعر معه «داغر» بأن المدينة بأسرها سوف تختنق بسببه، خبر عاجل يا رفاق، مدينة الضباب الساحلية موشكة على الاختفاء وسط كل هذا الدخان، مدَّ الرجل يده مصافحًا «داغر» وأردف:

- اسمي «كامل كمال»..

- اسم بعيد تمامًا عن النرجسية!

- هلا كففتَ عن محاولاتك لصدِّي، واستمعتَ لما يوجد لديَّ كي أقوله.

- اسمعني يا صاحِ، بعض الناس يريدون تقبيل فتاة أحلامهم، بعضهم يسعى للمجد والنفوذ، كل ما أريده هو شرب الشاي لهضم الفلافل اللعينة..

هزّت المعلمة داخل رأس «داغر» محيية إياه تلك المرة، وكتبت عنوان الدرس الجديد بالطبشور: «لا تخبر الغرباء بأنك تلاحق قاتلًا غامضًا، قل لهم دومًا إنك تريد شرب الشاي»..

تنهد «كامل»، ولم يفت على «داغر» أيضًا أنه لا ينفكُّ عن التلفُّت حوله.. هو خائف بشدة، كلاهما مُدَّعٍ في تلك اللحظة.

- هل تؤمن بقوانين الجذب يا أستاذ... ما اسمك؟

- «داغر»، لو تتحدث عن الابتسام ببلاهة عند رؤية فتاة جميلة نعم أنا أؤمن بقوانين الجذب..

تجاهله «كامل كمال»، ولم يفت على «داغر» أن الرجل يبذل طاقة هائلة كي يتحدث بشكل عادي دون عجالة، ولكن رغم كل تلك المحاولات هو يبدو كرجل اقترب قاب قوسين من الموت، للمرة الأولى يفهم «داغر» جملة «انتصب شعر ساعده»، فبالتأكيد هذا الرجل ذو شعر ساعد منتصب، انتبه «داغر» من ملاحظاته عن «كامل» لما يقوله الأخير:

**- العقل البشري يمتلك إرادة حرة تمامًا، لهذا نحلم، وفي الأغلب أيضًا لذلك لا نتذكر أبدًا بداية الحلم، فقط نجد أنفسنا في منتصف الحدث الساحر، لو ذهبتَ لأي مكتبة ستجد عشرات الكتب تتحدث عن الوعي وكتاب واحد يشرح الجهاز التنفسي، هل تعلم السبب؟ لأن الجهاز التنفسي واضح ومفهوم بكل دقته التشريحية وآلية عمله، لكن الأمر يختلف مع الوعي، كل ما نمتلكه هو نظريات، ما هي الأفكار**



CamScanner

حقًا؟ والخيالات؟ الجزء المسئول عن الذاكرة؟ هل يوجد حقًا و
جمعي؟ وقد ورثنا من رجل الغاب أشياء مثل الخوف من الظلا
لأنه كان وقت الاختباء داخل الكهف من الحيوانات البرية؟ هل تع
أنك لو حلمت أنك تسقط من أعلى فلا بد أنك سوف تستيقظ ق
أن ترتطم بالأرض في الحلم؟ لو حدث العكس ستموت إبان نومك
العقل البشري يصنع الواقع يا أستاذ «داغر».

لكن بعض البشر، لنقل الكثيرون منهم، لا يعرفون من هم حقًا
يولدون ويحيون حياتهم وفقًا لقوانين الآخرين، هؤلاء لا يحيون حقًا
بل هم مجرد ردة فعل للواقع المحيط بهم، مثل تلك المقولة القديمة
يومًا ما سوف يسألك العالم من أنت؟ ولو لم تمتلك إجابة فسو
يمليها عليك الكون، لكن هؤلاء الذين يعرفون هويتهم، يرفضو
واقع الآخرين ويحلمون بواقع خاص بهم، هم دومًا مختلفون وغريبو
أطوار يتعرضون للتهكم والنقد اللاذع لحين اكتمال أحلامهم
وبعدها يطلقون عليهم عباقرة بدلًا من مجانين، هل تعلم السبب الذي
يجعلهم يواصلون رحلتهم؟ قوة العقل البشري التي وهبها الله لنا
قوانين الجذب يا أستاذ «داغر» هي ما يحدث عندما تفكر في شيء
ما.. تتخيله.. تتصرف وفقًا له وتتحدث عنه بعدما يسكن قلبك، حتمًا
سيحدث هذا الشيء.. نحن نصبح ما نفكر به.. أعتقد أنك بداخل
عقلك كنت دومًا تدرك أن هناك شيئًا خاطئًا يحدث من حولك، فقالوا
لك إنك تعاني من خلل ما، ربما جنون الارتياب والإيمان بنظريات
المؤامرة، لكن لأن بوصلتك العقلية سليمة ولم تفقد بعدُ، ولأننا
نكون أفكارنا في نهاية المطاف، فقوانين الجذب الخاصة بعقلك
جعلتك ترى القبطان في لحظاته الأخيرة وتعرف السر، وتذهب لتتحق

كاميرتي بحثاً عن الإجابة الأهم: «لماذا لم يسألوا «سيلين»؟
أراد «داغر» أن يضحك، لا توجد وسيلة لهذا الرجل كي يعرف
بشأن القبطان و«سيلين» سوى أنه مجرد هلوسة عقلية مصابة بدرجة
جنون عظمة لا بأس بها، موضوع العبقرية الذي ذكره هذا، لكن
محاضراته الخرقاء تلك عن العقل البشري، تلك معلومات لم يسبق
لـ«داغر» أن سمع عنها من قبل، فكيف تهلوس بها تلك الشخصية؟
ابتسم «كامل» وقال بهدوء:
- أنت تنظر لي بشكل كأني أمتلك أذرع أخطبوط وأرقص بها.
ابتسم داغر للتشبيه في حين تابع «كامل»:
- أنا أستاذ جامعي، ومثلك، ومثل «سيلين» والقبطان، لاحظت
أن شيئاً ما خاطئاً يحدث من حولنا، وقد حاولت الوصول لحل دون
أن يتهمني الجميع بالخبال، ثم رأيتُ ما حدث....
تهدج صوت «كامل» مردفاً:
- لـ«سيلين» المسكينة وصديقتها «كاميليا»، أما القبطان فقد
وجدتُ بقاياه.. أنا أريد أن أساعدك في الوصول للكتاب..
ظل «داغر» ينظر إليه صامتاً، إذن فالرجل يعرف بشأن جرائم
القتل، أضاف «كامل» بوهن:
- سوف أجنُّ لو لم أساعدك، أنا بحاجة لشخص يُصدِّق، كلهم
قد ماتوا ما عداك..
أطلق «داغر» سبة خافتة، سوف يرد على الرجل ويسأله، وبهذا
يقر أمام نفسه بأنه سوف ينخرط في تلك المحادثة العجيبة، «سوف
نعتبرهم حقيقيين وأنك لم تفقد عقلك بعدُ لحين إثبات عكس هذا».
قال داغر:

- ما الذي تعنيه بأنك قد رأيتَ ما حدث للقبطان؟ لماذا لم تتدخل لمساعدته؟

- لأني كنت مختبئًا أسفل فراشي بمنزلي حينها..

- ها؟

- أنا وسيط روحاني يا أستاذ «داغر»، تنتابني رؤى لبعض الأشياء التي تحدث من حولي دون إرادة مني، لم أستطع تخمين اسمك مثلًا، لكني أرى أشياء محددة تكون صحيحة، نوع من الرؤى، وقد تعلمتُ أن أتبع حدسي، لقد فررتُ بأعجوبة من جلسة تحضير الأرواح، لا أعلم كيف، لكني أعرف جيدًا أني جبنت عن نجدة «إسيلين» وتركها لمصيرها..

إذن هذا هو العراف الذي تحدث عنه القبطان، كذا فكر «داغر»..

- هذا هراء.. هل تحاول النصب عليَّ لسبب ما؟ أنا لا أمتلك قرشًا واحدًا..

- كلا، هل ترى؟ أنت تتبع واقعهم هم مرة أخرى، الآخرون، يحاولون إقناعك بأن قدراتنا محدودة، وعقولنا لا شأن لها، وأننا يجب أن نكون مثل كل من حولنا، يحاولون حجب نظرك عن حقيقة أن أجدادنا من رجال الكهف قد رسموا على الجدران، وأحفادهم صنعوا الطائرات، وأننا قد اكتشفنا الموسيقى، و...

- هلا كففتَ عن محاضراتك التحفيزية تلك وأخبرتني بلب ما تريد.

بدا أن «كامل» قد تحمَّس لسماع صوته الخاص فأردف بحماس:

- ألا تعلم أن كهنة التبت يتصببون عرقًا وسط الثلوج ويرتفعون عن الأرض جالسين القرفصاء بسبب التأمل و...

- حسنًا حسنًا.. أنت تمتلك حاسة سادسة، وترى أشياء، لماذا لم

تكسب اليانصيب وتحكم العالم بمقدرتك تلك؟

بنفاد صبر همس «كامل»:

- أنا لا أتحكم بما أراه، كما أني أرى أشياء محددة جدًا..

- وهي...؟

- جرائم القتل، للتحديد مقدرتي أن أشعر وأرى تفاصيل أي جريمة قتل تقع في محيط المدينة التي أحيا بها..

- جرائم القتل.. من المؤسف أن مقدرتك لم تقتصر على رؤية الأعراس وحفلات الزفاف و...

هتف «كامل» مقاطعًا:

- وأنت ترى الموتى.. ما رأيتَه في الفندق لم يكن هلاوس عقلية، بل أرواح من كانوا يسكنون المكان وماتوا به منذ عشرات الأعوام، لكنك ترفض التصديق بموهبتك وتُقنع نفسك بأنك على مشارف الجنون.. تريد أن تقتنع بأنك ترى الخيالات لأنك لا تريد الإيمان بعقلك..

ساد صمت ثقيل، وأخرج «داغر» علبة الدواء بعدها ليبتلع حبتين مرة واحدة، ثم رمق «كامل» بنظرة طويلة، عقله يفيض بالاحتمالات، هل «كامل» هلوسة؟ هل هو يرى الموتى؟ الجنون يبدو أكثر مصداقية، هل «كامل» أحد هؤلاء الموتى؟

- ما الذي يوجد لديك لتخسره؟ أنت ذهبتَ بحثًا عن «سيلين» بالفعل، وكلانا رأى بقايا القبطان المسكين، وكلانا يشعر بأن شيئًا خاطئًا يحدث، لماذا لا نساعد بعضنا كي نفهم فحسب؟ لقد بحثتُ عنك طيلة الليل منذ لمحتك داخل الرؤيا الخاصة بي تقف ناظرًا لجسد القبطان..

ثم تهدّج صوت «كامل» مردفًا:



CamScanner

- عندما تتابني الرؤيا أكون في موضع الضحية وليس القاتل
أشعر بآلامهم وأحلم بذكرياتهم، ولذا عندما انتهت الرؤى أدركت
هناك مكانًا في عقلي يحمل تفاصيل مثل «الميناء المهجور» و«الباب
و«الرجل ذو شطيرة الفلافل».. سامحني هاها، هكذا أسميتك، القبطان
لم يعرف اسمك وعليه أنا كذلك، لقد كدتُ أجن مثلك فيما سبق
لكني تعلمت الإيمان بنفسي رغم ما يقوله الجميع..

ظل «داغر» ينظر للرجل، ثم قال بصوت مختلف خالٍ من السخرية:

- وماذا لو كنا مجانين حقًا؟ وهم صادقون..

ابتسم «كامل» وأجاب:

- ستتحدث حينها عن قوانين الجذب المسئولة عن تجاذب المخابيل..

تسللت ابتسامة لشفتي «داغر»، ثم تنهد وقال:

- حسنًا.. لنجد الكتاب.. من أجل العجوز.

تركوا سيارة «كامل» واستقل «داغر» سيارته والأول يركب بجواره، المعلمة داخل عقل «داغر» تنظر بتشكُّك وحذر لـ«كامل»، فهز «داغر» رأسه لها مفكرًا: «أعلم، سوف أتوخى الحذر دومًا من الغرباء»..

ثم أدار محرك السيارة وانهمرت الأمطار بينما الإطارات تتحرك بنعومة وسط الأرض المتناثر عليها زجاج مهشَّم، وقال كامل:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- للبيت عند التلة، القبطان قال إن كل شيء قد بدأ هناك..

نظر «كامل» مطولًا لـ«داغر» ثم قال:

- هناك أشياء أخرى يجب أن تعرفها، لنجلس في سيارتك ودعني أحكي لك.

قـصَّ بعدها «كامل» لـ«داغر» كل مـا حدث في فندق كابريني إبان جلسة تحضير الأرواح والتفاصيل المؤدية لها، ثم نظر لـ«داغر» منتظرًا رد فعله..

عـاود الألم رأس «داغـر»، صوت القذائف وصيـاح الجنود، نظر من نافذة سيارته، لم يكن يعرف أن «سيلين» حملت طفلًا في أحشائها رغم أن القبطان ذكر شـيء كهذا، وأعاد عقلـه ترتيب باقي المعلومات التي أعطاها إياه «كامل».. زوج «سيلين» قد اختفى، سيدة تركية تفقد حياتهـا، ومـن بعدهـم القبطـان، عـراف مخبول يتحدث عن شـخص يدعى «موسى»، وجرائم اختفاء حدثت منذ مائة عام تتكرر الآن..

نفض «داغر» رأسه وهو ينظر لـ«كامل» ثم تمتم باستسلام: لو كان كل مـا يحـدث حقيقيًا وليـس وهمًا، فأنا بحاجة لإيجـاد منطق ما لكل تلك الأحداث خلال آخر ساعتين في حياتي..

ثم قال إزاء الخوف في عيني «كامل»:

- أنـا أعانـي من حالـة ما، لا أسـتطيع التفرقـة بين ما هـو حقيقي وخيالـي، أهلـوس للدقة، ولـذا أنا غير واثـق من كونـك حقيقيًا أم لا، ربمـا أنـا أجلس في السـيارة وحيدًا أتحدث مع نفسـي.. لكني سـوف أتبع حدسي، سنذهب للبيت عند التلة، ولنرَ إن كان الأخ «موسى» هذا هناك أم لا..

ارتعد «كامل» عند نطق اسـم «موسى»، ثم تمتم بينما «داغر» يدير محرك السيارة: «هو هناك»..

***

بـدا لهم أن الطريق للبيـت ذي التلة يمتد للأبدية، ونهبت إطارات السيارة الأرض نهبًا وسط الأمطار وأضواء المدينة الغافلة..

انقبض قلب «كامل» عندما لمح التلة..

ورغم أن أحدهما لم يقل شيئًا للآخر، لكن كليهما شعر
يدخل أجواء أخرى.. وقد انتاب هذا الشعور «داغر» من قبل عند
خطا داخل فندق كابريني.. والآن ينتاب كليهما..

لم يعودا في المدينة، لم يعد هناك حضارة، هما الآن يترجلان من
السيارة التي لن تستطيع مواجهة الطبيعة واعتلاء التلة..

يقفان وسط عشب أسود قديم وأرض طينية، والتلة العملاقة
تستقر أمامهما..

وتبدو كأنها قد وجدت مكانها منذ بدء الخليقة..

شاهدة على أسرار العالم كله..

تزايد الانقباض بداخل قلب «كامل» وهمس:

- وكأننا قد تركنا المدينة وعدنا للبرية، الطبيعة هي سيدة اللعبة الآن..

لم يردّ «داغر»، كان يرفع رأسه لأعلى ناظرًا للبيت ذي الطابقين
والمدخنة أعلى التلة، شعر وكأنه يرمق شيئًا ما رسمه أحدهم وليس
حقيقيًا..

أشعل «داغر» لفافة تبغ متحديًا الأمطار وقال لـ«كامل»:

- أتمنى أن تكون في كامل لياقتك البدنية؛ لأننا على وشك تسلق
تلك التلة..

لم يردّ «كامل» فالتفت «داغر» صوبه، وتنهد إزاء نظرة الرعب
الزائغة في عيني الأخير، ثم قال:

- أعلم أنك خائف، لن أكذبك خبرًا أنا خائف قليلًا كذلك بعد ما
حكيتَه لي، لكن ما الذي سنفعله؟ نعود للمدينة ونواصل حياتنا ونحن
نشكك في قوانا العقلية؟ كلانا على حافة الجنون، لكننا على الأقل

يعلم أن حالات الاختفاء حقيقية، لعلنا نجد الكتاب ونصل للإجابة عن مكان هؤلاء البؤساء الذين تم اختطافهم وحقيقة «موسى» هذا..

أومأ «كامل» برأسه، وتذكَّر وهو يطمئن «سيلين» ويعطيها الثقة محاولًا إقناعها بإجراء الجلسة، كان هذا لكي يتخلص من كوابيسه الشخصية، ولكي يشعر بأنه ليس الوحيد الذي يعاني، أراد مشاركة مخاوفه والنتيجة كانت مقتل تلك الفتاة الباسلة، أعاد «كامل» هز رأسه لداغر» وقال:

- هيا بنا..

وبدأ الاثنان في تسلُّق التلة، وانهمرت الأمطار..

***

طاك طاك طاك

***

بدأ «داغر» يضحك فجأة وهو يواصل الصعود فوق الأرض الرطبة، فنظر إليه «كامل» متسائلًا:

- منذ ساعة كان أقصى طموحاتي هو تناول شطيرة فلافل، والآن أنا أصعد تلة قديمة صوب بيت أشبه ببيت الساحرات في قصص الأطفال مع شخص يدَّعي أنه عراف!

ابتسم «كامل» ولم يُعلق في حين رفع «داغر» ذراعيه لأعلى بينما الرعد يدوّي في السماء:

- الحياة مخبولة بحق..

ثم نظر للسماء وأردف:

- أين النجوم يا رجل؟

لم يرد «كامل»، الحقيقة أنه كان شاردًا قليلًا، يتذكر أول رؤيا

انتابته وهو طفل، رأى والدته مع شخص آخر بخلاف أبيه، وعندما ذهب ببراءة الأطفال ليخبرها بهذا ظلت تضربه حتى كسرت ذراعه، فيما بعد عرف «كامل» أن ثمن الحقيقة قد يكون كسر الذراع أحيانًا، ولسبب ما تذكّر خطواته في ردهة بيتهم وهو طفل، متجهًا لأمه كي يخبرها برؤياه، يقترب منها ويهمس بالكلمات، تتحول تقاسيم وجهها ويعتليها غضب حيواني ثم يبدأ الضرب بعدها، شعر بأنه يخطو نفس الخطوات، البيت هو أمه والتلة هي ردهة بيتهم، ثم رأى وجه «أسلين» ملطخًا بالدماء، سقط «كامل» أرضًا وهو يبكي ويتمرّغ في التراب:

-لا تضربيني يا أمي، لا تضربيني، أرجوك، آه ذراعي.. لقد كسرت ذراعي.

أجفل «داغر» وكاد أن يتعثر مع انهيار «كامل» وصياحه المفاجئ، الأخير كان متكورًا حول نفسه كالأطفال، ويبكي كما لم يبكِ رجل من قبل، نظر إليه «داغر» بذهول، ثم نظر للمعلمة داخل عقله، وهي تشير للطلاب في الفصل، درس جديد بعنوان «إنهم يبكون، دعهم يبكون لا تبالِ».. غمغم «داغر» للمعلمة: «تبًا لكِ».

ثم مال صوب «كامل» بحرص وصاح:

- هل جننتَ أخيرًا يا رجل؟

- أرجوووك اجعلها تكفّ عن ضربي.

عقد «داغر» حاجبيه بعدم فهم، ثم تنهد، ربما لا يجب أن نفهم كي نواسي، فربت بهدوء على كتف «كامل» قائلًا:

- لا بأس يا رجل، لا بأس..

وكأنما كانت، تلك هي الإشارة التي ينتظرها «كامل»، لقد ق
وارتمى في أحضان «داغر» ودفن رأسه في صدره، ثم واصل البكاء.

ضحكت المعلمة بتشفٍ داخل عقل «داغر»، الذي هتف:
- رويدك يا رجل نحن لسنا في جلسة علاج هنا..

لكن «كامل» استمر في البكاء محتضناً «داغر»، وهو يتمتم بكلمات كثيرة غير مفهومة بها كلمة «أمي» تتكرر كل حين..

أطلق «داغر» سبة، ثم ظل يربت على ظهر «كامل» كأنه يهدئ طفلًا ويردد:
- لا بأس.. لا بأس.. كل شيء سيكون على ما يرام..

لكنّ عربة الشك في القطار داخل عقل «داغر» قد انحرفت عن القضبان وانطلقت في طريقها الخاص، من الواضح أن والدة «كامل» كانت تضربه وهو طفل وقد كسرت ذراعه، ألا يُذكّره هذا بشخص ما؟ طاف عقله بمشهد سريع لنفسه وهو يمد ذراعه للثلاجة، ثم نفض رأسه، هل تلك محض صدفة؟ أم دليل على أنه يهلوس شخصية «كامل» ويخلق له نفس معاناة الطفولة؟ جذبته المعلمة من أذنه داخل الفصل وأشارت لما كتبته: «لن نظل نفكر فيما حدث في طفولتنا، الحياة كلها تنتظرنا».. أومأ «داغر» برأسه لها داخل رأسه، سيعتبر الأمر صدفة..

ثم أضاف بعد وهلة لـ«كامل»:
- هيا يا رجل لن أغني لك «ماما زمانها جاية»! فقط حاول أن تتمالك نفسك.

اهتز جسد «كامل» وقد تخلل الضحك لبكائه بعد ما قاله «داغر»، ثم تراجع للخلف وهو يضحك، قبل أن يمسح دموعه ويردد بخجل:
- آسف.. آسف.

ارتمى داغر بظهره ليستلقي فوق التلة ويقول بإرهاق:
- لا أعرف ما الذي فعلته أمك بالضبط، لكني بالتأكيد لا أود مقابلتها.



CamScanner

هنا ضحك كلاهما وهما جالسان بإرهاق فوق التلة، وأغمض «كامل» عينيه تاركًا الأمطار تنهمر على وجهه، ثم دون اتفاق واصل الاثنان طريقهما صوب البيت..

غمغم «داغر»: «كأننا في عقاب سيزيف، يدحرج الصخرة لأعلى الجبل كل يوم لتعود لموضعها الأصلي بعد هذا، ويعاود الكرة، يلوح لي أن تلك التلة لن تنتهي أبدًا»..

- لقد اقتربنا، هل أنت مدرس تاريخ؟

- بل باحث في التاريخ، كنت أحب الأساطير الإغريقية وألف ليلة وليلة، فقط لم أتوقع أن أعيش قصة منها الليلة.

- أنت تمزح دومًا.

- كي لا أجنَّ يا رجل، كي لا أجنَّ، أنت لست سريع البديهة بالنسبة لعراف، كنت أتوقع أن تكون مثل نوسترادموس العراف الشهير، تتحدث بغموض وتقول النبوءات بدلًا من أن تبكي مناديًا أمك!!

- وأنا لم أتوقع أن شخصًا يعاني من البارانويا سيكون الأمل الأخير لحل هذا اللغز الكابوسي.

هز «داغر» رأسه مبتسمًا، هنا قال «كامل» فجأة:

- هل تعرف؟ لم أمتلك أصدقاء أبدًا، لكني كنت أقرأ فيما سبق أنه عندما يتبادل الرجال السباب المازح فهذا تعبير عن صداقتهم.

ثم مدَّ يده صوب «داغر» ليشد عليها وهو يردف بتأثر:

- أعتقد أن تلك أسرع وأول صداقة تكونت في حياتي.

ضحك «داغر» وهو يشد على يديه معلقًا:

- حاول ألا تبكي مرة أخرى فحسب..

- أخيرًا.



CS CamScanner

هتف بها الاثنان عندما وصلا لنهاية التلة، وسطع البرق في السماء مع هبوب الرياح وكلاهما يقف أمام البيت..

وغمغم «كامل» مشدوهًا:

- لم أره بهذا القرب من قبل..

وأضاف «داغر»:

- يبدو وكأنه كان دومًا هنا.

ثم استدار خلفه ناظرًا للمدينة مردفًا:

- كأنه يراقب المدينة..

تبادل الاثنان نظرة سريعة ثم قال «داغر»:

- أنت قلتَ إننا نصبح ما نفكر به، ربما لو أقنعنا أنفسنا أن «موسى» ليس بالداخل فلن نجده.

- ليت الأمر كان بتلك البساطة.

أشعل «داغر» لفافة تبغ وقال:

- لماذا لا تتوقف الأمطار أبدًا؟

ثم سار الاثنان للبيت..

- هل نطرق الباب أم ندير المقبض وندخل؟

لم يرد «داغر»، فقط أدار المقبض وغمغم:

- موصد، لن نطرق أبوابًا، سنحاول التسلل كأي متلصص ليلي يحترم نفسه.

- رائع.

وبدأ الاثنان يبحثان عن مدخل دون أن يرى أحد منهما انعكاس «موسى» الواقف بالنافذة العلوية ينظر إليهما..

طاك طاك طاك!

# الفصل الخامس

في البدء أعتقد كل من «داغر» و«كامل» أنهما يتخيلان الضبع.. لقد مرَّ من أمامهما بكل هدوء وهما يقفان أمام باب البيت..

- هل تراه؟

قالها «داغر» بتردد فأومأ «كامل» برأسه برعب..

- هل هذا ضبع؟

- نعم.

- لم أرَ واحدًا من قبل.

- هل الضباع تهاجم البشر؟

- لا أعلم، أظن أن الضباع تهاجم عند الدفاع عن نفسها فحسب.

كان الضبع يحدق بهما متحفزًا، وكشر عن أنيابه، وبدأ يحفر في الرمال..

- آه حسنًا لا أعتقد أن هذا الضبع قد قرأ من كتيب حياة الحيوان الذي استقيتَ منه أنت تلك المعلومة!

تراجع «كامل» خطوة للخلف، فهمس «داغر» مسرعًا:

- لا تتحرك.

لكنه قالها متأخرًا، لقد كان الزبد يسيل من شدقي الضبع وتذكر «داغر» سريعًا عريف الجيش وهو يلقنهم درسًا سريعًا بضجر عن حيوانات الصحراء، وصاح «داغر» في نفس اللحظة التي قفز فيها الضبع على «كامل»:

- إنه مسعور..

لم يكن يعرف بالضبط ما فائدة تلك المعلومة، ولا سبب وجود ضبع أمام هذا البيت، فقط رأى أمام عينيه المذهولتين «كامل» وهو يسقط للخلف والضبع يتشبث بعنقه، ودوَّت صرخة «كامل» بينما هو والضبع يتدحرجان على التلة..

ظل «داغر» واقفًا مكانه لثوانٍ وهو ينظر لما يحدث، ثم بدأ في الركض خلفهما محاولًا ألا يتعثر..

«كامل» يصرخ.. الضبع يعوي بصوتٍ أشبه بالضحكات العابثة..

«داغر» يعدو.. الأرض تميد من حوله.. الألم يجتاح رأسه.. كلا هذا ليس بتوقيت مناسب لنوبة تداهمه..

يترنح «داغر»..

يستقر جسد «كامل» أسفل التلة.. عنقه وكاحله بهما ألم لا يوصف.. وكتفه ملتوٍ تمامًا.. لكنه يلمح الضبع يعتدل من سقطته ويهب واقفًا، يشعر بأنفاسه النخرة على وجهه، لم يعد يرى شيئًا في العالم سوى فم الضبع في تلك اللحظة..

كل شيء في الحياة قد تحوَّل لأنياب.. لم يعد هناك ذكريات ولا عواطف، لا شيء سوى أنياب الضبع..

«داغر» يسقط أرضًا ممسكًا برأسه وهو يصيح..

«جيهان».. «محمود»..

الخندق.. صوت القذائف..

القيطان.. المياه..

«عقلك قد تلف»

من قال له هذه العبارة؟

يرقد أرضًا ويرى الضبع ينقض على وجه «كامل» والأنين يستغيث..

●●●

«سوف أجد ساقك».

●●●

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف»

●●●

«اسمه راسبوتين، ساحر ملكة روسيا، لم يستطيعوا قتله، هزم السم والرصاص والسكين، اسمه راسبوتين ولا قِبَل لأحد بقوته العاتية».

ترددت كلمات الأغنية القديمة داخل ذهن «داغر» وهو يرى «راسبوتين» يظهر من العدم، بزيه الأسود وجسده الضخم، ولحيته السوداء وعينيه الساحرتين، يا لقوة شخصيته..

كلمات الأغنية تتردد.. «را را راسبوتين»..

ينقض «راسبوتين» على الضبع ويحمله بذراع واحدة ثم يدق عنقه، ويحمله على كتفه في شمم، دون أن ينظر لجسد «كامل» الذي فقد وعيه إثر هجمة الضبع الأخيرة، يلتفت «راسبوتين» لـ«داغر» ويقول بلكنة ثقيلة:

– حيوانات قبيحة هي الضباع، تنهش المقابر وتأكل الموتى، لكنه عشائي لليلة.. لقد كنت أتبعك، لكني سأعود للباخرة في الماء الآن.. إنها مكان مناسب للنوم في عالمك هذا.

أراد «داغر» أن يحتضن «راسبوتين» في تلك اللحظة؛ تعبيرًا عن امتنانه، لكنه ظل في موضعه أرضًا يحدق به بأنفاس متلاحقة.

ثم أظلمت الدنيا من حول الأخير وهو يتمتم بعينين زائغتين:



CamScanner

- لقد أنقذتك يا كامل من الضبع، لا أعلم كيف، لكن «راسبوتين» داخل عقلي تولى قيادة جسدي وأنقذك، لقد كنت محقًّا يا كامل، هناك أسرار عجيبة في عقو.. عقو.. آه عقولنا..

وأغمض «داغر» عينيه..

***

هل هذا حلم؟

هل هذا كابوس؟

لماذا هناك موسيقى صاخبة ومرعبة في الأرجاء؟

رأى «داغر» نفسه يرقد فوق محفة فراش، هو داخل خيمة عملاقة، بها محفات عديدة وممرضات بلا وجوه، هل أصبح «كامل» بلا وجه؟، هناك مرضى تئن من حوله فوق الفُرُش، وصوت زوابع بالخارج، الكثير من الضباع تمرح هنا وهناك، اقتربت منه ممرضة ترتدي كسرولة، هنا رأى «داغر» أن كل المرضى من حوله ليسوا سوى نسخ أخرى من «داغر» كذلك..

ثم مالت الممرضة صوبه وقالت:

- مرحبًا بك في المشرحة.. اسمك «داغر».. يا له من اسم جميل.

كان معلمه يسخر منه قائلًا إن معنى كلمة «داغر» الحقير والذليل والخبيث والمفسد، لكن معلمته الجديدة ابتسمت له قائلةً: إن معنى داغر هو المهاجم والمداهم والدافع والضاغط حتى الموت.. اقتربت الممرضة وقالت له إطراءً آخر بشأن اسمه، لكنه لم يكن يستمع لها حقًّا.. كان ينظر إليها في رعب..

الممرضة كانت تمتلك وجه ضبع..

***

فتح «داغر» عينيه، أفاق ببطء، كان لا يزال راقدًا أسفل التلة وسط العشب، أخرج علبة الدواء وابتلع ثلاثة أقراص، ثم اتجه صوب كامل وهو يحاول نفض رأسه.. رقد على ركبته وهزَّ كتف الأخير فتأوَّه بألم..

- كتفي مخلوع..

قالها «كامل» بوجه غارق في الدماء، ثم أردف:

- أين الضبع؟

- لقد قتلته متقمصًا شخصية أخرى داخل عقلي..

بدا عدم الفهم على «كامل»، الذي قال:

- بداخلي قدر هائل من الألم والغضب، لو تغلَّب الأول على الثاني ستكون تلك نهايتي..

- سوف أذهب بك لحكيم.

- ماذا؟ حكيم؟

- دار رعاية.

- عم تتحدث يا «داغر»؟ أنا بحاجة لمستشفى..

هز «داغر» كتفيه وقال:

- لا أفهم إلام ترمي ولا معنى تلك الكلمة، لكني سآخذك لحكيم..

رغم ألمه نظر «كامل» لـ«داغر» نظرة اعتادها الأخير، لكن تلك كانت مرة «كامل» الأولى في النظر بها إليه، نظرة من يشكُّون في سلامته العقلية..

ثم بدأ «كامل» في الأنين وأولى اهتمامه للألم.. حمله «داغر» صوب السيارة، وأرقده في المقعد الخلفي، وقفز داخل السيارة، ولم ينسَ أن يعطي نظرة للبيت أعلى التلة مفكرًا:

- سأعود..

بعد وهلة أوقف «داغر» سيارته أمام مبنى قديم يحمل لافتة مخطوط عليها:

- دار رعاية صحية..

يحمل «داغر» العراف لدار الرعاية، ويخرج منها بعد وهلة، بعدما أودعت ممرضة ترتدي المريولة البيضاء وغطاء الرأس «كامل» الغرفة تضميد جراح، وأعطته المورفين.. عاد «داغر» لسيارته وأدار المحرك..

قبض بيديه على المقود وحدَّق بالفراغ..

سيعود وحده للبيت، لكنه يشعر بتشتت وقبضة هائلة تعتصر صدره، هو بحاجة لكي يهدأ..

أغمض عينيه..

«يا لك من وغد أخرق»

سمع العبارة وتلفَّت حوله، بعض المارة يسيرون في الشارع، صاح كالمجنون:

- مَن منكم قال هذا؟

وظلت يده ترتعش بينما هناك تعبير من الغضب الجنوني يعتلي وجهه، يراهم بعين الخيال ينظرون إليه ويبتسمون في سخرية..

الكل يحدق به..

غمغم بصوت واهن وحزين: «هذا ليس حقيقيًا، كل واحد منهم يسير لحال سبيله، أنت تتوهم، أنت ترتاب»..

ثم فتح دُرج سيارته وأخرج مذكرته الصفراء والتقط القلم الرصاص بأنامله وكتب: «أنا مصاب بعقدة اضطهاد وجنون ارتياب،

لكني سأكون بخير»..

ثم نظر للورقة التي استقرَّت داخل المفكرة تنظر له بخبث، وقد استقرت فوقها نفس العبارة التي كتبها سابقًا مرارًا وتكرارًا، في تلك الورقة ومئات الوريقات من قبلها، تنهد وقلب الورقة، ثم بدأ يرسم، بسرعة وجنون كأنه يسابق الطاقة المدمرة داخل عقله..

يتحرك القلم الرصاص.. قام برسم وجه.. شعر.. قبعة رأس ذات جانبين، أنف مدبب وفم رقيق.. جسد جذاب ورداء ماريونيت..

انتهى من الرسم ونظر للورقة، لرسمة جيدة من وجهة نظره لتلك الفتاة التي قابلها في الملاهي، «شهد»، شعر بالهدوء يغمره، هناك هالة من الراحة النفسية تحيط بتلك الفتاة، مسح بإصبعه على وجهها وابتسم..

كم الساعة الآن؟ ليته يعرف الوقت، رفع رأسه للتلة البعيدة وقال: «سأذهب يا «كامل»، لا تقلق، لكني بحاجة لكي أستجمع شجاعتي.. سأذهب لدقائق فقط للملاهي لربما أقابل تلك الفتاة مرة أخرى، هي رائعة يا كامل، شديدة الجمال، كقطعة حلوى في أرض لا تعرف بعدُ أن هناك مذاقًا من الأساس، طبعًا هي نائمة في بيتها ولن أجدها هناك، قوانين جذبك لن تكون بتلك القوة يا صاح، خمس دقائق فحسب في الملاهي وسأعود للتلة بعدها.. أعدك بهذا»..

ثم أضاف همسًا بتوسُّل والعرق يتصبب على جبينه: «خمس دقائق فحسب من السلام النفسي كي لا أجن».

ظل «داغر» يتحدث بصوت عالٍ حتى أوقف سيارته أمام بوابة الملاهي وترجل منها، أخذ نفسًا عميقًا ونظر بطرف عينه للمسرح الكبير، وتمتم: «هل أنتِ تقدمين عرضًا مسرحيًا الآن؟».

أغمض عينيه للحظة وتخيلها، ترقص الباليه فوق المسرح بنعومة،

[illegible] تلك

[illegible]

[illegible]

[illegible] من الملاهي [illegible]

[illegible] في المسرح.

[illegible] المسرح [illegible] العرض مسرحية [illegible]

[illegible] هناك [illegible] لأبطال العرض [illegible]

[illegible] المسرح [illegible]

[illegible]

[illegible] الجريدة [illegible] العنوان [illegible]

[illegible] الصفحة [illegible] محتوى المقال.

[illegible] كانت [illegible] الكل

[illegible] من الغضب تلك

[illegible] من خلفه..

— موعد العرض [illegible] بعد..

التفت [illegible] كانت تقف هناك وسط الضباب

[illegible] حول [illegible] لم تكن ترتدي

[illegible] الأسود [illegible] أطراف رقبتها، وعيناها

[illegible] على الأرض [illegible] حتى

[illegible] كأنه [illegible]

[illegible] الجمال في عالم الظلام، وكل الظلال تعض أصابعها

[illegible] فلا ينظر إليها [illegible] الجميع

[illegible] هذا القدر من الجاذبية والجمال.

همست «شهد» وهي تنظر إليه:

- لماذا عدتَ؟

- أردتُ رؤيتك.

تلفّتت «شهد» حولها، وتمتمت بشفتين تعدان بما هو أكثر من الأحرف:

- صدفة غريبة، أن نتقابل مرتين في نفس الليلة.

ابتسم «داغر» وتذكّر قوانين الجذب الخاصة بـ«كامل»، اقترب منها فتراجعت هي خطوة للخلف، صدرها يعلو ويهبط مع سرعة أنفاسها ثم قالت:

- أنا لا أعلم.. لماذا خرجتُ أسير لوحدي، الضباب كان خلابًا..

- هل بيتك قريب من هنا؟

أشارت «شهد» للمسرح، فهزّ رأسه متفهمًا، فرقة ممثلي مسرح متنقلة يحيون حيثما يعملون، مثلما فعل لاعبو السيرك وقبائل الغجر من قبلهم، رفعت «شهد» عينيها ونظرت إليه مطولًا قبل أن ترتجف من البرد وتحيط جسدها بذراعيها، أراد «داغر» أن يقول لها أشياء عدة، إنها منطقية في عالم لا منطقي، وتحمل جمالًا خامًا بداخلها وإنه يعلم سبب خروجها من فراشها بهذا الروب الطويل لتسير في الضباب؛ لأنها تشعر بالوحدة، أراد أن يقول لها إنها ترياق الوحدة ولا يجب أن تشعر بالوحدة، أراد أن يقول لها الكثير من الأشياء، لكنه نظرت إليه فحسب، نظرة واحدة كانت كافية، اقترب منها واحتضنها بقوة، التفّ ذراعاها حول ظهره، قبّلها والتفّ الضباب من حولهم ليحجبهما عن أنظار العالم..

وتمتمت «شهد» بين أحضانه:

- قبّلني مرة ثانية..

وأغمضت عينيها، التحم الاثنان كنغم ليلي، كمعزوفة تغازل ألحانها بعضها بعضًا.. ثم رحلت الفتاة، سارت نحو باب المسرح، وأخرجت مفتاحًا من جيبها، ظل يتابعها بعينيه، التفتت إليه وابتسمت، ثم توارت عن ناظريه بعدما أغلقت الباب ببطء..

وقف «داغر» وحيدًا وسط الضباب، وأخذ نفسًا طويلًا.. واستدار..

عائدًا إلى البيت والتلة.. و... «موسى»..

وكل ما جاله بذهنه عندما وصل للتلة قبل أن يعاود تسلقها كان فكرة واحدة: عقاب سيزيف..

***

يقف داغر أمام البيت، الرياح تشتد، يدور «داغر» حول البيت.. لا توجد أبواب خلفية، لا نوافذ تصلح للتسلل.. ولم تظهر ضباع أخرى حتى تلك اللحظة..

يحاول إدارة مقبض الباب الرئيسي دون فائدة، لا مناص من طرْق الباب، قد تبدو تلك فكرة حمقاء، لكنه لا يمتلك حلًا آخر..

هل كان الضبع هنا لحراسة البيت؟ من المفترض أن الضباع لا تأتي فرادى، أو شيء من هذا القبيل على أي حال، يتلفت «داغر» حوله ثم يمسك بالمطرقة المعدنية، يجذبها للخلف ثم.. يطرق بها الباب محدثًا دويًا لا بأس به..

يلصق بعدها أذنه بالباب، لم يسمع صوت خطوات، لا شيء.. يتنهد ثم يعيد الكرَّة مرة أخرى..

لا شيء سوى الصمت..

يهز «داغر» رأسه، متذكرًا جثة القبطان وبكاء «كامل»، والجندي في الخندق، و«جيهان» و«محمود».. ينحني ويلتقط حجرًا من وسط العشب ويلوح بذراعه للخلف ثم يرمي الحجر صوب النافذة التي تهشمت مع لمعان البرق، وعندما دوَّى الرعد كان «داغر» ينسلُّ من النافذة التي قفز منها إلى داخل البيت، غريبة هي الأشياء التي تمر بعقولنا في أوقات كتلك، فمثلًا ما مر بذهن «داغر» كان تساؤلًا بسيطًا للغاية:

- أليس من المفترض أن يسبق البرقُ الرعد؟ أم العكس؟

لم يتذكر الإجابة، فقط كان يدرك الآن أنه داخل البيت..

***

والآن لنترك «داغر» داخل البيت ذي المدخنة أعلى التلة، ولننتقل لمكان آخر، لدار الرعاية الصحية حيث يرقد «كامل كمال» العراف بداخل إحدى الغرف..

تراخت عينا «كامل» وهو يرى الأنبوب المستقر في ذراعه، المورفين يعمل المعجزات داخل جسده محاربًا الألم..

معركة هائلة قد نشبت بين الاثنين..

في النهاية انتصر المورفين، مؤقتًا على الأقل، وخلد «كامل» لسُبات عميق..

ظلام دامس..

ثم انتابته رؤى..

لقد تعلَّم التفرقة جيدًا بينها وبين الحلم حتى إبان فقدان وعيه..

نحن لا نتذكر بداية أحلامنا، لكن الرؤى أمر مختلف..

لقد رأى البداية بوضوح، هو داخل غرفة المستشفى، أو دار

الرعاية كما وصفها «داغر».. يرقد فوق الفراش.. العاصفة تدوي بالخارج..

الممرضة تنحني وتتفقد «الجبس» المحيط بذراعه وحمالة الكتف، وتبتسم قائلةً له:

- أنت بطل حقيقي، ستكون بخير..

لكنه يدرك أنها تتحاشى النظر لوجهه، والضمادات التي تحيط بجبينه وعينه التي فقدها بسبب الضبع اللعين..

سيكون هناك وقت كافٍ للاستيعاب والحزن فيما بعد، لكنه الآن ينظر للممرضة التي استدارت خارجةً من الغرفة..

صوت كعب حذائها يدوي داخل أذنه..

ترحل الممرضة ولكنها تنسى باب الغرفة مواربًا، ويراها «داغر» تسير في الممر بين الغرف..

لا أحد سواها..

ملاك رحمة يسير وحيدًا..

لا ريب أن المرضى يقعون في غرام منقذيهم..

تستدير الممرضة وتدخل إحدى الغرف..

ويظهر «موسى» متبعًا إياها بسرعة هائلة ليدخل خلفها..

تتسع عين «كامل» الباقية في رعب..

وفي الغرفة الأخرى رفع مريض مسن وجهه برعب وهو يحاول التحرك بلا فائدة، أمامه الممرضة تشهق..

وعلى انعكاس ظلها فوق الجدار انبثقت دماؤها..

رفعت يدها وكذا فعل ظِلها في محاولة نجاة أخيرة..

ثم سقط جسدها بلا رأس راسمًا بحيرة من الدماء، وتقدم «موسى»



CamScanner

صوب المريض المسن ووضع رأس الممرضة بجوار المريض الذي كان يبكي، ويشهق، مسح موسى بيده على جبين العجوز وقال بصوت حاد:

- ستموت الآن.. أفلا تلبي ندائي؟ يا دم دمائي.. يا ابن أبنائي..

شهق العجوز شهقته الأخيرة، ثم شخص بعينيه وقد خذله قلبه..

ثم خرج موسى من الغرفة، متجهًا لغرفة «كامل» ذات الباب الموارب..

ورآه العراف يسير ببطء متجهًا إليه، يسير كضبع بشري..

وعندما دخل «موسى» غرفة «كامل»، ومسح بيده على جبين الأخير.. ثم انتزع الأنبوب من وريده، وربما سيبدأ في انتزاع الأوردة نفسها بعد ذلك..

عندها أدرك «كامل» أن نهايته مع الضبع كانت أرحم بكثير مما سيحدث له الآن..

***

انتهت الرؤية وفتح «كامل» عينه، وجد الممرضة أمامه تنحني مبتسمةً وتقول له بعدما تفقدت «الجبس» وحمالة الكتف:

- أنت بطل حقيقي، ستكون بخير..

ثم استدارت راحلةً ناسية الباب مواربًا من خلفها، وسارت في الممر..

ملاك رحمة يسير وحيدًا، ثم استدارت متجهة لإحدى الغرف..

وخفق قلب «كامل» في رعب لا يوصف.

***

البيت كان مضاءً بالكامل، بشموع متفرقة في كل صوب

مرصوصة بحرص وعناية، وهناك مرايا، العديد منها.. تنقلت عينا «داغر» بين المرايا، كانوا منصوبين كشواهد قبور وقد تمت تغطيتهم بملاءات بيضاء، تذكر ما قاله له «كامل» بشأن جلسة تحضير الأرواح، وكيف أن الموتى يسرقون أرواح الأحياء عبر المرايا، سرت قشعريرة في جسده، تلك ليست بصدفة، وليست بقانون جذب عقلي، هو كان يغطي المرايا في بيته لتحاشي رؤية انعكاس وجهه بسبب ما حدث في طفولته، عصف برأسه ألم ساحق، أغمض «داغر» عينيه وتمتم: «لن أفكر في الاحتمالات، لن أفكر إن كنت أهلوس أم لا.. سأمضي في الطريق ولن أفكر»..

أخذ نفسًا عميقًا، كاد أن يمد يده ليزيل الملاءة من فوق إحدى المرايا، شيء ما جعله يُحجم عن هذا، ثم انتقلت عيناه لتمثال فارس عربي من عصور المماليك، وفوقه لوحة قديمة لمعركة بين جيش قطز والمغول، وأسفل اللوحة وأعلى رأس التمثال استقرت كتابة حبرية قديمة: «آزورد، فارس فرسان المماليك والناجي من مذبحة القلعة» وهناك سيف عربي مهيب معلق على الجدار خلف تمثال الفارس..

تنهد «داغر»، في الأغلب هو يتخيل التمثال، لقد تعلم أن أي شيء له علاقة بالتاريخ لهو هلوسة عقلية، اقترب من المدفأة وفرك يديه بجوار نيران الحطب المشتعلة بداخلها، وغمغم: مدفأة ونيران، مصابيح قديمة تضيء البيت، لا كهرباء هنا، كأني قد سافرت عبر الزمن..

لم يدع تلك المرة مجالًا لكي تستوقفه تلك الفكرة وتزعجه، سحق الفكرة التي تحمل عنوان «هل يتخيل البيت نفسه؟» من قبل أن تولد..

- كُفَّ عن الشك بنفسك يا أحمق.

قالها «داغر» وهو يخرج من غرفة المعيشـة، لمح مكتبة بجوارها، بها عدد هائل من الكتب القديمة، ولم تكن قديمة كلمة وافية للوصف، كتب عتيقة عمرها قرون، اقترب من أحدها وقرأ العنوان..

«الفلك»، وبجواره كتاب آخر باسم «الذين هبطوا من السماء»، لكن ما استرعى انتباه داغر كان كتابًا بعنوان «العالم السفلي وعزازيل ملك الشياطين»..

مط شفتيه وبحث بين الكتب، هل كتاب الأحلام هنا؟ لم يجده بعد فترة لا بأس بها..

البيت تقليدي رغم غرابته وقِدَمه حتى الآن.. هنا سمع جلبة قادمة من الأعلى، صعد الدرَج مسرعًا..

وجد ردهة طويلة بالطابق الثاني، وهناك تمثال آخر.. قطب «داغر» جبينه، تمثال لمخلوق يخرج قرنان من رأسه، ويمتلك قدمي ماعز، وله ذيل طويل، التمثال من الشمع الأحمر بخلاف التمثال الحديدي بالأسفل للفارس المملوكي، والسيف العربي الأصيل، وفوق التمثال كتب أحدهم بنفس الحبر: «عزازيل»..

– رائع..

غمغم بها «داغر» ثم تلا المعوذتين وابتعد عن التمثال، صوت الجلبة هذا مرة أخرى، تبينه تلك المرة، أحدهم يئن..

هناك غرفة في نهاية الردهة حيثما يأتي مصدر الصوت..

دلف «داغر» للغرفة، وللمرة الأولى في حياته منذ أعوام.. وجد نفسه يصرخ..

●●●

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

— [illegible]

— [illegible]

[illegible]

[illegible]

— [illegible]

[illegible]

— [illegible]

— [illegible]

— [illegible]

هنا هبَّ «داغر» واقفًا وهو يصيح:

- تبًّا لهذا اللعين، ليتني أجده، لقد سئمت سماع اسمه، سوف أمزقه إربًا إربًا..

وجَّهت له العجوز نظرة خاوية ثم قالت:

- لا قِبَل لأحد بـ«موسى»..

- هل تعلمين أين هو؟ من الذي قام بتلك الجرائم منذ مائة سنة؟ وما علاقته بـ«موسى»؟ ومن هو «موسى» بالضبط؟ وأين هو كتاب الأحلام؟

ثم جثا فوق ركبته فوق أمامه مردفًا بيأس:

- هل تمتلكين إجابات؟

أمسكت العجوز بصدرها في ألم، وسعلت دمًا، فأجفل «داغر»، ثم صاح:

- سوف آخذك للرعاية الصحية.

هزَّت العجوز يدها وقالت بوهن به إصرار:

- أنا أحتضر، أعرف هذا جيدًا، قلبي لم يحتمل، لا بأس لقد عشت حياة طويلة، أنت تمتلك أسئلة عديدة، أنا أيضًا جئت هنا بحثًا عن إجابات، هذا البيت كان يخص جدي فيما سبق، قبل أن يصل «موسى» ويأخذه، ومعه روح جدي، اسمي «رئيفة»، وقد عشت لأعوام أختبئ منه ومن الحقيقة لكني عُدت للبيت، لأجده يحشو فم تلك المسكينة بالعشب، التفت إليَّ ورآني، ويا للنظرة الحيوانية التي كانت على وجهه، وعلَّقني بجوارها ثم ذهب ونظر من النافذة كأنما هناك قادمين، ظل ينظر لفترة طويلة، ثم حلق من النافذة..

- ها؟ حلَّق طائرًا؟

- بجناحَيْ خفاش.. نعم..

قالتها العجوز ببساطة كأنها تصف وصفة إعداد وجبة طعام، وتابعت:

- «موسى» ليس مثلي ومثلك.. هو قادم من... مكان آخر بعيد..

بدأ الصداع يداهم جبهة «داغر»، وتحسس بتلقائية علبة الدواء بينما «رئيفة» تواصل:

- بعدها وصلتَ أنت.. لكني أخفيت مذكرات جدتي منه.. لقد خطت هي مذكراتها في كتاب قديم وأسمته أمي بكتاب الأحلام.

- جدتك؟

- «رشيدة»..

استرجع «داغر» ما حكاه له «كامل» عن جلسة تحضير الأرواح، وروح «رشيدة» التي تحدثت من خلاله.. تابعت «رئيفة» بوهن ووجه يزداد اصفرارًا: من أخذهم منذ مائة عام هو من يأخذهم الآن، لا شيء كما يبدو أبدًا، تذكر هذا.. ستجد الكتاب مع عزازيل..

ثم أردفت العجوز بصوت خافت:

- هل أنتَ حقيقي؟

ابتسم لها «داغر» بحزن، وقالت هي:

- لقد مرَّت دهور منذ أن تحدثتُ مع أحد، ربما لم يُحلِّق «موسى» بجناحي خفاش، ربما تهيأت جناحيه من فرط رعبي، لعله قد خرج من الغرفة فحسب سيرًا على قدميه..

تنهد «داغر» وابتسم لها بحزن معلقًا:

- لا تشكِّي بعقلك أبدًا.

- أذن أنت حقيقي؟

- نعم.

- هلا أمسكتَ يدي، لا أريد أن أموت وحيدةً، لقد عشت طيلة عمري وحيدةً، أحيانًا يخيل لي أن «موسى» هو الوحدة وقد تجسدت في صورة مسخ..

أمسك «داغر» بيدها وهمس برفق:

- أنتِ لستِ وحدك..

وتخيل تلك الفتاة «حسناء»، لو كان «موسى» هو الوحدة فتلك الفتاة كانت الجمال وقد فتك بها «موسى»، شعر «داغر» بحزن مفاجئ يعتمل في صدره وظل ممسكًا بيد «رئيفة» التي نظرت إليه متأملةً وقالت:

- تبدو شجاعًا وحزينًا.. ووحيدًا.. لكن قلبك حقيقي يا ولدي.. لا زيف به.. اهرب من هنا، واختبئ، لا جدوى من مواجهة المسوخ..

ثم سعلت قدرًا كبيرًا من الدماء تلك المرة، ووجد «داغر» نفسه يحيطها بذراعه ويريح رأسها على كتفه، وقال لها برفق:

- هل تحبين الشِّعر؟

- بالتأكيد..

- حسنًا، استمعي لتلك القصيدة.. لكن لا تكوني ناقدة حادة..

ابتسمت العجوز رغم آلامها..

- انظروا إليّ، في الظلمات، في العتمة، في النور..

هلموا انظروا إليّ.. قادم من ترهات الوديان..

تائهًا، مدركًا.. عاشقًا وللحياة زاهقًا..

هزَّ داغر رأسه مردفًا:

- شِعر رديء للغاية..



@ART_OF_BOOK

CamScanner

لم يأته ردٌ، نظر لجسد العجوز الساكن وعينيها المغمضتين.. أراح رأسها على طرف الأريكة..

- الكل يموت من حولك، أو هي لم تتحمل قصيدتك السخيفة!

التفت «داغر» مسرعًا لمصدر الصوت حيثما وقف «راسبوتين»..

- ألم تذهب للباخرة كي تأكل الضبع؟

ثم ضحك «داغر» بعدما سمع العبارة التي قالها، في حين ربَّت «راسبوتين» على معدته وقال بغلظة:

- لقد التهمتُه نيئًا.. لحمه كان سيئًا، أنا أفضل الجملان..

وقف «داغر» ببطء وبدأ يصعد الدرَج.. وقف أمام تمثال عزازيل في صمت، ثم مد يده داخل تجويف صدره، وأخرج كتيبًا أصفر قديمًا، مذكرات مهترئة..

- إذن هذا هو كتاب الأحلام؟

قالها «راسبوتين» وهو يطل برأسه، فهز «داغر» رأسه، ورد قائلًا:

- كنت لألقي بدعابة سمجة حول تتبعك لي، لكنك أنقذتني من الضبع.

ومدَّ «داغر» يده مصافحًا «راسبوتين» وتابع:

- لك أنا ممتنٌّ..

لم يبالِ «راسبوتين» بيد «داغر» الممدودة إليه، ونظر لتمثال عزازيل في فضول، ثم قال بغلظة:

- لقد قابلته من قبلُ كما تعرف..

- مَن؟ عزازيل؟

- بلى.. عندما جئتُ لوادي بقر، عند قبائل العرب وتعلمت لغتكم هناك، عزازيل كان يغني لأهل الوادي ليلًا وهم يرقصون عراة

ويعلمهم الناي والعود، ثم يذبحون العذراوات والأطفال قرابين له

- رائع.

- ولـذا رحلتُ، لم يحب «راسبوتين» أسـلوب حياة أهل واد بقـر.. حتـى بعدمـا جرعـت مـن تريـاق سـم الثعابيـن الخاص به واكتسبت دمائي القدرة على شفاء جروح المرضى..

نفض «داغر» رأسـه وهو يسـائل نفسـه عن قدر مخيلته ومعلومات التاريخية التي أتاحت لعقله هلوسة كل تلك التفاصيل، ثم نظر لكتاب الأحلام بين يديه، كتاب قديم يحميه الغبار من تبعات الدهر فيما يبدو، وفـي عقله تخيـل «جيهان» و«محمـود»، في حياة بديلـة هو يجلس مع زوجتـه وطفله، بدلًا من قضاء الليلة مع عراف وضبع و«راسبوتين».. في انتظار عودة قاتل شيطاني اسـمه «موسـى»، هز «داغر» رأسه وقال لـ«راسبوتين»:

- هل تعلم شيئًا؟

- أنا «راسبوتين»، أنا أعرف كل شيء.

- تواضع جميل، هل تعلم ما الذي كنت سأقوله؟

- همم.. كلا.

- هلا سمعتني إذن؟

- تفضل ولا تثر غضبي وإلا حطمت رأسك.

- حسنًا، لا داعي لتحطيم رأسي بعدُ، أعتقد أن هناك جزءًا بداخلي يستدعي تلك الحيـاة المجنونة، ربمـا «كامل» كان محقًّا بشأن قانون الجذب، وربما أنا أجد معنى معك ومع العراف على حياة الادّعاء و...

قاطعه «راسبوتين» بنفاد صبر:

- هل ستتلو شعرًا سخيفًا مرة أخرى؟

ابتسم «داغر» وهز رأسه نفيًا، نظر إليه «راسبوتين» بتشكك ثم قال:

- إلى لقاءٍ إذن، أنت تعرف أين ستجدني..

أومأ له «داغر» برأسه، وظل ينظر للعملاق الروسي لحين رحيله..

فور خروج «راسبوتين» صدرت أنّة من العجوز، نظر إليها «داغر» كالملسوع قبل أن يندفع نحوها ويتحسس نبضها، كانت لا تزال حية، وكأن الأنّة أعطت إشارة بدء لجسدها كي يبدأ في التحرك ببطء والإعلان عنْ آلامه، صاح وهو يحملها بين ذراعيه:

- لقد كنتُ أحمق يا «رثيفة»، أنت مقاتلة وعنيدة وتتشبثين بالحياة كالقطط.. اصمدي ولسوف تنجين..

عقاب سيزيف.. جالت الفكرة برأسه مجددًا -ربما للمرة العشرين- وهو يحمل «رثيفة» العجوز بين ذراعيه ويهبط من التلة بحرص نحو سيارته، كانت تغمغم بأشياء عدة بين ذراعيه، ورغم آلامها همست:

- أنت رجل جيد..

لم يقل أحد تلك الجملة أبدًا لـ«داغر»، لا زوجته ولا أصدقاؤه ولا حتى أبواه، لكن تلك العجوز التي قابلها للتو، مقيدةً ومقلوبة الرأس في بيت الأسرار هذا قالتها له، تمتم لها بكلمات بوجه محتقن بالانفعال ولم يسمع هو شخصيًا ما قاله، ثم ظل يردد:

- اصمدي..

كانت تتشبث بياقة سترته في ألم ووَهَن، ولقول الحق كانت ثقيلة رغم أن «داغر» ظن أن الجدات المتقدمات في العمر سيكُنَّ بهشاشة ووزن الفراشات، هيا تماسك أيها الوغد لا تتعثر، لو سقطتما ستتهشم عظامها، لا تتخلَّيْ عن الحياة يا «رثيفة».. سوف أذهب بك لدار

الرعاية.. التلة اللعينة تمتد لما لا نهاية كلما اقترب من السيارة وشعر بالبيت يسخر منه في الخلفية، تجاهلهم وواصل السير بقامة منتصبة حاملًا «رئيفة»، كالمومياء في الأفلام الصامتة وهي تختطف ضحيتها، آه السيارة.. أخيرًا..

يُجلس العجوز داخلها بحرص وهي تقول بعينين مغمضتين ودامعتين:

- الألم.. لم أعد أستطيع التحمُّل.

لا يرد «داغر» في البدء، يدير المحرك بجبين مقطب، ثم يقول فور انطلاق الإطارات:

- سيعطونك مخدرًا، سوف يعتنون بكِ.

- لماذا؟ لماذا عذَّبني كهذا؟

تذكَّر «داغر» الوضع الذي وجدها به، وتلك الفتاة المسكينة «حسناء»، في وضع مماثل بجوارها، ما هي أسباب هذا المجنون فيما يفعله؟ أضواء المدينة الليلية تنعكس على وجه «رئيفة» و«داغر» يقترب من دار الرعاية.. أطبقت «رئيفة» على يده فجأة وفتحت عينيها، أدار «داغر» عنقه نحوها وقالت:

- احترس من المرايا.

أومأ لها برأسه وهو يوقف المحرك، أردفت «رئيفة»:

- كنت أعتقد أن أجلي قد حان، ربما لم أكن مخطئة.

ربت على يدها برقة وقال بصرامة يشوبها حنان:

- ستكونين بخير أيتها الباسلة.

- هلا.. هلا فعلتَ شيئًا لي قبل أن تُدخلني؟

قالتها بأنفاس لاهثة، وبدا أنها تحارب ألمًا عاتيًا في صدرها، أومأ

لها برأسه ونظرته تقول: «سأفعل أي شيء من أجلك فقط ظلي حية»..
شهقت «رئيفة»، تلك المرة الألم داخل شهقتها كان مختلفًا، لم
يكن جديًا، وقالت:

- طيلة عمري كنت وحيدة.. ربما ورثتُ الخوف من «رشيدة»،
ربما هي لعنة بعائلتنا يتوارثها الواحد تلو الآخر، تخيلت دومًا ماهية
شعور امتلاك عائلة.. لو كان لي ابن.. ربما حفيد، كان ليكون في عمرك
أنت، الحقيقة أنه طلب سخيف، لكن لا يوجد آه.. شيء سخيف في
لحظات الاحتضار على ما آمل.. أنا.. لم يحتضنّي أحد أبدًا، أريد
فقط إكمال هذا التخيل داخل عقلي، بأني تزوجت وأنجبت، وأنت
حفيدي، نحن لسنا هنا ولكننا في بيتنا، أنت تريد الزواج من فتاة وأنا
أقف في صفك؛ لأني كنت أدلّلك دومًا وأحاول إقناع ابنتي وزوجها،
الكلام يؤلمني بحق، لكن في لحظات القسوة.. لعلك لا تعرف تلك
اللحظات.. لكن الوحدة آه.. أمر سيئ.. وفي لحظاتي تلك.. أتخيل
حفيدي وهو يحتضنني..

كانت دموعها تنهمر إبان الحديث، فاحتضنها «داغر»، ملمسها
رطب وبه شيء من الألفة، سمع نبضات قلبها السريعة، دام هذا
الحضن لدقائق، ثم خرج بعدها استعدادًا لإدخالها دار الرعاية..
عندما لاحظ أشياء مريبة قليلًا.. مثلًا لماذا الباب الرئيسي مفتوح بهذا
الشكل؟ لِمَ تتطاير الستائر مع الرياح كأن المكان كله شاغر؟ وما هو
سبب خيط الدماء على أرضية الردهة؟ نعم هي دار الرعاية لكن..

- انتظريني هنا.

قالها لـ«رئيفة» وهو يخطو لدار الرعاية عاقدًا حاجبيه.. شيء
يخبره بأن يفر من المكان، نسمة الصقيع تلك التي تهب بمؤخرة عنقه،

ارتجف وضم سترته وهو ينظر لمدخل ردهة الدار.. في المرة الأولى استقبلته ممرضة بوجه بشوش، أخذ خطوة للأمام بحرص ووجه واجم.. كلمات القبطان تردد بداخله..

«موسى قادم إليك، لكل من يقترب من الحقيقة».

خيط الدماء اللعين هذا يقوده الى إحدى الغرف الجانبية، ينعكس ظل «داغر» وهو يلتفت متبعًا الخيط، باب الغرفة موارب، أين المرضى؟ أين الأطباء؟

يدفع الباب الموارب بيده في صمت، ظلام يحدق بالغرفة، يمد «داغر» يده متحسسًا الحائط بحثًا عن قابس النور، عندما يشعر بيد مثلجة على يده، يشهق وفي تلقائية دفع ذاتي يضغط أصبعه القابس ويضيء المكان فيجد جثة الممرضة تحدق بوجهه، فمها مفتوح في صرخة صامتة وقد ابيضَّ وجهها وشاب شعرها، تنظر إليه في اتهام صامت وعينين تتسعان ذعرًا، بحث بوجه واجم عن موضع إصابات أو نزف فلم يجد، تلك المرأة رأت شيئًا ما أوقف قلبها من الرعب وشاب له شعرها، يتراجع «داغر» للخلف، هذا الشعور بوجود عيون ما تتابعه، تلفَّت حوله، الصقيع يتزايد، هناك ضباب كثيف، لقد قال «كامل» إن الضباب دومًا يحيط بـ«موسى»، يحاول «داغر» أن يزيد من سرعة خطواته للخلف ليعود للسيارة ويخرج من هذا المكان، سيكون لديه وقت كافٍ للتساؤل فيما بعدُ..

هنا يسمع دويَّ خطوات، وصوت حيواني ما، كأن شيئًا يقترب منه بسرعة خاطفة، لكن لا أحد أمامه ولا بجواره، تنتابه فكرة سريعة وليتها لم تأتِه، يرفع برأسه ببطء.. صوب السقف، ويرى عبر الظلال شخصًا يتحرك بسرعة الزواحف نحوه، لا يعلم «داغر» إن كان قد صرخ أولًا

أم إنه التفت وأطلق العنان لساقيه، كل ما يعرفه أنه وجد نفسه يلهث في السيارة بجوار «رثيفة» ويمد يدًا مرتجفة ليدير محرك السيارة، وينطلق بها مبتعدًا، الباب المجاور لـ«رثيفة» كان مفتوحًا كأنها حاولت الخروج لتتبعه فأغلقه بقوة وعاد لقيادة السيارة، لم يتحدث، ظل يقود السيارة في صمت وأوقفها أمام المسرح، ثم ضغط بوق السيارة، ظل يضغط بلا توقف ووجه «رثيفة» يزداد أعياءً، ستموت العجوز لو لم تحظَ برعاية، وهو لا يعرف مكانًا آخر، لقد ذكرت له «شهد» أن فرقتها المسرحية معهم عناية طبية، انفتح باب المسرح، سيخرج رجل ما متسائلًا عما هناك في انزعاج، لا تنسَ أن المسرح يتحول لمكان مبيتهم بعدما يغلق أبوابه للجمهور، ولكن لدهشته خرجت «شهد» نفسها وهي تضم الروب حول جسدها وتطل بعنقها في قلق، خرج من السيارة وبدأ في حمل «رثيفة»، ربما لو كانت فتاة أخرى بخلاف «شهد» في تلك اللحظة لكانت وقفت تتساءل أو هرعت لتجلب أحدًا من الداخل، لكن الفتاة تفهمت الموقف فورًا وانطلقت تعاونه في حمل العجوز، شعر بامتنان مفاجئ، هذا النوع من الامتنان الذي يجعلك تريد تقبيل من تمتنُّ له، لكنه اكتفى بحمل «رثيفة» وتأمل وجه «شهد» لثوانٍ قبل أن يُدخلاها لقاعة الاستقبال، المكان مظلم، ولا بد أن الجميع نيام، همست له شهد:

- ما الذي حدث؟

- هي بحاجة لمُسكِّن للألم، قلبها ضعيف، جراحها ليست بخطرة على ما أظن، لكنها بحاجة للدفء والمسكن والطعام والرعاية.

لم تسأله الفتاة حتى عن عدم سبب ذهابه بـ«رثيفة» لدار الرعاية، فقط نظرت له وقالت:

- حسنًا.

ثم مسحت بيدها برقّة فوق جبين رئيفة التي ابتسمت لـ«شهد»، ثم أغمضت عينيها، تنهد «داغر» ثم قال:

- عليَّ الرحيل، عليَّ العودة وفعل شيء ما.

وأردف في عقله:

- وإلا جميعكم في خطر.

للحظة كاد أن يصيح غضبًا، لماذا أدخل هذا الملاك الرقيق المدعو بـ«شهد» في أخطار «موسى»؟ تحوَّل غضبه لدافع أقوى لإنهاء هذا الكابوس، دارت عينا «شهد» في محجريهما وهي تنظر إليه كأنها تحاول فهم ما يفكر به، ثم ابتسمت ولمست كتفه بيدها قائلة:

- كن حذرًا، لا أعلم ما يحدث، لكنك تبدو خائفًا وغاضبًا، سأنتظرك عندما تعود وتحكي لي كل شيء.

يا إلهي لشدة ما يريد تقبيلها..

هزَّ لها رأسه في صمت ورحل مسرعًا قبل أن يُغير رأيه، ألقى نظرة أخيرة قلقة لـ«رئيفة» وهو يقف على مشارف الباب، لكن «شهد» كانت قد بدأت بالفعل في الإتيان بتفاصيل عنايتها، فوضعت وسادة أسفل رأسها، واختفت قليلًا ثم عادت بزجاجة مياه وعلبة دواء، وانعكس ظلها الجميل على وجه «رئيفة» المتألم، فهمس «داغر» بغضب وهو يغلق الباب من خلفه:

- ستكون نهايتك الليلة يا «موسى».

***

عقاب سيزيف، السيارة تتوقف أمام التلة، «داغر» يعاود صعودها.. تبًّا لـ«كامل» ولنظريات الجذب العقلية، لقد فكَّر «داغر» في عقاب

سيزيف عندما اعتلى تلك التلة للمرة الأولى، والآن أصبح ما يفكر فيه حقًا، أطلق سبة وواصل الصعود.. بسرعة وحذر في الآن ذاته؛ لأنه كان يبحث بأطراف عينيه عن الضباع..

يدخل البيت، ممسكًا بكتاب الأحلام بين يديه، يجلس على الأريكة المواجهة للمدخل.. وغمغم: «سوف أجد إجابات بداخله أو يصل «موسى» ليجدني في انتظاره، أيهما أقرب»..

ويبدأ بعدها أخيرًا في قراءة مذكرات «رشيدة»، المتعارف عليها باسم كتاب الأحلام..

مذكرات عتيقة تعود لمائة عام..

مكتوبة بحبر قديم، مطابق للحبر فوق التماثيل، من الذي صنع تلك التماثيل؟ لماذا المرايا مغطاة؟ يا لعشوائية تلك الأسئلة التي تطوف بعقله فجأة دون مقدمات.. عاد لقراءة مذكرات «رشيدة»..

وانسابت الكلمات من فوق الأوراق الصفراء إلى عقل «داغر»..

# الفصل السادس

اسمي «رشيدة»، ولمن سيقرأ تلك الصفحات الكابوسية التالية فأنا أقول تلك العبارة التي سأكررها كثيرًا في الأسطر القادمة..

انظر خلفك، وتأكد أنه لا يتنفس في عنقك..

لم تكن الحياة دومًا مخيفة في بيتنا، أنا أتذكر طفولة مشرقة بها ذكريات عدة..

أنا وأخي الصغير «راشد» نلعب بجوار البئر في الحقل الأخضر الممتد والمزدهر رغم نظرات أمي الصارمة وتحذيرها من اللعب بجوار البئر..

«دعيهم يمرحون يا فاتن»..

يقولها أبي ضاحكًا وهو يداعب شاربه بوقار، ثم يجلس ويدخن الغليون وعيناه تطالعان الجريدة..

لم تكن الحياة دومًا مخيفة في بيتنا، لحين لحظة سقوط «راشد» في البئر..

صرخته، تزورني كل ليلة خلال نومي، تغير كل شيء في بيتنا السعيد بعدها..

لقد ولى النور وحلت العتمة.. ابتسامة أبي التي كانت دومًا تبعث على بالأمان قد اختفت..

نظرات أمي يشوبها غضب ولوم؛ لأنها لا تستطيع تحمُّل الحزن الكامن في صدرها لفقدان ابنها..

قبل أن تبتلع البئر العميقة أخي كان أبي متحمسًا للغاية، وسمعته

يقول لأمي بينما المربية تعد لنا الطعام:

- يقولون إن هذا الاختراع الجديد سيدخل مصر يا «فاتن»، القضبان الحديدية، هل تتخيلين هذا؟ لقد وافق الخديوي ونشروا في الصحف الأجنبية أنه قد وقَّع فرمانًا بذلك أيضًا..

نعم، حياتنا كانت مشرقة قبل أن تأخذ البشر أخي، كان هناك شمس..

ولم يكن هذا الذي لن أذكر اسمه الآن قد أتى إلينا بعدُ.. مجرد ذكر اسمه يجعل معدتي تنقبض..

ينشر السواد داخل روحي.. اسمه يجعل الشمس تغيب والأمطار تنهمر بلا نهاية..

ولمن لم يروا الشمس منكم دعوني أحكي لكم عن تلك الأيام..

أستيقظ صباحًا على نغمات البيانو، فأرى أمي تعزف عليه، والمربية تعد لنا الشطائر..

يعطينا أبي بعدها الدروس.. وهو يحكي لنا عن ترحاله بالخارج لبلاد الفرنجة..

يا لها من ذكريات، كلمات أبي كانت تضيء عقلي، ومعزوفات أمي تثري روحي..

أخي كان يقلد أبي في كل شيء: «سأصبح رحالة وصيادًا مثلك يا أبي، وصانع تماثيل مثل جدي».

يقهقه أبي بصوته العالي الممتلئ بالصدق وهو يحتضن أخي، شمسنا كانت جميلة ورائعة..

لم يكن هناك سواد داخل بيتنا..



CS CamScanner

يمضي المساء وأمي تُعلمني كيفية العزف على البيانو.. بينما أبي يجلس في مكتبته وعيناه تطالعان بعض أوراق العمل، ثم يلتقط مظروفًا ويضعه قبالة عينيه قبل أن يلتقط القلم ويغمره في الحبر ويبدأ بكتابة رسالة لأحد معارفه في العمل، أو ربما أصدقائه..

«عزيزي سليمان باشا

تحية طيبة لمعاليك وبعد..

لقد طالعتُ خطابك الأخير بقلب يطرب، أن ذكرى ترحالنا معًا ستكون دومًا منارة داخل عقل المرء لطالما حيا، لم أرَ رجلًا مثلك بحماس وشغف اكتشاف كل شيء مثلك من قبل، لكن صديقًا لي في إسطنبول راسلني وأكد لي أن هناك عاصفة هوجاء قادمة من الشمال ولسوف تضرب الأبيض المتوسط، يقول إن مدينة كاملة عند «الطلاينة» قد غرقت، لذا توخَّ الحذر في رحلتك البحرية التي تزعم كونها الأخيرة رغم معرفتي بمدى إصرارك، أكتب إليك تلك الكلمات وهناك ابتسامة على وجهي، أما حلمك بقصر وفكرتك بأن تقوم تشييده بعد عودتك من البحر، لتستقر وتتزوج به، فيا لها من فكرة، بإمكاني تخيله قصرًا شامخًا وجميلًا تملؤه المودة والطيبة، قصر سليمان باشا»..

ثم توقف أبي عن الكتابة لبرهة وارتعش القلم في يده قبل أن يواصل الكتابة:

«أتمنى يا صديقي لو تسمح لي برفع الكلفة وتكف...»

يغمغم أبي مفكرًا: فعل «تكف» به صيغة آمرة وغير لائقة..

مزَّق الخطاب وأعاد كتابته وصولًا لـ«قصر شامخ وجميل تملؤه المودة والطيبة»، ثم تابع أبي بذهنه ما أراد أن يكتبه لصديقه: البنك

توقف عن ممارسة السحر الأسود ومحاولة استكشاف الفنون القديمة، وربما يجب أن تبعد عن أرض الغجر كذلك، لم أحب أبدًا نبوءة تلك العرافة عن الجدي لو تتذكر»، لكن أبي قرر عدم التطرق لتلك المسألة وواصل الكتابة: «أما الأمور فتسير بخير ولله الحمد، البيت جميل، والمدخنة تعمل بكفاءة بلا أعطال، صديقك بارع بيده يا سليمان باشا، في انتظار أخبارك دومًا.

المخلص، داوود فكري»

ألمح أمي تعطي مربيتنا الشابة قلادة ذهبية هديةً وتقديرًا لمجهوداتها، وتكاد المربية أن تعانق أمي لسعادتها، وبدلًا من العناق تنحني لها مبتسمة بعينين دامعتين..

أرى أبي يختم الخطاب، ثم أجد «راشد» يدخل ضاحكًا ومربيتنا تعدو خلفه فأنضم إليهم ضاحكة وأشاركهم لعبة الغميضة..

تضع مربيتنا يدها على وجهها وتبدأ العد، نتبادل أنا وأخي نظرة ملهوفة بحثًا عن مكان للاختباء، ثم نجري صوب الخزانة وندخل إليها، هنا لدهشتي أرى تفكيرًا على وجه أخي قبل أن يهمس:

- ستجدنا هنا، سوف أختبئ في البئر.

- «راشد».. أنت..

لكنه لم يسمعني، نداء البئر كان أقوى منا جميعًا، لقد ظللتُ في خزانة الثياب بعينين متسعتين أتابع «راشد» وهو يتسلل من البيت..

يعدو في الحقل..

وشعرت بأن البئر تنتظره بابتسامة واسعة، «تعالَ يا صغيري.. تعالَ»..

وللمرة الأولى في حياتي -لن تكون الأخيرة- انقبض قلبي

برعب، وتلك كانت آخر مرة أرى فيها «راشد»..

لقـد وقف أمام البئـر العميقة، ينظر لعمقها، خُيِّـل إليَّ أنه يتحدث مع أحد بالداخل، ثم بدأ في تسلُّق الحافة...

أبي يشعل غليونه في المكتبة..

«راشد» يعتلي البئر..

أمي تدخل الردهة ويدها فوق صدرها وتقول: أين الطفلان؟

ثمانية.. تسعة..

تواصـل المربية العد وهي تغمض عينيها والقـلادة الذهبية تتدلى فوق عنقها..

«أين الطفلان؟».

تفتح المربية عينيها، وأخرج من الخزانة..

هنا ينضم أبي لأمي والمربية وينظر ثلاثتهم إليَّ..

أرفع يد مرتجفة مشيرةً للحقل، ولما وراء الحقل.. للبئر..

هنا رأيت يدًا تخرج من البئر وتجذب «راشد».. وبكيتُ..

أبي يفهم ببطء، عندما تهتف المربية:

- لقد كنا نلعب الغميضة..

ويعـدو أبي للحقل وهو يصيح باسـم «راشـد»، وأمـي تصرخ في لوعة وهي تنظر للبئر..

أتى الفلاحون من البلدة الصغيرة التي بدأت تتكون أمام التلة التي يستقر عليها بيتنا، وسـاعدوا أبي بعد بحث مُضْنٍ في انتشال جثة أخي الغارقة، تشيح أمي بوجهها مـن النافذة وهي ترى تلك الأثمال المبتلة الصغيرة بين أذرع الرجال الأشـداء، وتصرخ باسم «راشد»، بكاء المربية

التي لاحت نفسها لم يتوقف..

ومرّت الأيام، لم يعد هناك ابتسامات ولا عزف بيانو، ولا لعبة خفيفة والأهم من هذا ضحكة أبي المقهقهة قد اختفت من الأنحاء.

وبعدها بدأ المطر الذي لم يتوقف أبدًا..

وفي ليلة عاصفة وممطرة حملت المربية مقتنياتها ونظرت لأمي في صمت، بينما أبي يجلس بوجوم في مكتبته يحدق في غليون مطفئ، ورحلت المربية..

ما لم تعرفه أمي ولا حتى أبي أني كنت أنسلُّ من فراشي ليلًا، وأختبئ في الخزانة، وأنام بها حتى الغسق؛ لأن نافذة غرفتي تطل على البئر، وفي ليالٍ عدة كنت أرى يد أختي الصغيرة تتعلق بحافته ويظهر بعدها وجهه الميت.. شعره المبلل منسدل على جبينه، وجلده متساقط أبكي في صمت وأذهب لأختبئ في الخزانة.

نعم لقد توارت الشمس عن حياتنا، ولم أكن أعرف السبب بعدُ، لكني فهمتُ عندما قرأت خطاب والدتي التي كتبته دون علم والدي، كانت ليلة أخرى وكنت في طريقي للخزانة عندما رأيت والدتي في المكتبة، مريحة رأسها جوار الأظرُف وقد نامت من الإرهاق، وبجوارها خطاب لم يكتمل بعدُ، تسللت على أطراف أصابعي وسحبت الخطاب بحرص، لو استيقظت أمي لسوف تعاقبني، لكني بحاجة لمعرفة ما كتبته، أشعر وكأنهم يخفون كل شيء عني منذ رحيل "راشد"، وطالعت عيناي الخطاب..

إلى سليمان باشا..

لعلك تسامحني على تلك الجرأة، لكنك صديق زوجي الوحيد،

وربما أنت الوحيد القادر على مساعدتنا، «داوود» يقضي كل ليلة أما

البئر يتحدث مع شيء بداخله، في البدء اعتقدته يتحدث مع روح ابن

فذهبت لأنضم إليه، لكنه نهرني بقسوة، نظرات داوود تغيرت تمام

بعد رحيل «راشد»، سمعته يتحدث مع النيران في المطفأة كذلك، لا

أعلم مع من يتحدث بالضبط؟ لكنه كان يقول: «لقد بدأ الكابوس!».

لم أفهم مقصده، لكن قلبي كاد يتوقف ذعرًا، وهو مكلول بفقدان لابني، أنا الأم الثكلى، ولكن هل تلك أرواح تخاطب زوجي؟ وجدته في أمسية يكتب لساعات في مكتبته، ثم خرج بعدها للحقل وجثا أمام البئر كعادته وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة ثم نظر للسماء.. هنا قمت أنا بشيء قد تراه ليس من واجبي، لكني ذهبت لقراءة ما كتب، هذا ليس بفضول يا سليمان باشا بل محاولة أمٍّ خائفة من أن تفهم، وليتني ما قرأت.. عشرات الأوراق متناثرة هنا وهناك، وقد استقرت عليهم نفس الكلمة، لقد جلس زوجي لساعات يعيد كتابة نفس الكلمة.. «موسى».. «موسى».. «موسى».

هنا أجفلت عندما سمعت صوته من خلفي وأنا أقف في المكتبة، لقد عاد من عند البئر، يقف بعينين زائغتين كأن هناك آخر بداخله، وقال «داوود»:

- «موسى» أتى من البئر، بعدما أخذ «راشد»..

ثم أشار بيده في إرهاق وفهمت أنه يشير للبلدة، وأضاف:

- «موسى» هو أيضًا المسئول عمن يختفون من تلك البلدة..

كنت أسمع دقات قلبي وهي تدوي، ناظرة إليه بعدم فهم، ثم قلت:

- من هو «موسى»؟ هل هو شيطان يا «داوود»؟

وأشرت للأرض، للعالم السفلي الذي يقود إليه البئر وأردفت بذعر:



CS CamScanner

- هل هو مسخ قادم من جهنم؟

لم يرد زوجي، نظر لإبهامي المشير للأرض والتفت صوب البئر، ثم رفع رأسه ناظرًا للسماء من النافذة وقال بوهن:

- لم تعد هناك نجوم.

لم أفهم ما يرمي إليه، وكان آخر شيء قاله «داوود» يا سليمان باشا:

- هذا لم يعد بيتنا، وتلك لم تعد حياتنا، هذا هو بيت «موسى» الآن..

يا سليمان باشا، لا أعلم متى يصلك هذا الخطاب، ربما بعد أشهر، لكن صديق عمرك بحاجة لمساعدتك.

المخلصة، زوجة داوود باشا

أعدتُ الخطاب بحرص بجوار رأس أمي، ثم سمعت صوت خطوات أبي تقترب، فهرعت للاختباء داخل الخزانة وأوصدت بابها من خلفي، واسترقتُ النظر بعينين متسعتين، رأيتُ أبي يدخل ملطخًا بالطين ومبللًا بالأمطار، يداه سوداوان من فرط استناده فوق التربة وهو يتحدث مع البئر، يسير بعينين سوداوين وينظر لأمي الغافلة في المكتبة ثم يلتقط الخطاب، شهقتُ ووضعت يدي على فمي، رفع أبي رأسه كأنه سمع الشهقة.. هل سيراني؟ عاد لمطالعة الخطاب، ليت قلبي يكف عن الدق فلا يسمعني، هنا رمى أبي الخطاب جانبًا وجذب أمي من كتفها وهو يصيح بشيء ما بغضب ووجه مكفهر، لم أرَ وجه أبي هكذا أبدًا من قبل، هذا ليس نفس الوجه الباسم ذا الضحكة العالية، يا لاحمرار وجهه والغضب في عينيه، تتراجع أمي للخلف باكية وأبي يواصل الصياح..

ثم ظهر «موسى» خلف أمي..

ظهر فجأة.. وهو يطقطق بلسانه بصوت عالٍ..

طاك طاك طاك طاك طاك طاك..

وأمسك «موسى» بأصابعه الطويلة شعر أمي وجذبها للخلف أمام عيني أبي الملتاعتين، وصرخت أمي في رعب عندما انجذبت للخلف وكاد وجهها أن يلامس وجه «موسى».. «اتركها» صاح أبي بالعبارة، ثم سقط أرضًا وكرر في توسُّل باكٍ: «اتركها».

لم يعد أبي ذا قوة ولا شأن حتى في بيته الخاص، كنت أبكي وأمنع نفسي من الصراخ داخل الخزانة، وجرَّ «موسى» والدتي أرضًا من شعرها صوب المدفأة، تصرخ أمي.. عيناها ترمقان النيران المشتعلة.. تحاول التملُّص.. تتوسل.. تبكي.. «موسى» يطقطق بلسانه، ثم يقبض على جانبي رأس أمي بيده، تفتح الأخيرة فمها في صرخة هائلة ورعب هائل يجتاح وجهها، ويدفع «موسى» برأس أمي داخل المدفأة ثم يثبت جسدها من ظهرها كي لا تتحرك ولا تهب، ينتفض جسد أمي، أسمع صرختها الملتحمة بالنيران التي تأكل لحم وجهها، وأشم رائحة تفحم شعرها، يستمر الوضع الجهنمي للكثير من الوقت، ثم يتراجع «موسى» للخلف، سامحًا لجسد أمي بالحركة، فتهب هي واقفة والنيران تلتهم وجهها، تعدو بجنون في كل صوب، وأبي ينظر إليها باكيًا وغير مصدق، يبدو وكأنها ترقص من الألم برأس مشتعل بالنيران، أهمس باكية: الأمطار، اخرجي للأمطار..

لكنها لم تسمعني، وسقطت ميتة في النهاية، وقد خبت النيران من رأسها بعدما أدَّت عملها..

كان «موسى» يرقص في طرب على أطراف أصابعه وأمي تتلوى ألمًا، ثم كف عن الحركة ونظر لأبي بعينين مخيفتين، ومد أصبعه الطويل لوجه أبي، ثم أشار للخارج..

وقف أبي وسار بصمت خارجًا من البيت، وتحرَّك موسى، يا إلهي كان يتحرك كالزواحف، بسرعة خاطفة، وجدته يقف أمام النافذة يتابع أبي بعينيه، أبي الذي توقف أمام البئر، ثم قفز داخله..

عضضتُ لساني حتى أدميته لأمنع الصرخة المحبوسة بداخلي، ورأيت «موسى» يستدير صوب الخزانة، فتراجعتُ للخلف متمنيةً أن يبتلعني الظلام وأغمضت عينيَّ كأنه لن يراني بتلك الطريقة..

أشعر بحركة، باب الخزانة ينفتح، أنفاس كريهة على وجهه، ساظل مغمضة العينين؛ لن أفتحهما أبدًا..

ثم سمعت الصوت.. طاك طاك طاك.. وفتحت عينيَّ، وصرخت بعدها..

***

لا أعلم كيف لكني عدوتُ، لقد جريتُ كما لم أجرِ من قبلُ في حياتي..

وجدتني خارج البيت، أعشاب الحقل أمامي، البئر بجواري، واصلت الجري، لن أنظر خلفي..

أسقط فوق التلة، يدي تتهشم تمامًا وتلتوي، أواصل السقوط، أقف باكية وأصرخ ممسكة بيدي وأجري صوب البلدة، تزأر العاصفة، ألتفت للخلف، وأنظر لما كان بيتي مرة أخرى، رابضًا فوق التلة، لثوانٍ شعرت بأني أرى أبي وأمي و«راشد»، جثثًا تقف أعلى التلة أمام البيت، يمدون أيديهم إليَّ، ويفتحون أفواههم لتخرج منها شهقة طويلة ومريرة، ومن خلفهم يقف «موسى».. بكيت، سقطت، ثم شعرت بذراع يلتقطني وأحد يهمس:

- لنهرب من هنا..

كانت تلك هي مربيتنا، التي قالت لي فيما بعدُ إنها شعرت بأن شيئًا ما سيحدث في البيت، ولذا فرَّت، لكنها لم تستطع تركي أنا وأمي، ولذا عادت من أجلنا..

عشتُ بعدها في البلدة، مع المربية، ثم ألحقتني بمدرسة داخلية، احتضنتها باكية وأنا أهتف:

- لا تتركيني.

- سأكون دومًا موجودة من أجلك، لكن هذا ما كان والداك ليريدانه لك، حياة الفقراء الخاصة بي لا تناسبك يا أميرتي..

وآخر مرة رأيتُ فيها مربيتي، كانت من خلف سياج المدرسة، أودِّعها بيدي، ورأيت سيدتين تقفان خلف المربية، ترتديان اليشمك على وجهيهما، ومعهما رجلان ينتظران في حنطور، قالت لي المربية إنها تعرفت عليهم مؤخرًا وهم بحاجة لمربية لابنتهم، إحداهما تدعى ريا والأخرى سكينة، ولمحت أقواهما شخصيةً تقف بجوار المربية وتنظر للقلادة الذهبية المستقرة على صدرها، القلادة التي أهدتها إياها أمي، وقالت ريا: هيا بنا يا بنية..

ولوهلة خُيِّل إليَّ أن سكينة تمتم بكلمات أغنية ما.. شيء على غرار «حسرة عليها يا حسرة عليها».

لم أفهم بالضبط معنى الأغنية، وشعرت بأني أفتقد مربيتي بشدة، وهي تركب الحنطور مع ريا وسكينة..

وتذكرت كلماتها:

- سترينني مجددًا..

لكني لم أرَها بعد ذلك، ولم أرَ أبي وأمي و«راشد» سوى في أحلامي..

ظللت مهووسة بما حدث في طفولتي طيلة عمري، ولم أنس أبدًا تلك الأحداث الشيطانية التي وقعت في بيتنا..

بحثت واستقصيت، وسمعت الأقاويل هنا وهناك..

القوم تحدثوا عن اختفاء أهل البلدة ليلًا..

أول حالة اختفاء كانت أخي في البئر، هل «موسى» غول؟ مسخ قديم قادم من تحت الأرض، هل أتى «موسى» من البئر؟ لماذا يفعل كل ما يفعله؟ بالمناسبة تكاثرت الضباع بشدة في البلدة.. وأنا أعلم أن لـ«موسى» علاقة بهذا.. هذا المسخ الذي ظهر في حياتي وأظلم كل شيء من بعده..

لمن يقرأ تلك المذكرات، كل ما يمكنني قوله أني ما زلت أختبئ في الخزانة كل ليلة، أنام بها رغم كبر سني؛ خوفًا من قدوم «موسى»، ربما يومًا ما ينتهي شره والغيوم التي قد حلت علينا بسببه..

فقط انظر خلفك بعدما تنتهي من قراءة تلك المذكرات، وتأكد من أنه لا يتنفس في عنقك...

رشيدة ابنة داوود باشا، من أجل فاتن هانم وراشد داوود، ستظلون دومًا في قلبي.

•••

في نهاية المذكرات استقر رسم طفولي لعائلة سعيدة تقف في حقل جميل أمام بيت من طابقين به مدخنة، وبقليل من التدقيق يمكن رؤية كيان ذي عينين حمراوين ووجه مريع يزحف خارجًا من البئر القابع بالحقل.

# الفصل السابع

فـور أن وضـع «داغر» المذكـرات جانبًا نظر خلفـه؛ ليتأكد من أن «موسـى» لا يهـم بعضّ رقبته، ثم أطلق سـبة وأشـعل لفافـة تبغ، نفث دخانها بقوة وهو يتمتم: «حسنًا لنرتب أفكارنا يا صاحِ..

هناك مذكرات لسيدة عاشـت في هذا البيت منـذ مائة عام، وهي تصف نفس الجرائم التي تقع الآن، ونفس الفاعل، «موسى»..

حسـب وصف «كامل» و«رشيدة» والقبطان لـ«موسى»، فهو شيء ما.. هل هو مسخ؟ هل المسـوخ حقيقيـة؟ غول قديم خـرج من البئر قادمًا من سـقر وعالم الأبالسة أسفل الأرض، ولهذا لم يتغير حاله منذ قـرن من الزمـان، هل المسـوخ لا تتقدم فـي العمر؟ هل هو شيطان؟ عزازيل نفسه؟ تخيَّل «داغر» التمثال بالأعلى يتحرك ليعلن عن حقيقته وأطلق سـبة أخرى، لقد رأى الأهوال في الحرب، دماء وأشـلاء وقتل وجنـون، هـذا هو الرعب بالنسـبة له، اذهـب وتحدث مع جنـدي فَقَدَ سـاقه في خندق وسـط الصحراء عن كيان قديم قادم من بئر ولسـوف يضحـك ملء شـدقيه، تنهَّـد «داغر»، الرعـب هو ما حـدث لـ«جيهان» و«محمـود».. ثلاثتهم يسيرون فوق الرصيف، تلـك المقطورة اللعينة تقترب منهم، «جيهان» تنظر له وهما يتناقشـان بحدة بخصوص شيء ما، المخدر يعمل العجائب داخل عقل سـائق المقطورة الذي يزيد من سرعتها بعينين غائبتين، يقاطع «داغر» «جيهان» إبان نقاشهما ويهمس: «أحبك»..

تجفـل هـي قليـلًا ويضحـك «محمـود»، ثـم تبـدأ الابتسـامة في

الارتسام على وجهها..

لم يعد هناك «جيهان» ولا «محمود».. لقد احتضنتهما المقطورة قبل أن تهشم المقهى من خلفهما..

مارد عملاق اقتحم الرصيف الآمن ليحوِّل زوجته وابنه لكتلة من العجين والعظام أمام عينيه..

يغمض «داغر» عينيه ويبتلع أربعة أقراص من الدواء، لقد تلف جزء من عقله بعد تلك الحادثة وهو يعرف هذا جيدًا..

لكن ملمس تلك المذكرات حقيقي، والسيدة العجوز النائمة نومها الأبدي بجواره على الأريكة..

«كامل» أيضًا حقيقي، يواصل «داغر» ترتيب أفكاره..

هل هناك شخص مجنون قرأ تلك المذكرات، وقرر انتحال شخصية «موسى» التي وصفتها «رشيدة» في المذكرات ليعيد الكرَّة من جديد؟

لماذا؟

قرر «داغر» تأجيل سؤال لماذا للنهاية؛ لأنه في الأغلب سيظل بلا جواب في تلك اللحظة..

واصل التحليل..

هل «رشيدة» مخبولة؟ وما حدث أن أخاها سقط في البئر مما أطار صواب أبيها ولام زوجته قبل أن يضع رأس والدتها في المدفأة ثم قفز في البئر بدوره؟

فقدان الطفل أمر لا يمكن التعافي منه و«داغر» يعرف هذا جيدًا، ولعل «رشيدة» تخيلت المسخ القادم من البئر؛ لأن منطق أن هناك

وحشًا ما قتل أخاها وأمها وأباها أفضل من منطق أن أسرتها قد دُمرت داخليًا بسبب حادثة ومرض نفسي، لاحظ أن مدام «فاتن» في خطابها لصديق زوجها كانت توعز بحقيقة أن زوجها يتحدث مع نفسه لأمر الحديث مع الأرواح؛ لأن في هذا العصر لم يكن هناك مفاهيم مثل النفس البشرية والهلاوس والمرض النفسي، مط «داغر» شفتيه مفكرًا، «داوود» فقد ابنه وتحدث مع البئر مثل «داغر» نفسه، «كف عن المقارنة بحالك وركز».. وواصل «داغر» الاسترسال بأفكاره..

إذن المرض النفسي فتك بعائلة «رشيدة» الطفلة التي قررت أن هناك غولًا قادمًا من البئر فتك بعائلتها..

ومبدأ طاقة الجذب الذي تحدث عنه «كامل»، فلقد انجذب عقل آخر مجنون لتلك المذكرات وقرأها، وقرر أن يصبح «موسى»، فبدأ في اختطاف الأهالي وقتل كل من يقترب من الحقيقة..

ما الذي يفعله بهم بعد اختطافهم؟

انقبض قلبه وهو يعيد رؤية مشهد الفتاة «حسناء» بالأعلى والعشب خارج من فمها وعينيها، سيدفنها بالخارج؛ إكرامًا لها، لكنه لن يفعل هذا في التو واللحظة، يريد أن يكون مستعدًا ويقظًا للحظة عودة موسى..

وهنا يأتي دور «كامل»، بافتراض أنه يمتلك حاسة سادسة، فهو قد رأى «موسى» الجديد، «موسى» هذا العصر، يختطف زوج «سيلين» الحامل، وأراد عمل جلسة تحضير أرواح لكي تدلهم روح «رشيدة» على...

كلا كلا.. هزَّ «داغر» رأسه بعنف وهتف: تفسير غير منطقي..



CamScanner

ثم لاح التفسير المنطقي داخل عقله ببطء، نعم، «كامل» هو العقل المضطرب الذي وجد المذكرات وقرأها وأصبح «موسى» جديدًا..

«لا يا أماااه أرجوووكِ».. يتذكر «داغر» نوبة الانهيار والجنون التي أصابت «كامل»، كيف نجا من الأساس من جلسة تحضير الأرواح التي يزعم أنه بدأها؟

«كامل».. يقرأ المذكرات.. يصبح هو «موسى».. ولأن «موسى» الذي نشأ من خيال طفلة اسمها «رشيدة» ينشر الرعب من حوله، طاقة رعب رهيبة وسواد عظيم، فلقد أراد «كامل» فعل المثل، واختطف زوج «سيلين»، ثم أقنع الأخيرة بأنه يعرف مكانه، قوة «موسى» كلها تعتمد على الإيمان بالخوارق، ولذا كان مهمًا أن يقتنع القبطان و«سيلين» و«كاميليا»، لا بد أن «كامل» قد استمتع كثيرًا وهو يمثل أمامهم صوت «رشيدة» ويحذرهم من «موسى»، وعقله المريض يدلي لهم بكل تلك التفاصيل المخيفة التي قرأها هو فيما سبق، لا بد أن حماسة رهيبة قد انتابته، ويقتل بعدها «سيلين» و«كاميليا»، لكن القبطان يهرب فيتبعه «كامل»، يراه يتحدث معي أنا «داغر»، نعم، يتبعني بعدها ويراني أتحدث مع «حسناء» في الحانة فيقتلها كذلك؛ لأن وفقًا لعقله المريض يجب إنهاء حياة كل من يسمع بلعنة «موسى»، يا له من وغد مريض..

يقبض «داغر» يديه بعنف وعقله يواصل التفكير، بلا صداع ولا ألم، الرؤية واضحة الآن.. «كامل» هو من وجدني، مثلما وجد «سيلين» و«كاميليا» والقبطان و«حسناء» ومذكرات «رشيدة».. وتلك العجوز المسكينة، «رئيفة»، يتذكر «داغر» تعبير وجهها المتألم، ويهمس: «أقسم لك يا سيدتي، يا جدة الأجداد، أني سوف أنتقم لك»..

نعم، هذا هو التفسير المنطقي الوحيد، الضبع كان مجرد مصادفة،

وفي الأغلب لو كان دخل الاثنان البيت لكان «كامل» قد أعلن من حقيقته..

«موسى»، يتغذى على الخوف.. يقتل ويختطف.. «كامل» «موسى»..

يعصف الجنون برأس «داغر»، يرى وجه «كامل» في كل صوب..

«نحن صديقان»..

الوغد يقولها وهو يمد يده صوب «داغر»..

يرى وجه «كامل»، هو سائق الشاحنة التي سحقت جسد زوجته وابنه..

يصرخ «داغر» غضبًا..ثم يسمع الصوت القادم من خلف باب البيت..

«ماما دعيني أدخل».

يجفل «داغر» ويتراجع للخلف مبهوتًا، هناك طفل خارج البيت، يقف وسط الضباب، البئر يستقر من خلفه.. الضباب يخفي ملامح وجه الطفل..

«ماما دعيني أدخل»

«أنا أشعر بالبرد»

يهمس «داغر» والرعب يدق في صدره:

- أوهام، مجرد هلاوس.

يأتيه صوت عابث من عقله:

- لكنك لا تهلوس سوى بالشخصيات التاريخية المعروفة.

- إليك عني، إنها مجرد أوهام.

«أنا أشعر بالبرد، دعني أدخل.. يا والدي».



CamScanner

يخفق قلب «داغر»، ويتمتم كالمسحور:

- «محمود».

صوت آخر في عقله:

- أنت رسمتَ هذا المشهد بالضبط في سيارتك، كُفّ عن تهورك، هذا هو «موسى»، هو يعرف مخاوفك ويعبث بعقلك..

لكن «داغر» يتمتم بلهفة:

- «محمود».

«دعني أدخل يا أبي».

يندفع «داغر» للباب ويفتحه بقوة، أمامه يقف «موسى».. فارع القامة لحد مذهل، طاك طاك طاك، يطقطق بعلو صوته، ويمتد أصبع طويل صوب عين «داغر» المتسعة..

يصرخ «داغر»، ثم يغيب عن الوعي.

***

دوامة..

دوامة هائلة تبتلعه..

هو يسقط بها ملوحًا بيديه وذراعيه..

الضباع تضحك..

ويتزايد ضحكها..

يسقط «داغر» في قلب الدوامة...

وهناك نجوم عاتية من حوله في كل صوب..

دوامة من النجوم الساطعة في كل صوب.. وسط الفضاء الفسيح، العميق، والمظلم..

@ART_OF_BOOK



CamScanner

يرى وجه «كامل» ويقول له: «لقد خذلتني، شككتَ بصديقك».

يواصل «داغر» السقوط..

«جيهان» تهمس له بلوم: «كل من حولك يموتون».

يرى «حسناء» تصرخ..

«محمود» يرفع يديه إليه كي يحمله بين ذراعيه..

يحاول «داغر» مد يديه لـ«محمود»، لكنه يواصل السقوط..

«كلا.. كلا!!!!».

يخرج الصوت من أفكاره دون أن يفتح فمه..

***

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف»

***

يقترب «داغر» من الهاوية..

يفتح «داغر» عينيه..

- مرحبًا بك يا أستاذ «داغر»، مرحبًا بك أخيرًا، لقد عدتَ للواقع وانتهت نوبة الهلاوس..

ببطء يستوعب «داغر» محيطاته، هو داخل زنزانة ما، كلا، ليست زنزانة بل غرفة عنبر، الجدران من القطن، لماذا الجدران من القطن؟ كي لا يضرب رأسه بها طبعًا، أليس هكذا يشيدون غرف المصحات النفسية؟ الغرفة ضيقة وكئيبة، بابها مفتوح ويسد فراغه اثنان من الممرضين، واحدة منهم ممتلئة الجسد تمتلك جسدًا قويًا وعنقًا غليظًا، وعينين شديدتي الصرامة، هذا كل ما رآه «داغر»؛ لأن الظلال تحجب وجهها تمامًا، والظلال كذلك حجبت وجه الممرض عريض

المنكبين الواقف بجوارها، عاقدًا ساعديه على صدره، وأمام «داغر» جلس شخص يرتدي معطفًا طبيًا فوق مقعد أنيق، الظلال -طبعًا- تغطي وجهه، لكن بإمكانك تمييز أصابعه الطويلة، وجسده النحيف، وحقيقة أن المقعد لم يحتوِهِ كله بسبب طول قامته..

بإرهاق نقل «داغر» ناظريه بينهم، بينما استطرد الرجل الجالس في الظلال:

- أنا منبهر حقًا بخيالاتك يا أستاذ «داغر»، لقد بنيتَ عالمًا كاملًا، لكن كما ترى الواقع دومًا يختلف.

لم تخْفَ السخرية في صوت الرجل على أذني «داغر»، كان الوغد يشير للممرضة وأردف:

- في خيالاتك أنتَ وصفت لنا كيف أن كل الفتيات جميلات والممرضات كذلك كما نراهم في وعينا الجمعي، ملاك رحمة رشيق وذو جمال بارع..

لم يعلق «داغر»، ظل صامتًا وأردف الرجل:

- تلك كانت جلسة علاجك الأخيرة قبل تقييم هل أنت مؤهل للخروج من هنا أم لا، وللأسف يا أستاذ «داغر» أنت بحاجة لقضاء القليل من الوقت الإضافي معنا لتميز ما هو الواقع..

عقد «داغر» حاجبيه وظل صامتًا..

خرج الرجل بوجهه من الظلال، كان في أواخر العِقْد الرابع من العمر، وجهه شاحب وطويل، عيناه سوداوان، شعره أسود مصفف للخلف، قال الرجل وهو يمد يده مصافحًا لـ«داغر»:

- أنت تتذكرني أليس كذلك؟ أنا د.«موسى».. الطبيب المسئول عنك..



CamScanner

الصمت، ولا شيء سوى الصمت.. لم ينطق «داغر» بحرف.

تنهد د.«موسى»، ثم أردف:

- أستاذ «داغر»، أنت قضيتَ أعوامًا هنا معنا في حالة صمت تامة، لم تنطق بحرف، أصابتك حالة غريبة من الكتاتونيا، أنت تأكل وتشرب وتنام لكنك لا تتحدث أبدًا، رغم أنك قبل إيداعك معنا كنت مشهورًا بين معارفك بأنك شخص تتحدث كثيرًا جدًا، ولكن بعد رحيل زوجتك و...

رفع «داغر» رأسه فأومأ د.«موسى» مبتسمًا بلطف وقال:

- نعم يا أستاذ «داغر»، لقد قمنا بصفقة أحاول إقناعك بها منذ عام كامل، سوف تتحدث أنت وتخبرني أين تعيش داخل عقلك بعدما انزويتَ عن واقعنا ورفضته، ولسوف أعيدك أنا لواقعنا بإخبارك الحقيقة، وهي كالآتي: زوجتك وابنك حيّان يُرزقان، لم تكن هناك مقطورة ولا حادثة ولا سائق متهور يتعاطى المخدر -مرة أخرى كما اعتدنا في وعينا الجمعي- والحقيقة أن مدام «جيهان» قد رحلت يا أستاذ «داغر»، أخذت «محمود» الصغير ورحلت.

ثم هز د.«موسى» كتفيه وقال:

- أنا أيضًا مررت بطلاق وأعرف مدى صعوبة الأمر، تحيا مع شخص ويقترب كلاكما من الآخر كما لم يقترب أحد من قبل، روحان تلتحمان بذكريات لا حصر لها وأحلام وتطلعات لمستقبل جميل، لكن للواقع أنياب شرسة يا أستاذ «داغر»، والخلافات جعلت مدام «جيهان» تطلب الطلاق، وعشت أنت وحدك بعدها، وببطء تدريجي بدأت الوحدة تبث سمومها في حياتك، لم يعد هناك زوجة ولا طفل، هما بعيدان عنك في مدينة أخرى، الوظيفة التي كنت تحبها وهي دراسة

التاريخ فقدتَها بسبب تعاطيك لتلك المهدئات، ليتك لم تذهب لطبيب المخ والأعصاب هذا الذي أوصى لك بتلك المهدئات ومضادات الاكتئاب، لكن هذا هو واقع ما حدث يا أستاذ «داغر»، لقد احتضنتك الوحدة، ولأعوام عشتَ وحيدًا تتحدث مع نفسك، ثم بدأتَ تمارس تلك العادة في المواصلات العامة وأمام الناس، جيرانك أصابهم القلق وكذلك أهلك، وفي النهاية تم إيداعك هنا بموافقتهم.

لكن حالتك تفاقمت، أنتَ رفضتَ الواقع تمامًا وصرت تحيا داخل عقلك، في مدينة لا تشرق بها الشمس، ولا تكف بها الأمطار عن الانهمار، مدينة بها عاصفة وموسم طقس واحد لا يتغير وسماء بلا نجوم، عقلك أراد إيجاد تبرير لحديثك المستمر مع نفسك فجعلك تقابل كل تلك الشخصيات التاريخية التي كان محور عملك هو معرفة أسرارهم؛ مثل شجرة الدر، وقاسم أمين... وغيرهما، ألم تلاحظ أن الأزمنة مختلطة داخل تلك المدينة التي تحيا بها؟ في أي زمن نحن يا أستاذ «داغر»؟ الحانة التي وصفتَها لي، حيث السيدات التي يرتدين الشمك والجنود الإنجليز تعود لحقبة الأربعينيات، وتخرج أنت لتجد عرضًا أول لفيلم شمس الزناتي، هذا يعني أنك في التسعينيات إذن؟ ولكن كيف وذكرياتك التي خلقتها لنفسك تقول إن حرب أكتوبر كانت منذ عشرة أعوام؟ أنت تنتقل بعقلك منذ الخمسينيات للتسعينيات وتحيا كثيرًا في الثمانينيات..

لا يوجد بيت ذو مدخنة فوق تلة، هذا البيت موجود في ألف ليلة وليلة فحسب يا أستاذ «داغر»، أنت تمتلك عقلًا شديد القوة، وكلما حاولت أنا إيضاح الواقع كان يحاربني، ويخلق شخصيات جديدة مثل «كامل» العراف والقبطان الذي أصبح مجذوبًا، وطبعًا في عقلك

أصبحتُ أنا الشرير، العدو الرهيب، «موسى»، الذي يحاول تدمير تلك المدينة وقتل واختطاف كل تلك الشخصيات التي خلقها عقلك. حديث «كامل» معك عن قانون الجذب وقوة العقل البشري وكيف أننا نصبح ما نفكر به كان به إيضاح من عقلك لوجهة النظر الخطرة التي يتبناها يا أستاذ «داغر»، الواقع حولنا في كل صوب، وعلينا التعايش معه دون محاولة خلق واقع بديل أو الهروب منه..

انتهى د. «موسى» من الحديث، وعاد بظهره للخلف ليختفي وجهه وسط الظلال..

ظل «داغر» صامتًا، بتعبير وجه واجم..

تنهد د. «موسى» واستدار بوجهه للممرض ذي الذراع المفتول بالعضلات وغمغم بشيء ما لينحني الممرض ويسمع ما يقوله الطبيب..

تابعهما «داغر» بعينيه..

هنا التفت د. «موسى» لـ«داغر» وقال:

- من فضلك يا أستاذ «داغر»، عُدْ للواقع، تحدث وقل أي شيء، لا نريد الذهاب للحل الأخير لعلاجك.

صمت، كل الصمت، ولا شيء سوى الصمت..

- حسنًا.

قالها د. «موسى» وأشار للممرضين اللذين سارا صوب «داغر» وحملاه من إبطيه، بينما «موسى» يردف: أتمنى أن العلاج بالصدمة الكهربائية سوف يشفيك من تلك الهلاوس..

***

صدمة كهربائية..

صدمة كهربائية..

كانا يحملان «داغر» من أسفل ذراعيه ويجرانه بينما قدماه تزحفان على الأرض صوب غرفة جراحة في نهاية الممر الذي تترامى العنابر حوله من كل جانب.. يطل مريض نفسي بوجهه من داخل أحد العنابر ويرى «داغر»، وعاء فارغ من الشخصية، جسد بشري بلا طاقة يتم جره، يعود المريض برأسه للخلف، بينما يحمل الممرض جسد «داغر» ويرقده فوق المحفة.. يشوب المصحة قليل من الهرج والمرج، بعض المرضى يحاولون الإطلال برؤوسهم وقال أحدهم: ك.. ك.. كهرباء.

وتسللت الكلمة كالنار في الهشيم، فكرر باقي المرضى: كهرباء كهرباء..

كأنها أغنية تتردد عبر أنحاء المصحة، هنا خرج د.«موسى» وسار في الممر، فتراجع المرضى للخلف، وساد الصمت التام..

أغلقت الممرضة باب غرفة الجراحة بعد دخول د.«موسى»، في حين كان الممرض الآخر يحلق شعر رأس «داغر» بعدما انتهى من تقييد ذراعيه وقدميه بالأصفاد الجلدية فوق المحفة، ووضع قابسًا جلديًا ضخمًا في فم «داغر»، وقال د.«موسى» لـ«داغر»:

- هذا كي لا تقضم لسانك خلال جلسة الكهرباء..

لم يرد «داغر»..

الظلال لا تزال تغطي وجوه الممرضين، وقالت الممرضة بصوت باسم به قليل من الوحشية:

- أنت لم تكن في حرب أكتوبر.

في نفس اللحظة رفع الممرض الذراع الحديدية بعدما ثبت

الأقطاب فوق جبين «داغر»، وسرت موجة الكهرباء الأولى في رأس «داغر» الذي انتفض في صمت وجحظت عيناه..

ومض العالم ورأى وجه «جيهان»..

ألم رهيب..

الكهرباء تسري، صوت المحرك المعدني يصدر طقة كلما سرت الكهرباء.

طاك!

وجه «محمود»

طاك!

الألم يتزايد..

تميل الممرضة صوب «داغر» وتضيف:

- نحن في عام ٤٢٠٢.

يحرك الممرض الذراع الآلية..

موجة أخرى من الكهرباء تخترق عقل «داغر»..

يسيل الزبد من فمه وهو ينتفض، عيناه تكادان تقفزان من محجريهما..

الحانة.. الأغنية.. المذياع.. الطربوش

طاك!

«رئيفة»، الجدة العجوز الحنون

طاك!

تسيل الدماء من أنف «داغر» والممرضة تهمس في أذنه:

- عُد لواقعنا..

ثم تضحك عندما ترى الدموع تنساب من عيني «داغر»..

يهز د. «موسى» رأسه للممرض الذي يزيد من دفعة الكهرباء..

طاك! طاك! طاك!

ينتفض جسد «داغر» بلا توقف، دموعه تنهمر..

صوت د. «موسى» يقول:

- أعرف أنك لا تريد هذا الواقع، ولا هذا العالم، أنت تريد حياة في المدينة، حيثما تشعر بأن هناك منطقًا في حياتك، تبحث عن باب الأحلام وتحارب «موسى» الشرير وتحاول إنقاذ ضحاياه والثأر لشيطان العجوز والفتاة «حسناء» ذات الشمك.. لكننا لا نستطيع أن نتركك تخلق واقعًا بديلًا وتحيا به، يجب أن تكون مثلنا وتتقبل هذا الواقع، زوجتك تركتك بمحض إرادتها وأخذت ابنك وأنت لست بطل حرب سابقًا..

طاك!

دفعة كهرباء أخرى، شهد.. شهد.. شهد.. هي حقيقية يا ملاعين.. حقيقية، ثم تظلم الدنيا من حول «داغر»..

***

- استيقظ.. استيقظ.

تردد الصوت وكأنه قادم من الأثير، لكن «داغر» لم يكن قادرًا على فتح عينيه، كأن أحدهم قد خاطهما، هناك قدر هائل من المجهود الذي سيتم بذله لكي يفتح تلكما العينين، يد صغيرة تهز كتفيه وصوت فتاة تهمس:

- استيقظ.

لن يستيقظ، سيظل راقدًا مغمض العينين.. نائمًا حتى الموت،



CamScanner

لن يستيقظ ليجد وجه هذا الطبيب التعس، ما كان اسمه؟ د. موسى
وهؤلاء الممرضون الذين يستمتعون بتعذيبه.. ليت خياله يعود، ليت
الهلاوس تعود، أيًا ما كانت القوى بداخله التي كانت تجعله قادرًا على
مجابهة هذا الواقع فقد ولَّت، لقد سحقتها الكهرباء..

- استيقظ أرجوك.. نحن بحاجة إليك.

يظل «داغر» مغمض العينين..

- لا شيء كما يبدو عليه أبدًا..

انسابت العبارة لعقل «داغر» مرة أخرى.. هل الهلاوس تعاود
الكهرباء لم تنتصر بعدُ..

ببطء فتح عينيه وأطلق آهة ألم، شعر بطعم غريب في فمه والرؤ
تأتيه بألم بطيء، ألم حارق في معدته، أخرج لسانه فوجده أز
اللون، يداه ترتعشان، أدرك فجأة أنه شديد الهزال والنحافة، غير
حتى على رفع رأسه..

- استيقظ أيها الأحمق ستعود الممرضة في أي لحظة وأنا
انسللتُ لغرفتك بعد أشهر من التخطيط، ولسوف يصعقونني بالكهر
لو وجدوني معك.

حاول «داغر» إبقاء جفنيه مفتوحين، رغم ألم الرؤية الزائغة، يث
وكأن رأسه ليس حقًا رأسه.. شعور غريب وممضّ في منتصف رأ
كأن بها قطيعًا من النمل، أراد أن يحك رأسه في جنون..

- تمالك نفسك بالله عليك.

نظر لصاحبة الصوت، فتاة نحيفة ابنة عشرين عامًا، ذات شعر
أسود وترتدي مثله زي المرضى، عيناها تتلفتان حولها في رعب
وهمست الفتاة:

- اسمي هو «آيتن».. وأهلي ليسوا أهلي حقًا.

***

زوجتي لم تعد زوجتي.

***

كيف أعرف إن كنت بشريًا أم تقليدًا.

***

نظر لها «داغر» بوجه واجم، أردفت الفتاة بعجالة، كانت لها طريقة في الحديث تُشعرك وكأن العالم سينتهي فورًا لو لم تسمعها:

- لقد كنت أقف أمام المرآة ثم نمتُ، واستيقظت لأجد نفسي في بيت غريب مع أناس ليسوا بأهلي، لكنهم يتصرفون كأنهم أهلي، هربتُ منهم لأجد نفسي في مدينة أخرى بها أمطار لا تتوقف.. ظللتُ أصرخ، ثم سمعت طوت طقطقة ثعبان فأغشي عليَّ، وعندما استيقظتُ وجدتُ نفسي هنا داخل هذا المكان.. د.«موسى» يقول لي إنني أعاني من عقدة الاضطهاد، ولذا أرفض تصديق أنهم أهلي.

ثم فعلت الفتاة شيئًا جعل «داغر» ينتبه، لقد ضربت صدرها بيدها وأكملت:

- لكني أثق بهذا، بقلبي، ولا أثق بد.«موسى».. هؤلاء ليسوا أهلي، هناك شيء خاطئ ومريع يحدث هنا، ولسبب ما نحن نرفضه، ولذا أتوا بي إلى هنا، هؤلاء الذين كانوا يتصرفون كأهلي كانوا يشردون كثيرًا، كأنهم يحاولون تذكُّر شيء ما، ثم يعودون للتصرُّف برتابة وآلية كأنهم يؤدون دورهم.. هل تفهمني؟

ظل «داغر» ينظر إليها، ابتلعت «آيتن» ريقها في خوف عندما سمعت صوت خطوات بالعنبر وهمست لـ«داغر»:

- سأعود من أجلك.. فقط تذكَّر.. د. «موسى» يكذب..

هرعت الفتاة خارجة، وبعد وهلة ظهرت الممرضة، الظلال تغطي وجهها على خلاف «آيتن»، وأغمض «داغر» عينيه..

***

عندما فتح عينيه مرة أخرى كان يجلس فوق مقعد يتحرك، في صالة الطعام، المرضى يجلسون فوق المناضد ويأكلون في صمت، بينما بعضهم يقف في طابور حاملًا طبقه في صمت منتظرًا الممرضة كي تغرف لهم الطعام، تلك الفتاة، ما كان اسمها؟ «آيتن»، كانت تدفع بالمقعد المتحرك الذي يجلس فوقه «داغر»، وهمست له:

- من يتعرضون لجلسة الكهرباء يستخدمون هذا المقعد لفترة والمرضى هم من يساعدونهم، تلك إحدى طرق د. «موسى» لجعلك تتعلم المشاركة والمساعدة، هل تراه؟ هو يقف بالأعلى يراقبنا جميعًا ونحن نأكل كالشياة، هل تتذكرني؟ أنا «آيتن».. لقد عرضتُ على الممرض أن أتولى أمر إطعامك خلال فترة تناول الطعام، لم تكن الممرضة لتوافق، لكن الممرض أقل قسوةً منها على أي حال.. هنا انتظر هنا أمام تلك المنضدة سوف أجلب طبق طعام وأعود..

ظل «داغر» فوق المقعد، مرتميًا بجسده ورأسه منحنٍ لليمين، لعابه يسيل وعيناه شبه مغمضتين، «آيتن» تقف في طابور المرضى، فتاة رقيقة وجميلة لكنها قوية الشخصية وعنيدة، تحمل طبقًا من البلاستيك وتنتظر من الممرضة البغيضة وضع الأرز والبازلاء وقطعة لحم في طبقها.. عادت «آيتن» بالطعام وجلست أمام «داغر» وقالت:

- أنت كنت تأكل السوائل لأشهر، لا بد أن معدتك قادرة على الهضم الآن، ألا تفتقد البازلاء واللحم؟

لا رد..

مالت «آيتن» برأسها نحوه وتفقدته جيدًا بعينيها السوداوين، ثم

الت:

- هل تبقى منك شيء ما؟ هل أنت ما زلت هنا؟

تنهدت الفتاة في حزن وغرزت الملعقة في داخل الأرز، ورفعت

إس «داغر» بيد، وبدأت في إطعامه باليد الأخرى.

- إليكم عني يا ملاعين.

صاح بها رجل في زي المرضى وهو يركل أحد الممرضين يسقطه أرضًا، ثم يلكم آخر ويتراجع للخلف متخذًا وضعية ملاكمة وقدماه ترقصان على الأرض استعدادًا للقتال، نظر بعض المرضى له في حين واصل الآخرون تناول طعامهم بيأس مرير، التفتت «آيتن» صوب الرجل الذي صاح:

- تبًا لكم ولأي كان مخططكم هذا لن يفلح أبدًا معي..

حاول أحد الممرضين مهاجمته، فانزلق الرجل للخلف ببراعة، ولكم الممرض بالخطافية اليسرى ليسقطه أرضًا، وهلل بعض المرضى في حماس، نظرت «آيتن» لأعلى، فوجدت د.«موسى» واقفًا يشاهد ما يحدث..

عادت بناظرها للرجل وقلبها يدق، لم يتمرد عليهم أحد من قبل، يبدو أن هذا الوافد الجديد لا يخافهم، كانت «آيتن» تعلم بشأنه، لقد أمضى أشهرًا وربما عامًا في حبس انفرادي، يقولون إنه حتى جلسات الكهرباء لم تؤثر فيه، لكنها المرة الأولى التي تراه فيها، كان رياضي الجسد ويمتلك عينين ساخرتين بهما حس مغامرة وحياة على خلاف المرضى من حوله، والذي قام د.«موسى» بانتزاع كل بارقة حياة وحلم



CamScanner

وطاقة منهم، هنا ظهر أربعة من الممرضين يندفعون صوب الرجل الذي ابتسم بجانب وجهه صائحًا:

- المزيد من الملاعين!

ارتفع حاجبا «آيتن» لقدرة هذا الرجل على مواجهة الخطر والمزاح في لحظة كتلك، وألقت نظرة سريعة لـ«داغر»، لم يبدُ أنه يلاحظ ما يحدث، انتقلت بنظرها مرة أخرى للرجل الذي انزلق متفاديًا أول الممرضين وضربه فيما بين ساقيه، ثم اعتدل بخفة ولكم الآخر قبل أن يقفز للخلف ليستقر بقدمه فوق إحدى المناضد ويلتقط مقعدًا من جوار أحد المرضى وهو يهتف بسخرية:

- معذرة، هل هذا المقعد شاغر؟!

ثم هوى بالمقعد فوق أم رأس الممرض الثالث وانقضَّ بعل... على الرابع، ورغمًا عنها ابتسمت «آيتن» وشعرت بالطاقة تدب في قلبها من شخصية هذا الرجل المغوار، ثم لمحت الممرضة إياها تقترب من خلفه وهناك حقنة في يدها، صرخت «آيتن»:

- احترس.

رفع الرجل رأسه لـ«آيتن» في نفس اللحظة التي أحاطت الممرضة... عنقه، وغرزت الحقنة في الوريد..

ضربها بكوعه ثم دفعها للخلف، فتعثرت وهي تسقط للخلف ككومة من الكتب القديمة، هب الرجل واقفًا وانتزع الحقنة من عنقه هاتفًا:

- ألم يعلمك أحد يا سيدة من قبل ألا تتمسكي برجل بتلك الطريقة؟ عليكم تقبُّل الرفض يا معشر النساء!

سقطت الممرضة على ظهرها، وضحك الكثير من المرضى

وبدأ بعضهم يقفز في مكانه، أما الرجل فقد دار حول نفسه ثم اقترب من «آيتن»، وقال بطريقة مسرحية كأنه كان يقدم عرضًا في السيرك وقد انتهى منه والآن هو يقترب من أحد أعضاء الجمهور:

- فتاتي الجميلة، شكرًا لك لتحذيري من تلك الغوريلا، الاسم هو «كارم».. «كارم العدوي».. هل تصدقين أن الوغد الذي يدير هذا المكان يحاول إقناعي بأني كنت أعمل كمحاسب مصرفي طيلة عمري؟ أنا، «كارم العدوي»، الذي هرب من الملجأ خلال طفولته وانضم للسيرك المتنقل، وتحدثت الصحف عن مغامراته وبطولاته بعدما أصبح شابًا، أنا الذي كنت أقتحم قصور الأثرياء وأسرقهم لأعطي المحتاجين ولا أنسى نفسي أبدًا، وأقضي وقتي مستمتعًا بالحياة مع الجميلات، أنا «كارم العدوي» المحب للحياة والمغامرة والفن، يريدون إقناعي بأني آخر، هاها يتوقعون أني سوف أنسى ملمس رمال الشاطئ وانعكاس ضوء شمس الغروب على مياه البحر الزرقاء، وشعر شقراء ذهبي يتطاير مع الهواء وملمس شفتيها.. يريدون إقناعي بأني أرفض واقعي كمحاسب مصرفي عليه طائل من الديون ولا يجيد الغزل مع النساء، وأني قد أصبحت روبن هود داخل عقلي، تبًا لهم، سوف أريهم عاقبة محاولة سرقة ذكريات وهوية «كارم العدوي».. سآ.. هه.. أريهم.

ثم دارت عيناه في محجريهما، وسقط أرضًا فاقدًا الوعي..

اعتدلت الممرضة واقفة وصفقت بيدها بحزم للممرضين الذين كانوا يتأوهون ويعتدلون، واندفعوا ليحملوا جسد «كارم» خارج ردهة الطعام، وفور خروج «كارم» من المكان واعتدال الممرضة بدا لـ«آيتن» أن الطاقة قد اختفت، وعاد المرضى بوجوم لأطباقهم..

التفتت «آيتن» لـ«داغر» الذي لم يتحرك قيد أنملة، وهمست:

- هـل رأيتَ؟ عليكَ العـودة.. أنا أتذكر اسمه، أعني أحاول
التذكر، هذا الاسم مألوف، «كارم العدوي»، لقد قرأتُ عنه من قبل في
جريـدة ما، آه دعني أتذكر، بعضهم قال إنه محتال وأفاق على ما أتذكر
والبعض قال إنه بطل شعبي، هل تتذكره؟ أعلم أنك ما زلت بالداخل
لا تدعهم ينتصرون.. علينا..

تلفتت «آيتن» حولها ثم أضافت هامسة:

- علينا الهروب من هنا.

***

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف «

***

يرقد «داغر» داخل غرفته.. فاغرًا فاه ومحدقًا بالفراغ..

«آيتـن» متكـورة حـول نفسـها داخـل غرفتهـا، وتهمس لنفسها:
ستكونين بخير، ستكونين بخير.. لن تفقدي عقلك..

ثم تعتدل «آيتن» وتغمض عيناها.. وتكرر: «لن أظل هنا»..

وفـي غرفة الكهرباء سـرت الكهربـاء داخـل رأس «كارم» الذي
انتفض وهو يحارب من أجل الاحتفاظ بالابتسامة على وجهه..

لقـد تعلَّـم أن يرسـم تلك الابتسـامة علـى وجهه منذ طفولته في
الملجـأ، عندما ضربه المسئول للمـرة الأولى، وعندما سألته إحدى
رفيقاته ليلًا عن سبب ضحكه عندما يشعر بالألم قال لها في ثقة:

- خالـي علَّمنـي هذا في قصـره قبل رحيله، لا تدعهم أبدًا يرونك
وأنت تنزف..

- خالك كان يمتلك قصرًا؟

- بلى، لكنه رحل وأحضروني هنا بعدها..



CamScanner

تتسع عينا الفتاة انبهارًا وتسأله:

- وماذا أيضًا تعلمتَ من خالك؟

يغمز لها «كارم» ويرد:

- أن أمتلك دومًا خطة للهرب.

تسري الكهرباء بقوة داخل رأسه، والممرضة تقول:

- قضيت عمرك تكدح بنفس الوظيفة، لا تستسلم لخيالاتك، أنت لست بمغامر، أنت موظف، تستقطع من مدخراتك لدفع الإيجار والأقساط..

- ســ.. سحقًا لقدراتك التحفيزية يا امرأة.

يقولها «كارم» بسخرية رغم الألم الرهيب، ويفكر: «لماذا تغطي الظلال وجوههم؟» الممرض يزيد من جرعة الكهرباء، ينتفض «كارم»، يتذكر تلك الفتاة الصغيرة والرجل الجالس فوق مقعد متحرك زائغ العينين، هو لا يعلم ما الذي يحدث هنا، لكنه يعرف أن تلك ليست بمصحة نفسية، شيء مريع يحدث هنا، وهو سوف يكتشفه.. لقد كان في شقته قبل أن يفقد الوعي، واستيقظ بألم رهيب في رأسه، ووجد نفسه راقدًا فوق رصيف أمام سينما تعرض فيلم «صغيرة على الحب»، عقد «كارم» حاجبيه بعدم فهم، هل هو يحلم؟ تلفَّت حوله فوجد فتاة تسير ترتدي اليشمك على وجهها.. ثم مرَّ حنطور من أمامه، هنا سمع صوت طقطقة غريبة، وشعر بأنفاس حارة في عنقه، ثم فقد الوعي مرة أخرى، وعندما استعاده وجد نفسه داخل تلك المصحة، الممرض يرفع قابس الكهرباء، موجة ألم رهيبة ستداهم عقله الآن، أمامك ثوانٍ لحماية عقلك منهم يا «كارم»، افعل مثلما قلتَ للفتاة.. احتمِ داخل قصر ذكرياتك.

يغمض «كارم» عينيه، يعدو داخل عقله..

عداد الكهرباء يفور..

ثوانٍ معدودة للهرب..

يلهث «كارم» وهو يقف أمام قصر ذكرياته.. أمواج الشاطئ تلتحم بالرمال، يدخل «كارم» القصر..

تبًّا للممرضة الشمطاء وجلسات الكهرباء..

عليـه أن يواصل إغمـاض عينيه، عليه اختيار ذكـرى ليحياها بدلًا من تلك اللحظة المروعة التي يمر بها..

يدخـل ردهـة القصـر وينظـر للوحـة كبيـرة عليهـا مجموعة من الحملان وذئب أعلى الجبل، يأخذ نَفَسًا ويترك هواء القصر النقي يفعم صدره ثم يصعد الدرَج، وينظر لإحدى الغرف، يهز رأسه ويدخل..

وبينما الممرضة تقول له: عُدْ للواقع.

كان «كارم» يعيش إحدى ذكريات طفولته من جديد..

***

لـوَّح «كارم» الصغير بالجريدة لأمه وهو يشير للخبر في الصفحة الثانية ويصيح بحماس:

- السيرك في الإسكندرية يا أمي.

طالعـت عيناهـا الخبر المكتوب بحبر أسـود عميـق أعلى صورة خيمة أمامها أفيال وأسود: «كرنفال الغربال يزور الإسكندرية».

كانت جريدة محلية تسـويقية تلك التي يمسـك بها الفتى، لم تكن الأم تحب تلك النوعية من الجرائد، هي تثق بالجرائد الشهيرة فحسب مثل الأخبار والأهرام، وتعلم جيدًا أن تلك الجرائد المحلية تتقاضى

مدفوعات من أصحاب السيرك مقابل تلك الإعلانـات المبوبة.. منذ عودتها -الأم- من بعثة الدكتوراه بالاتحاد السوفيتي، وهي تبغض أمر الأعلانات الخاصة هذا، انُسَ الرأسمالية والشركات الخاصة الشيطانية الجشعة، لذا تناولت الأم الجريدة من يد الصبي..

«كارم»، دعك من السيرك، وهيا.. أبوك ينتظر في السيارة..

تأفف «كارم» وسار مع أمه صوب السيارة المرسيدس الفاخرة التي سلبت كل عيون المارة في الشارع، ركب الفتى في الخلف، وجلست أمه بجوار أبيه وهي ترتدي معطفها ذا الفرو، زوجها كان يرتدي حلة أنيقة وساعة يد تكاد تضاهي ثمن السيارة.. أدار مقود السيارة وهو يبادلها ابتسامة عميقة، اثنا عشر عامًا من الزواج والحب لا يزال متقدًا بينهما، تلك أسطورة حقيقية يجب دراستها.. «كارم» كان يجلس بالخلف وينظر من زجاج نافذته لبائعي القصص المصورة والقديمة بشارع النبي دانيال..

هل ابتعتَ قصة جيدة يا «كارم»؟

لوَّح الصغير بالقصة التي في يده بحماس وهو يصيح:

- عدد آخر لأرسين لوبين..

ابتسم والده متمتمًا:

- اللص الظريف، روبن هود هذا العصر..

الحقيقة أن ولع ابنه بقصص أرسين لوبين ناجم عن إقامته مع خاله «عامر عمران» في قصره الشهير بالإسكندرية عندما ارتحل هو مع زوجته لسويسرا في عطلة الصيف السابق، عندما عادا أدركا أن «عامر» باشا، الأرستقراطي الأخير، قد علَّم الفتى الكثير.. حكى له قصص أرسين لوبين كلها، وقد أصبح الفتى مهووسًا باللص الفرنسي الشهير..



CamScanner

«كارم» كان يتصفح القصة، ويقلب صفحاتها، وهو يتذكر تلك الليلة وهو جالس مع خاله في قصره، الأخير يرتدي روبه الفاخر ويدخن السيجار.. يقول لـ«كارم» وهو يشير للوحة أمامهم بها قطيع من الحملان وذئب ينظر لهم من أعلى الجبل..

ما الذي تراه في تلك اللوحة؟

ذئب شرير يريد أن يأكل الحملان.

وماذا الذي تريد أن تكونه في الحياة؛ الذئب أم الحَمَل؟

أريد أن أكون مثل أرسين لوبين.

يضحك «عامر»، ثم يكرر السؤال:

أريد أن أكون مثل الذئب.

هنا يقترب «عامر» من الصغير ويقول له:

- بإمكانك أن تكون مثل الذئب، لكن ذئب مختلف، يساعد الحملان ويحميهم.

ألن أستطيع تناول واحد على الأقل؟

يضحك «عامر» ولا يرد..

كانت تلك هي الليلة المشئومة التي اختفى فيها الإقطاعي الشهير «عامر عمران»، دون أي تفسير.. «عامر» باشا الذي قضى دهرًا من عمره يساعد الفقراء ويعين الآخرين بكل الطرق المتاحة، كانت هناك أضواء ساطعة خارج القصر.. ولم يرَه «كارم» أبدًا بعدها..

لم يفهم أبدًا ما الذي حدث لخاله، و«كارم» بطبيعته يعشق حل الألغاز، مثل لوبين، لكنه لم يستطع فك طلاسم اختفاء خاله للحظتنا تلك، والآن ها هو ذا في السيارة.. ينظر من النافذة ويربت على القصة..



CamScanner

أمه تتبادل ابتسامة مع أبيه.. تلك كانت آخر ذكرى تخصهم بالنسبة إليه،
لقد أظلم كل شيء، مع انقلاب السيارة من فوق الكورنيش بقوة دفع
هائلة مع ارتطام الحافلة بهم، تنقلب السيارة عدة مرات على الصخور
قبل أن تستقر بجوار البحر بعد أن تحولت لقطعة معدن منبعجة.. لقد
ولى سحر المرسيدس وجاذبيتها..

«كارم» كان يشهق بالمقعد الخلفي، الدماء تنساب من رأسه..

أمواج البحر تستشيط غاضبة لما حدث..

أمي.. أبي.

لا رد..

يكرر الصغير النداء متأوهًا.. الدماء.. الكثير منها.. الموت قد حل بالسيارة.. وبذراع مهشمة خرج الصغير من السيارة، تجمَّع القوم.. ولم ينسَ أحدهم مرأى الصغير وهو ينظر لجثتي أبويه، قال الرجل بعدها وهو يحكي لزوجته ما حدث:

- الصغير.. لم يبكِ قط.. فقط ظل صامتًا..

يا لتلك الإجراءات الحكومية، ثروة عائلة «كارم» بلا وريث.. الحقيقة أن «كارم» هو الوريث الشرعي لكنه قاصر.. الأموال كلها والممتلكات تؤول للمؤسسات.. ويتم نقل اليتيم الفقير للملجأ..

قضى «كارم» شهورًا لن ينساها أبدًا في الملجأ..

كل تلك القسوة واللامبالاة..

كان يجلس مع باقي الأطفال على مائدة طعام طويلة.. أحد الأطفال مصاب بالجذام، وقد تآكل جلده وسقط أنفه، لكنهم لم يعزلوه عن باقي الأطفال، باقي الأطفال كانوا يشيرون إلى الطفل المريض ويتهامسون برعب:



CamScanner

- المسخ قد وصل..

المراهقون كانوا يتنمرون على الأطفال، سخرية لاذعة وضرب وإهانة..

ذات مرة وبينما «كارم» يسير في ردهة طويلة بلا روح سمع بكاء فتاة، ذهب لمصدر الصوت، ورأى اثنين من المراهقين يصفعان فتاة ويحملانها قبالة الحائط، صاح «كارم» بغضب:

- اتركاها.

نظرا إليه بسخرية مقيتة..

الفتى الجديد.

الإعياء كان باديًا على «كارم»، مع سوء التغذية والعذاب النفسي الذي يمر به، لكنه تماسك، وظل يكرر لنفسه والمراهقان يقتربان منه:

- أنا أرسين لوبين.. أنا أرسين لوبين..

وفي عقله كان اللص الظريف يعدو فوق خيله في الحقل الأخضر بينما السلطات تطارده، وفتاة فرنسية جميلة تنتظره لتقبِّله، «لوبين» يلاكم الأشرار وهو يطلق دعاباته الساخرة، في إحدى القصص بعد أن فقد لوبين عائلته استخدم السخرية وظل يبتسم دومًا ليخفي آلامه، هذا كان أحد أهم أسلحة أرسين لوبين، قوته النفسية الرهيبة وابتسامته رغم كل المآسي التي يمر بها.. وعندما لكمه المراهق ليكسر أنفه، لم يتراجع «كارم»، لم يبكِ، فقط ابتسم، أجبر نفسه في الواقع، والدماء تلوث وجهه.. قبل أن يرقص، أمام أعينهم المذهولة.. ظل يرقص ويقفز من مقعد لآخر..

الفتى مخبول.

في ذهن «كارم» كان يُطبِّق ما تعلمه من «لوبين»؛ شتِّت أعداءك

لوين داهية، هو الوحيد الذي استطاع هزيمة شيرلوك هولمز.. هيا
كارم.. هيا..
انحنى «كارم» إليهم ضاحكًا وهو يحاول تجاهل آلام أنفه.. وهو يقول:
- درس اليوم، لقبولكم مرة أخرى في المجتمع المتمدن.. ألا
تضربوا فتاة أبدًا..
كانت جملة مقتبسة من لوبين، وشعر بفخر رهيب وهو يقولها،
وتحرك بسرعة خاطفة.. وهو يرقص على أصابع قدميه.. لكم أحد
المراهقين في معدته، وركل الآخر بين ساقيه، تأوه الثاني فلطمه
«كارم» على وجهه..
صرخ المراهق الأول غاضبًا وهو يستلُّ مدية من جيبه..
آه.. أسلحة بدائية..
قالها «كارم» وهو يتفادى المدية قبل أن يتعلق بظهر المراهق،
وظل يضرب المراهق على أذنيه حتى سقط الأخير مغشيًا عليه..
المراهق الآخر لا يزال يحاول التغلب على آلام ما بين ساقيه،
عاجله «كارم» بركلة أخرى.. قبل أن يغرز أصبعه في عينيه.. تراجع
الفتى في ألم وسقط للخلف..
اندفع «كارم» صوب الفتاة واحتضنها، ثم طبع قبلة على جبينها،
أجفلت الفتاة.. وهو يقول بفخر:
- أنت بخير؟
من أنت؟
«كارم».. كارم العدوي» في خدمتك.
وانحنى بطريقة تمثيلية لها، وهو يغالب التهدج في صوته الناجم



CamScanner

عن توتر جسده.. يداه كانتا ترتعشان، ولشدة ما كان يأمل ألا تلاحظ الفتاة هذا، ثم حكى لها ما تعلمه من خاله بشأن عدم رؤيتهم لك وأنت تنزف وامتلاك خطة هرب.. ومع سماع صوت المراهقَيْن وهما يستعدان للهجوم مرة أخرى، سحب «كارم» الفتاة من يدها وجريا بعيدًا ضاحكين، غمرت السعادة قلب «كارم» وهو يرى الفتاة تضحك بعدما كانت تبكي.. هذا تأثيره هو..

هتف لها:

- نحن أكبر من الحياة، سنهزمها، وسنخرج من هنا..

كان الاثنان يعدوان نحو الشرفة.. ونظر «كارم» للمدينة والسماء المظلمة بينما الفتاة في أحضانه.. بين ذراعيه كطفلة صغيرة، وشعر برجفة تنتابه، لسوف يحميها للأبد.

أصوات أقدام عدة تعدو وراءهم، المسئولون في الملجأ، أحد المسئولين صفع «كارم» على وجهه منذ عدة أيام وآخر ركله.. أغمض «كارم» عينيه وهو يتحسس شعر الفتاة بيده..

لا تبكي يا أميرتي.. لا تبكي.. أنا أرسين لوبين.. والواقع لن يلحق بنا..

بدأ يتسلق الشرفة وهو يصيح للفتاة ملوحًا بيده الصغيرة:

- هيا.

ثم تعلّق بالماسورة الضخمة وبدأ ينزلق للأسفل..

فقط تخيلي أنك فأر.. هيا بسرعة.

بتردد وخوف بدأت الفتاة في محاولة التسلق، والدموع تنساب من عينيها، وعندما التقت عيناها بعيني «كارم» ابتسم كلاهما.. ومدّت يدها صوب «كارم»..

كلا!!!!!!!.

صاح «كارم» بغضب عندما امتد ذراع أحد البالغين لحيط بخصر الفتاة ويرفعها لأعلى وسط صراخها..

وتمسك «كارم» بالعمود شاعرًا بالعجز والغضب.. وهم يعيدونها للملجأ..

اقفزي.. اقفزي وتعلقي بالعمود هيا..

كانت الفتاة تحدق به، ثم عضَّت ذراع مَن يحملها فأفلتها..

ضحك «كارم» مهللًا..

نعم.. هاها.. كالفئران.. هاها.. هيا.

وأمام عينيه المبهورتين قفزت الفتاة، بينما أيدي المسئولين تمتد صوبها.. وإحدى تلك الأيدي ارتطمت بظهرها لتدفعها للأمام وهي في الهواء، وبالنسبة لـ«كارم».. فلقد توقَّف الزمن.. والفتاة تحلق أمام عينيه، قبل أن تسقط بسرعة غادرة..

وجهها لا يزال ينظر إليه وهي تسقط..

كلا!!!!!!!!!!!!!.

ترتطم الفتاة بالأسفلت وتنفجر دماؤها من كل موضع بجسدها..

وتلك المرة بكى «كارم».. اغرورقت عيناه بالدموع.. وصاح باتجاه من في الشرفة:

- أوغاد.. ملاعين..

وانزلق بسرعة غاضبة من على العمود، وسرعان ما لامست قدماه الأرض، جرى صوب جثة الفتاة، احتضنها وهو يكرر:

- آسف.. آسف..



CamScanner

ثم التفت نحو الملجأ، يكاد يسمعهم قادمين من أجله، بدأ يعدو بسرعة خاطفة.. واختفى الصغير وسط المدينة..

عندما توقف «كارم» عن العدو أخيرًا.. جلس على حافة رصيف ما، الدماء تنساب من أنفه لتختلط بعرق وجهه، دموعه تذوب وسط كل هذا.. ملابسه رثة.. يجاهد من أجل التقاط أنفاسه بينما صدره يعلو ويهبط.. نقده أحد المارة مالًا وقد اعتقد أنه متشرد.. نظر «كارم» للجنيهات في يده.. وتمدد على الرصيف ليغمض عينيه.. وهو يردد:

أنا لوبين.. أنا لوبين..

قضى «كارم» عدة أسابيع كمتشرد، تعلَّم أن يتفادى عصابات المتشردين من الكبار الذين سيجبرونه على التسول أو مسح السيارات، قال له أحد الفتية من المتشردين وهم نائمون بجوار مكب نفايات:

- أو ربما سيسرقون كليتك.

ولماذا سيسرقون كليتي؟

قالها «كارم» وهو يلوك شطيرة الطعمية التي ابتاعها بعد عناء يوم طويل..

هز الفتى كتفيه:

لا أعلم، ربما ليأكلوها، لكني أعلم أنهم يسرقون الكلى.

بدا الأمر غير منطقي لكارم، هل يأكل البشر بعضهم بعضًا؟ أم أنهم يبيعون تلك الكلى؟ ولكن لماذا قد يشتري أحدهم كلية آخر..

في النهاية خلد «كارم» للنوم.. كان يهرب كل حين وآخر من مداهمات الشرطة، لقد سمع عن الأحداث والتحرش وكل شيء يحدث هناك، لا، لن يضعوه في ملجأ آخر، سيظل حرًا..



CamScanner

ذات مرة غضب البائع في الشارع الذي ملّ من الصبي المتشرد الذي يريد ابتياع قصص أرسين لوبين، واتهمه ساخرًا بالأمية..

نظر «كارم» بغضب للبائع، ثم التقط القصة بخفة وجرى بسرعة شيطانية وسط صياح البائع، تعلّق «كارم» بالترام، الذي انطلق وحل مبتعدًا..

وهكذا استلقى «كارم» - المتشرد الصغير - بجوار مقلب النفايات، يقرأ قصة لوبين.. تعوّد أن ينام متأهبًا، مستعدًا دومًا للهروب عند وصول عصابات الشحاذين أو الشرطة..

دخل في مشاجرات عدة.. ثم اكتشف أنه شديد الغباء.. وغيّر محل إقامته..

بدأ ينام بجوار البحر بالقرب من قلعة قايتباي، يختبئ بجسده الصغير بين الصخور لينام.. تعوّد ألا يخاف الحشرات والكلاب، ولا حتى العقارب والثعابين؛ لأنه يمتلك قلب لوبين وشجاعته..

نظر «كارم» للبحر وهو يحتضن القصة على صدره وقال بإرهاق: أنا جائع للغاية..

وأغمض عينيه لينسل للنوم، وفي اللحظات الأخيرة من استيقاظه تُخيِّل إليه أنه يرى باخرة عتيقة ذات شراع هائل تبحر مبتعدة وسط الضباب، أغمض «كارم» عينيه وانسلّ لعالم الأحلام..

عندما فتح عينيه ظن أنه لا يزال يحلم، كان هناك مهرج يقف أمامه، وتذكّر خبر زيارة السيرك للإسكندرية.

انعكاس ضوء القمر على وجه المهرج كان ساحرًا بحق.. اعتدل «كارم» ونظر إليه مشدوهًا وقال المهرج:

- لقد رأيتك تسرق قصة أرسين لوبين وتجري كالبهلوان نحو الترام، لا أقول إن السرقة شيء جيد، لكنك تمتلك روحًا ثائرة ورشاقة لا بأس بها بالتأكيد، هل تحب العمل معنا؟ تنضم إلينا في السيرك؟

يا لها من حياة تلك التي عاشها بعد ذلك، ويا لها من مغامرات عدة.. عرَّافة السيرك داخل خيمتها هي من علَّمته بشأن بناء قصر ذكريات داخل عقله، والآن يريدون إقناعه بأن كل هذا وهم؟ تبًا لهم. تبًا لهم..

عندما خرج «كارم» من قصر ذكرياته واجه ألمًا بشعًا في رأسه، وأفرغ ما بجوفه عدة مرات، ثم نظر بتحدٍّ للممرضة قبل أن يخرَّ برأسه للخلف في إعياء.. لن يسلبوه هويته وذكرياته أبدًا..

وبينما هم يحملونه لغرفته في الحبس الانفرادي لم تراوده سوى فكرة واحدة، لماذا تخفي الظلال وجوههم؟

***

- ستكونين بخير.

كررتها «آيتن» لنفسها وهي تجلس وحيدة داخل غرفتها، صراخ بعض المرضى يكاد يصم أذنيها..

ليتها تتذكر، ليتها تتذكر ما حدث..

ألصقت رأسها بجدار الغرفة، الملاصقة لغرفة «داغر» وهمست:

- هل تسمعني؟ هل أنتَ هنا؟

لا رد..

- أرجوك، لو كنتَ تسمعني تحدث معي، أنا وحيدة وتائهة، لم أعد أعرف الحقيقة من السراب..

لا رد..

- هل [illegible]

لا [illegible] أن [illegible] ربما [illegible]

المكالمات [illegible]

لا رد..

- ربما أنا في عالم آخر [illegible] لا [illegible]

[illegible] ربما د. [illegible]

لا رد..

- ربما الحقيقة أننا نتكلم مع الأموات.. [illegible]

لا رد..

أغمضت [illegible] عينيها و[illegible]..

***

- عليكم أن تكونوا واقعيين

قالتها د. [illegible] بسخط وهي تقف أمامي [illegible]

[illegible] صورة غريبة للعقل البشري [illegible]

المرضى الجالسين في غرفة المحاضرات [illegible]

تجلس بجوار النافذة [illegible] فوق المقعد [illegible]

كثيرًا عما كانت.

[illegible] د. [illegible]؟

- محاولاتكم لرفض الواقع تجعلكم [illegible]

[illegible] تهربون من الواقع المحيط بكم كله.

وأشارت د. [illegible] بجوار [illegible]

[illegible] من ذراعه [illegible]

يكاد يستطيع أن يقف، وقالت الممرضة:

- قل لهم مَن أنت؟

ببطء أجاب «كارم» والممرضة تدفعه صوب مكبر الصوت:

- أنا «كارم».. محاسب مالي، خريج كلية التجارة، متزوج ولديّ أربعة أولاد، أكبرهم في الثانوية العامة، الحقيقة أني بالكاد أستطيع توفير أموال الدروس الخاصة به، كنت أمتلك سيارة ١٢٨ لكني بعتها، زوجتي ربة بيت كادحة لكنها لا تعمل، لم نتبادل حرفًا سوى بشأن الأولاد منذ أعوام، أعيش في فيصل، وأستقل المواصلات العامة يوميًا للمصلحة الحكومية التي أعمل بها..

كان يتحدث برتابة وتلقين، وانسابت دموع «آيتن».. تركت الممرضة ذراع «كارم» وسار ببطء واتخذ مقعدًا وسط الجالسين، أشار د. «موسى» بيده دون كلام، فذهبت الممرضة وعادت وهي تجرُّ شخصًا آخر من ذراعه، كان يرتدي عصابة عين تخفي عينًا له، ونصف وجهه مشوَّه تمامًا كأن كلبًا ما قد عضَّه، بدا كرجل خائف وحائر، ولم تكف ساقه عن الارتعاش، زجرته الممرضة:

- تحدث..

نظر لها بعينه السليمة في خوف، ثم قال بصوت متهدج:

- اسمي د.. آه كلا.. أنا لست أستاذًا جامعيًا، هذا ما كنت أعتقد، اسمي «كامل»، أنا أحيا مع والدتي، لم أتزوج ولا توجد لديَّ وظيفة، أنا انطوائي ومنعزل تمامًا، لم أمتلك صديقًا ولا حبيبة أبدًا، كنت أظن أني أمتلك حاسة سادسة، كنت مؤمنًا بقوة العقل البشري، وبأننا نولد بقدرات غير محدودة، كنت مخطئًا وغير واقعي، كنت مخطئًا للغاية، اسمي «كامل»..

اسمي «كامل»..

اسمي «كامل»..

رمشت عين «داغر» وهو جالس فوق مقعده المتحرك.. في حين تركت الممرضة ذراع «كامل» ليتخذ موقعه وسط الجالسين..

مسحت «آيتن» دموعها وغمغمت في حزن:

- هم محقون..

ثم نظرت لـ«كارم العدوي» الجالس في شرود وأردفت:

- هم محقون.. كلنا نتوهم..

كادت «آيتن» أن تقفز من مكانها كالملسوعة، لكنها تمكنت بمعجزة من أن تظل بموضعها عندما همس «داغر» بحزم وصوت حاد:

- كلا، لا أحد هنا يتوهم، وتلك ليست بمصحة نفسية.. الحقيقة أكثر بشاعة من هذا..

•••

زوجي ليست بزوجتي.

•••

كيف أعرف إن كنت بشريًا أم تقليدًا؟

•••

حالات اختطاف.

•••

يتم اختطافهم من داخل الغرف الموصدة.

•••

في الثامنة مساءً فقد كل ساكني القاهرة وعيهم لعشرة دقائق كاملة.

•••

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف».

***

تطلَّب الأمر قدرًا كبيرًا من المجهود لكي لا تلتفت «آيتن» بعنقها وتنظر لـ«داغر» الجالس بجوارها بعدما تحدَّث إليها، شعرت بهذا الشعور المقيت إياه عندما ترتكب شيئًا مخالفًا للقواعد، وكأن كل الأعين تستقر عليها، حقًّا هي لم ترَ وجه الممرضة وسط الظلال، أو وجه أي أحد من طاقم المصحة؛ لأن الظلال دومًا تخفي وجوههم، لم تفهم كيف يأتون بهذا التأثير، هل تلك تقنية غرضها إيحاء ما؟ لماذا دومًا ملامحهم مخفية كأنما الظلام هو قناعهم الخاص؟

د. «موسى» فحسب هو الذي يمكنك تبيُّن ملامح وجهه، بشحوبه وعظام وجنتيه البارزتين، لكن قلبها اعتاد الانقباض كلما رأت عيناها ملامح د. «موسى»، كانت تشعر بأنه دومًا يرتدي قناعًا بشريًا، يتظاهر بالمشاعر، وقد عزَت ذاك الأمر لكونه الطبيب وهم المرضى، وربما هي تنظر له على كونه مختلفًا، لكن هذا لم يفسر لها انقباض قلبها، والآن هذا الرجل الهزيل بجوارها فوق المقعد المتحرك قد تحدَّث أخيرًا، بعدما أوشكت على فقدان الأمل تمامًا وبعدما وتمكنوا «هم» من إخماد طاقة «كارم» هذا، تسارعت دقات قلبها وتظاهرت بأنها تنظر للمنصة مثلما يفعل باقي المرضى في غرفة المحاضرات وهمست:

- كيف؟

نعم، كيف؟ تلك الكلمة كانت كافية، وهي الملكة المتوجة من بين كل الكلمات الأخرى، من بين السباق الدائم لكل التساؤلات، فالفائز في السباق الحالي هو تلك الكلمة الساحرة، «كيف؟»، ليس «لماذا»، ولكن كيف سنخرج من هنا، ربما هي حمقاء؛ لأنها سوف

تمسك في أمل ما من رجل لا يكاد يستطيع الحركة، لكنها مستعدة للتمسك بأي طوق نجاة في حالتها الحالية، أجابها «داغر» همسًا بصوت به حزم وغضب:

- هناك آخر بداخلي، وسوف يساعدنا.

رغمًا عنها هزَّت «آيتن» رأسها بعدم فهم، ثم ندمت فورًا على هزة رأسها تلك، شعرت بوجه الممرضة يرمقها من خلف الظلال المحيطة به، ما الذي يقصده بالضبط بوجود آخر بداخله سوف يساعدهم، علا صدرها وهبط في انفعال، وردَّت وهي تكاد تصدر صوتًا كالفحيح:

- أنت مخبول؟ ما الذي تعنيه...

- فقط ثقي بي، أنتِ ساعدتِني ولسوف أساعدك، كوني متيقظة ومتأهبة عندما يحين موعد النوم في العنابر وإطفاء الأضواء ولسوف أخرجك من هنا...

تنهدت «آيتن» ولم ترد، فقط شعرت بصدرها ينقبض وبرغبة عارمة ومفاجئة في البكاء..

***

هناك آخر بداخلي، اسمه «راسبوتين».. ولسوف يساعدنا..

انسابت الأفكار لـ«داغر» في العنبر..

- «راسبوتين» أين أنت؟

همس بها «داغر» لنفسه بعدما دفعه الممرض داخل غرفته وهو راقد فوق المقعد المتحرك، وظل الأخير مرتميًا فوق المقعد دون حراك، كان هناك فأر داخل الغرفة يمرح في الأرضية، رفع الفأر رأسه صوب جسد «داغر» الراقد فوق المقعد بعدما أغلق الممرض الباب ورحل، ثم أجفل القارض الليلي عندما حرك «داغر» رأسه.. نظر

الأخير للفأر، وهمس:

- لا تدعهم يحاولون تغيير واقعك، لقد كادوا أن ينجحوا مع هؤلاء الملاعين.. أو هذا الملعون.. لا أفهم كليًا ما الذي يحدث بعدُ، لكني أفضِّل كوني وحدي وأن أتحدث مع فأر وقور ومتفهم مثلك على أن أكون منهم، هم يكذبون أيها الفأر، هم دومًا يكذبون، زوجتي لم تتركني ولم تسلبني طفلي، لقد كنتُ بالفعل في حرب سيناء، «كامل» كان محقًا بشأن قوة العقل البشري، نحن نصبح ما نفكر به أليس كذلك؟ وعقلي سوف يعطي جسدي القوة الكافية للهروب من الهاوية السحيقة الخاصة بهم، سوف أستدعي «راسبوتين» بداخلي ولسوف يتولى زمام الأمور مثلما فتك بالضبع من قبل، أنصحك بالاختباء قبل قدوم «راسبوتين»، هو يختار وجبات عجيبة للعشاء ولا أضمن ألا تكون منها؟

لا تنظر إليَّ هكذا أيها الفأر، هل تريد أن تعرف كيف عرفتُ أنهم يكذبون؟ «كامل».. هذا الوغد المسكين.. لقد أخبرني «موسى» بأن كل ما رأيته كان خيالًا أليس كذلك؟ هلاوس.. ولكن «كامل» حقيقي، وقد أقنعوه هو الآخر بأن كل أفكاره وحياته لم تكن سوى وهم، لكنهم لم يتمكنوا من إخفاء حقيقة تشوُّه وجهه وفقدانه لعينه..

سوف أبحث عن «راسبوتين» داخل عقلي الآن، رأسي لا يزال يؤلمني إثر جلساتهم الكهربائية اللعينة، وأشعر بأن لساني متفخ، لا أكاد أهم بالبلع وأشعر بظمأ قوي، لكن «راسبوتين» سوف يتولى العناية بكل تلك التفاصيل..

تحسس «داغر» جيب سرواله القماشي الفارغ، هو بحاجة لحبة واحدة مهدئة في تلك اللحظة، لعل «راسبوتين» سيعالج تلك المسألة

ي، أغمض عينيه وهمس: «راسبوتين» أين أنت؟ أنا بحاجة إليك.

***

«لكننا سنخرج من هنا فقط كوني هادئة».

ظلت الجملة تتردد داخل عقل «آيتن» بعدما أعادوها لغرفتها، لقد ... قول «نحن» بدلًا من «أنا وأنت» في محاولة ساذجة لإشعارها ... مأنينة، لكنها كانت مشغولة البال برؤية وجه «كارم العدوي» ... صمت: «ما الذي فعلوه به بالضبط؟ لقد كان ممتلئًا بالحياة».

وتردد هذا التساؤل داخل عقلها وهي لا تعرف أن الإجابة ستأتيها ...، فور عودة «آيتن» لغرفتها شعرت بوجوم مباغت، ومع مرور ... بدأت تتذكر ما كان يحدث للآخرين، عندما يدخل الممرض ... بهم البلاستيكية ويجرونهم جرًا متجاهلين صيحاتهم لغرف ... جراحة، نعم هي ذات الغرفة التي تقع بها جلسات الكهرباء كذلك، ... كن سمعت «آيتن» من قبل أنهم قد استأصلوا الجزء المسئول عن ... تفكير من عقل مريض مشاغب كان يدعي أنه ابن خلدون، هل هذا ... فعلوه بـ«كارم» أيضًا؟ لماذا ينتابها شعور بأن دورها آتٍ لا محالة، ... ماذا تشير تلك البوصلة المرتجفة المتعارف عليها باسم الإحساس ... صوب باب غرفتها، هنا تعود «آيتن» لعادتها القديمة، التي أصبحت ... أولها عقب وفاة والدتها، وهي النوم أسفل الفراش، أو في حالتنا ... تلك الاختباء خلفه.. لم يُكذِّبها قلبها خبرًا، ها هي ذي متكورة حول ... نفسها كالقطة، منزوية في الركن البعيد، شعرت بالفراش يكشر لها ... عن أسنان نخرة وكأنه سيكشف عنها صائحًا: «أنا لم أعد أطيقك أيتها ... الحمقاء»، وظل الفراش يصيح: «هي هنا»..

وضعت «آيتن» يديها فوق رأسها في صمت مغمضة العينين

وصرخت عدة مرات في صمت، ثم انفتحت عيناها ببطء، رغم
تسمع صرير الباب ينفتح وقَدَم شخص يدخل الغرفة، هذا ليس من
الممرضين، هؤلاء الممرضون الذين لا تظهر ملامحهم أبدًا على أي
حال، بإمكانها تبيُّن معطف أسود طويل ينتهي عند ساقه، هل تلك قدم
ضبع؟ لقد جُنَّت الفتاة بلا ريب، تراه يسير بتؤدة صوب الفراش، طاك
طاك طاك! هذا الصوت قادم منه، شحب وجهها، ليتني أكون مجنونة،
وتتذكر «داغر» ووعده لها بالخروج آمنين، أين هو؟ طاك!، لا يمكن
أن هذا حقيقي، تمتد يد ذات أصابع طويلة وتسحبها من كتفها بعدما
قبضت عليها من أسفل الفراش وتجرها للخارج..

لقد تمردت الكوابيس ودخلت عالم الواقع..

«آيتن» فوق محفة متنقلة داخل غرفة الجراحة تحاول التملُّص..

لقد حملها «موسى» ووضعها هناك، ثم انزوى للركن، يسير
للخلف بانسيابية كأنه لا يخطو، بعينين حمراوين تحدقان بها، كأنه
على وشك مشاهدة عرض مهم، وتدخل الممرضة ذات الوجه
المخفي المظلل الغرفة، تهمس «آيتن» باكية:

- أرجوكِ ساعديني..

تتجاهل الممرضة وجود «آيتن» وتلتقط مشرطًا حادًا بيد مشعرة،
منذ متى وكانت يدها مشعرة كذلك؟

لسبب ما تطوف بعقل «آيتن» قصة ليلى والذئب، جدتي لماذا
يداك كبيرتان كذلك؟

لكن تلك لم تكن جدتها وهي ليست ليلى، لقد كانت ممرضة
بلا وجه، ويد مشعرة كيد قرد، تقترب منها حاملة المشرط في يدها،
وقالت الممرضة:

- أهلك هم أهلك، أنتِ مثل الجميع، سنعالجك وستكونين
من الآن فصاعدًا.. فتاة عاقلة ومطيعة.
دخل الممرض الآخر، كان منتشيًا للغاية وأمسك بقناع «البنج» الموصل بشيء وجعل «آيتن» تستنشق هواء الغرفة الملوث
بالظلام، بكت الفتاة أكثر وضحك الممرض، ولوهلة، على بصيص ضوء خافت، خيل لـ«آيتن» أنها قد رأت جزءًا من تفاصيل وجهه، وهذا جعلها تصرخ أكثر..
- هشششش يا فتاة، بعد تلك العملية لن يضرك التفكير أبدًا.. سوف نستأصل الجزء المشاغب من فص عقلك الأمامي.
اقتربت الممرضة بالمشرط من جبين «آيتن»..
الممرض يهلل طربًا..
وأطلق «موسى» فحيحًا، هسيس خافت وسريع، ورأت «آيتن» هذا الواقف، مرتديًا معطفًا وطربوشًا، كان يمتلك لسانًا مشقوقًا كالأفعى..
المشرط فوق جبينها ودماؤها تسيل، هل سيُجرون لها جراحة مخ ويستأصلون الجزء المسئول عن التفكير دون تخدير؟
الضوء قريب للغاية، لو نظرت لوجه الممرضة لن تقيها الظلال، نعم، سوف تنظر لوجه معذبتها، ولسوف...
أدارت «آيتن» رأسها، ممرضة لطيفة، ممتلئة قليلًا ترتدي زي الممرضات.. وتحمل مشرطًا في يدها..
تقترب الممرضة من «آيتن» ويغمر الضوء تفاصيل وجهها.. تلك المرة لم تصرخ «آيتن»، وعرفت أنها ليست بمجنونة..
هؤلاء في البيت لم يكونوا أهلها، لقد كانوا مثل تلك الممرضة،

يتظاهرون بأنهم بشر، ومن يبدي مشاعر أو يتصرف على خلافهم
إبداعه هنا في هذا المكان الشيطاني، غرفة الفئران التي يهددون بها
صبية المدرسة حقيقية يا سادة وفتاتنا بداخلها الآن، وهي لم تكن
فتاة مطيعة، لقد رأت خالتها تقف تُبدل وجهها أمام المرآة، وزوج
خالتها يتصرف بشكل عجيب حقًا، يشرد فيغرز الشوكة في لحم يده
ويلوك الطعام بلا توقف، ناهيك عن أن فمه فاغر، عائلتي لم تعد
عائلتي، لقد تغيروا، لقد تبدلوا، وأنا لست بمجنونة، وجدت «آيتن»
نفسها تهتف بتلك العبارات بحزم وهي تنظر بتحدٍّ لوجه الممرضة
-واضح التفاصيل- رغم كل ما دبَّ بها من رعب، لعقت الممرضة
جانبي شفتيها بلسان مشقوق وبدأت في غرز المشرط بجبين «آيتن»
واختفت روح التحدي بداخلها وهي تعاود البكاء والتوسل، ستصبح
مثل الباقين، تجلس بلا عقل تحدق بالفراغ، ولعابها يسيل، سوف
يأخذون عقلها، ولسوف تشعر بالمشرط وهو يقطع جزءًا منه، ولسوف
تفعل كل هذا ممرضة بوجه ضبع..

***

- «راسبوتين» أيها اللعين أين أنت؟

هتف «داغر» بالعبارة للجدران البلاستيكية المحيطة بغرفته
وأضاف:

- تلك الغرفة الضيقة اللعينة تبدو أشبه بالتابوت، أنا أختنق، هيا يا
«راسبوتين» تعالَ، أنا أعطيك السيطرة..

وأغمض «داغر» عينيه مرة أخرى في محاولة عبثية بلا فائدة
فأطلق سبة أخرى..

***

ينغرز المشرط في جبين «آيتن»، تتذكر الممرضة، وهي خارجة من غرفة الجراحة تلوك شيئًا ما في فمها بعدما استأصلوه من عقل ابن ملعون أو كائنًا من كان، ارتجفت «آيتن»، لا تريد أن تفكر ما الذي كانت تلوكه الممرضة، يا إلهي.. الساديون تظاهروا بإعطائها بنج وهميًا، و«موسى» يقف، لماذا يقف؟ يراقب.. لأي غاية؟ ما هو السبب خلف كل ما يحدث؟ أنها أبدت مشاعر؟ ستبذل محاولة أخيرة بائسة لن تجدي نفعًا ولكنها لن تضرها بالتأكيد في هذا الجحيم، كتمت «آيتن» بكاءها، وصراخها، وحدقت بعينيها للفراغ، وتمتمت بصوت حاربت كي يخرج رتيبًا بلا رجفة:

- أنتم مُحقون، أهلي هم أهلي.. لقد كنتُ مخطئة..

ينغرز المشرط وتسيل الدماء أكثر، تحاول ألا تنتفض من الألم..

تريد أن تصرخ، تبكي، حقها الوحيد في لحظتها تلك، لكنها تكافح من أجل الحفاظ على ثباتها والتظاهر بحالة «اللاشعور» تلك وكررت:

- أنا كنت مخطئة..

يطقطق «موسى» بلسانه..

ووسط ارتياعها تتحدث الممرضة بلسان مقلوب، وبلغة بدت أنها شديدة القدم أو لم توجد أبدًا، فهمس «موسى» ثم تحدَّث، كادت «آيتن» أن تموت ذعرًا، أي لغة تلك؟ الأحرف كلها مقلوبة، ولسانه لا يكف عن الطقطقة إبان الحديث..

لكن رغم كل شيء شعرت «آيتن» بما يقال من حولها..

«هذا لم يحدث من قبل».. «الكل يفقد روعه».

«التزما سيحدث».

لا بد أن هذا ما قالوه لأن المشرط قد انسحب من جبينها، ودفع
الممرضة بالمحفة نحو الغرفة الأخرى، قلب «آيتن» يتواثب ذعرًا
الممرضة تخيط جرحها بغلظة، تصرخ «آيتن» بداخلها، بداخلها
فحسب.. ثم اتسعت عيناها عندما رأت الأسلاك توضع على جانبي
صدغها، وممرض آخر يذهب صوب عداد الكهرباء، لقد كانت تعتقد
أنها نجت بخدعتها الصغيرة.. الممرضة تضع شيئًا ما بفمها كي لا
تبتلع لسانها.. تتسع عينا «آيتن» أكثر.. لقد قرروا إخضاعها الجلسة
كهرباء بدلًا من الجراحة إذن..

وعندما سرت الكهرباء داخل رأسها لم تكتم صرختها.

•••

- حسنًا يا «راسبوتين» سأفعلها وحدي..

قالها «داغر» بصوت خانق وهو يحاول إقناع نفسه بأنه حقًا قادر
على الهروب من هذا المكان..

تمتم «داغر»:

- هيا يا رجل، لقد نجوتَ من الحرب، من الحياة ذاتها، أنت رجل
ثلاثيني رائع وتمتلك طاقة، لنرَ إن كنت الآن سوف تستطيع القيام بتحدٍّ
حقيقي، مثل تحريك قدمك!

كان يشعر بخدر منتشر في كل جزء من جسده، ورأسه يزوغ
وينمل، رؤيته غير متضحة، لا يزال يشعر بتضخُّم بلسانه وصعوبة في
البلع، وهناك ألم غير مبرر في ساعديه، كما أن هزالته قد أصبحت
حقيرة بحق؛ لأنها فجأة قررت أن تكون عالية الصوت وتُشعره
بوجودها وتبقيه داخل هذا المقعد المتحرك، دعك من الارتعاشة في
يديه، تمتم:

- نحن نصبح ما نفكر به، أليس كذلك يا «كامل»؟ نظريتك تقول
لو أقنعتُ عقلي سيمتثل له جسدي أليس كذلك؟ يا للهراء!
أخذ «داغر» نفسًا عميقًا..
- وربما ليس هراء، ربما يجب أن أؤمن بقوة عقلي فقط أليس
كذلك؟ ما الذي قاله «كامل» عن مريض تعدد الشخصيات؟ إحدى
شخصياته تصاب بانخفاض في الكوليسترول وداء السكري، وعندما
تحل الشخصية الأخرى بجسد مريض الفصام تجدها شخصية معافاة
لا تعاني داء سكري ولا كوليسترول، أليس هذا ما قلتَه يا «كامل»؟ قلت
إنك قرأت هذا منذ دهور في مقال لطبيب يدعى مصطفى هيكل، أتمنى
ألا يكون محض هراء، وأن يكون د. هيكل هذا محقًا، لكي أؤمن على
الأقل أنكر.. حسنًا.. حسنًا.. لنفعلها..
سمع صرخة خافتة قادمة من نهاية العنابر، هل هذا هو صوت
الفتاة؟ «آيتن»؟
فكر يا «داغر»، فكر..
أخذ نفسًا عميقًا آخر.. تبًا لا شيء.
بصق «داغر» في غضب جنوني، لا أستطيع تحريك يدي يا
ملاعين.. تبًا لكم..
هنا أتاه صوت مرهَق، يتحدث بلكنة إنجليزية قليمة، مرهقة
قليلًا، تشوبها كبرياء..
- لو أصدرتَ الكثير من العواطف المتأججة سوف يأتون من
أجلك.
أدار «داغر» مقود عجلة المقعد ودفعه صوب الجدار وألصق أذنه
به، وقال:

- أنت تعلم مَن هم؟

أجابه الصوت باللكنة البريطانية:

- بالطبع، لقد استنتجتُ كل شيء، ولذا أخذوني ووضعوني

- نحن لسنا في مصحة نفسية، أليس كذلك؟

- بالطبع لسنا في مصحة، بلى، أنت مصيب.

- وهؤلاء ليسوا أطباء.

- بلى، هم....

صمت صاحب الصوت فهمس «داغر»:

- تحدث بالله عليك، لقد أخذوا الفتاة في الغرفة المجا

للجهة الأخرى، وأكاد أسمعها تصرخ.

- لأنها أبدت مشاعر، كل من يبدي مشاعر يتم جلبه إلى ه

ألم تلاحظ أن كل من يحيون بالمدينة لا يُظهرون سوى لامبالاة تج

بعضهم، ويتصرفون برتابة وآلية، لو أظهر أحد حزنًا أو انفعالًا أو غض

لو بكى شخص ما، أو ضحك، فلسوف يُحضرونه إلى هنا ليهذبو

- هم.. من هم؟ أرجوك أريد أن أفهم، كلا لا يوجد وقت للفه

أريد إنقاذ تلك الفتاة، ألا توجد وسيلة للخروج من هنا؟

بضجر أجابه زميله بالزنزانة المجاورة، نعم هي زنزانة من الأ

فصاعدًا بالنسبة لـ«داغر»، أجابه الرجل بقليل من المرارة:

- هل كنت لأظل مكاني لو هناك طريقة للخروج؟!

- تبدو وكأنك تفهم ما يحدث.

- ألا تفهم أنت؟ الأمر شديد الوضوح.. فقط تصرّف دون إبدا

مشاعر، وامتثل لما يقولونه لك بشأن حياتك ولسوف يعيدونك

للمدينة، لكنهم سيراقبونك، هم دومًا يراقبونك.

- من هم؟

يود الناظر أن يصرخ بالعبارة، فأجابه الرجل بصوت خالٍ من

حياة:

- هؤلاء الذين جلبهم الذي لا يجب أن تقول اسمه.

ثم أضاف الرجل بكبرياء مباغتة:

- لكني أنا قادر على قول اسم أي أحد، تلك الأسطورة تقول إنك

إن قلت اسمه ستجده أمامك، لسوف يأتي من أجلك ويأخذك، يقولون

شخصًا ما أحمق نطق اسمه فقدم إلينا ونال الجميع..

- لا أفهم حرفًا مما تقول، عمن تتحدث.

همس الرجل بالاسم رغم خطبه السابقة الشجاعة:

- فوسي هو من جلبهم إلى هنا.

نعم الألم رأس الناظر بقوة، فوسي؟ هذا الاسم اللعين، مصدر

كل شيء شرير يحدث من حوله.

أردف الرجل:

- أكاد أسمع صرخات فتاتك أيضًا، سيفتحون رأسها ويمدون

أيديهم لينتزعوا الفص الأيسر من عقلها.

- كلا، سأصل إليها، سأنقذها.

- تبدو كجندي في حرب سابقة، تمتلك روحًا بطولية ما، أحترمك

فيها، لكن الطريقة الوحيدة للخروج هي الامتثال للحياة التي

فرضوها عليك، لا يوجد سبيل لإنقاذ الفتاة..

- من أنت بالضبط؟

صمت.. ثم أتت الناظر إجابة الرجل من الزنزانة المجاورة:

- اسمي دويل، آرثر كونان دويل، كاتب بريطاني، كنت أقوم بكتابة

قصة لهذا المحقق الذي يحبه الجميع، شيرلوك هولمز، فكرتو
جيدةً على ما أظن، عن كلب لا ينبح ليلًا، لكني نمتُ ونام
وعندما استيقظتُ وجدتُ نفسي هنا..

تراجع «داغر» بمقعده للخلف، لقد كان يتحدث مع هلوس
الوقت، شخصية تاريخية، أو أدبية تلك المرة، رمى رأسه بخي
ثم ومضت فكرة في عقله، هذا يعني أن عقله عاد لجنونه، عاد با
ليلاصق الجدار:

- أنت كونان دويل، مؤلف كتاب فن الاستنباط، ألا تمتلك
وحيدة للنجاة؟ أنت عبقري يا رجل.

بدا الإطراء لطيفًا لدويل الذي قال بنبرة مختلفة:

- أنا كنت دومًا مؤمن بهم، هؤلاء الذين يحيون أسفل الأرض
السماء، رغم أن هولمز عقلاني، ويقول إنه عندما نستبعد المستح
أيًا كان المتبقي مهما كان مستبعدًا فهو الحقيقة، لكنه مخطئ، هم
دومًا بيننا، حسنًا، ربما تصلح معك طريقة، ادخل داخل قصر ذكر
واختبئ منهم.. ستظل هنا جسدًا فقط، لكن عقلك سيكون في
آخر..

- عم تتحدث يا رجل؟

- قصر الذكريات، ابنِ مكانًا داخل عقلك وادخل فيه،
بداخله.. استخدم مخيلتك لبناء واقع داخل قصر ذكرياتك، ولـ
تصبح جسدًا هنا، شخصيتك ومشاعرك وأنت نفسك ستكون بالدا

- أنا لا أريد الاختباء، أبغي إنقاذ الفتاة يا رجل.

لا رد، اعتصر «داغر» عقله تفكيرًا، ثم همس:

- قصر الذكريات هذا، هل يمكنني إيجاد شخص ما أبحث

بداخلي هناك؟ أهو يوجد بداخلي لا يراه أحد سواي؟

صمت دويل ليهضم الفكرة ثم قال:

- يمكنك فعل ما تريده في قصر ذكرياتك.

- حسنًا يا دويل، شكرًا لك.

- على الرحب والسعة.

تراجع قاهر بمقعده للخلف، ليجرب شيئًا، لم يعد لديه ما يخسره على أي حال، كلا عليه التخلص من طريقة التفكير تلك، عليه أن يؤمن، ومرّ بعقله شريط ذكريات به فندق كاليفورنيا والكاملي والبيت ذو التلة والرفقة ومذكرات الرسالة والأنين، كلهم يحومون من حولك، كلا، سوف آتي من أجلك يا قاهر، أغمض عينيه بقوة، لن يحاول بذل مجهود التفكير، سيترك أفكاره تتولى زمام الأمور..

فأعاد إغماض عينيه بأريحية.. أفكار هادئة تنساب لعقله.. شعر بنفسه يحلّق وسط أفكاره كأنها تحمله..

في الحلم حملتني أفكاري صوب القصر، لم تكن تلك كذبة جميلة..

ظلام هادئ، هناك نجوم، نسيم هواء بارد، يحلّق في الظلام..

كلمات دويل تتردد داخله..

بإمكان قصر الذكريات أن يكون أي شيء..

بيت.. مكان.. شخص..

لا تجبر أفكارك.. دعها تنساب إليك..

يحلق قاهر مغمض العينين وسط أفكاره..

هناك آخرون، أفكار خبيثة شريرة تحاول الهجوم وإطلاق السب

والقذف لتشويش عقله، مثل فرط التفكير وجلد الذات والقلق، لكن

يرددون ولا يسمعهم..

أفكاره الأخرى القادمة من مخيلته تواصل حمله..

هو الآن طفل في الحادية عشرة من العمر.. يسير في أرض خالية

كلا ليست خالية، إنها ملاءى، يبتسم الطفل، وينظر لنسخته الكبيرة

المحلقة وسط الأفكار فيبادله «داغر» الكبير الابتسامة ويهمس:

- لقد رأيتك رغم أني مغمض العينين.

- هنا نحن نتواصل بالأفكار.

يحدق «داغر» بنسخته الطفولية التي قالت له:

- ما حدث لك لم يكن خطأك، لا تلُمْ نفسك.

تطرف عين «داغر» بينما الطفل يكرر:

- ما حدث لم يكن خطأك..

تدمع عينا داغر..

«لم يكن خطأك»..

يجثو «داغر» على ركبتيه باكيًا ويحتضنه الطفل.. ثم يمسك يده

ويشير إليه أن يتبعه للملاهي..

يقول «داغر» الصغير:

- هنا أنا ساحر، بإشارة واحدة من يدي تحولت بقعة الأرض

الخالية لملاءى..

يتزايد استرخاء «داغر» الكبير، أفكاره الشريرة مثل «آيتن تصرخ

وتموت» تحاول الانقضاض عليه.. لكنها تقع في هوة سحيقة..

يرفع «داغر» الصغير يده ويقول:

- ليكن هناك ضوء.



@ART_OF_BOOK

وبدأ عزف موسيقى بالملاهي وعمت الإضاءة الأرجاء، دارت
الألعاب والرولر كوستر، وتحركت تمثال ضاحك لرجل
يرتدي القاموس، وهناك عربات طائشة تمرح معًا دون أحد يقودها،
وركب وتحرك في محورة الربط الصناعية، ضحك الذاغر الطفل وهو
يدور حوله، ثم عدا للأمام، لخيمة العرافة، قبل أن يقف في تردد
ينظر للذاغر الكبير، فنقل إليه الأخير أفكاره:
- لا تقلق من شيء.. نحن نمتلك كل شيء هنا.
وربما نحن لا نعلم حقيقة كل ما نمتلكه!..
وكان أحد الأفكار الشريرة قد انتابته، وهنا رأى الذاغر يدًا
مخلوقة تمتد من داخل الخيمة وتجذب الذاغر الطفل من عنقه، يصرخ
الذاغر الرعب وهو ينظر للعرافة التي خرجت من الخيمة بجسد ثعبان
وأربع أذرع، تتلوى كغولة قديمة من ألف ليلة وليلة، يصيح الذاغر:
- أنا لست خائفًا منك.
- أنت محق، أنت لست خائفًا.. لكنك مرعوب.
كان جسدها يتمايل وهي تتحدث، كأنها ترقص رقصة على ألحان
أنغام خفية، وصوتها كان جميلًا وساحرًا، به عمق وغموض صوت
الأنثى كما يجب أن يكون، وأضافت العرافة:
- لماذا أنت هنا؟
همس الذاغر الكبير وهو مغمض العينين:
- أبحث عن «راسبوتين».
تكرر الطفل الكلمة، قالت العرافة بصوتها الساحر:
- هو ليس هنا.. لكن أحدًا هنا يريد مقابلتك..
وأشارت العرافة بيدها للخلف وهي تُطلق سراح الطفل، واستدار

«داغر» حيثما تشير، لبيت المرايا..

- من يريد مقابلتك ينتظرك بالداخل.

«اتبع أفكارك».. شعر داغر بتلك الفكرة تمتلك جسده، وهمس

أشعر براحة بال، أريد البقاء هنا للأبد، أما «داغر» الطفل فلقد سار في

الملاهي، متجهًا لبيت المرايا، ودخل بفضول.. ثم طرقع بأصبعه فجأة

فوجد في يده مصباحًا، وقد كان يرتدي رداء الجني من قصة السندباد

ضحك كل من «داغر» الصغير والكبير، وحمل الأول المصباح وهو

يسير داخل بيت المرايا، نقل إليه «داغر» فكرة أخرى:

- احترس يا صغير، بعض الأفكار قد تكون مؤذية.

هزَّ الصغير رأسه وهو يسير داخل متاهة بيت المرايا، يرى عشرات

الانعكاسات لنفسه في كل صوب، وفوق إحدى المرايا وقفت

«جيهان» تحمل الرضيع، انتاب الألم رأس «داغر» وسقط أرضًا لتنهال

عليه الأفكار الشريرة ويجلس القلق فوق عنقه..

سمع الصغير صوت فحيح، طاك!، وبدأت المرايا تتهشم..

- أنا خائف.

يصيح «داغر»:

- اهرب.

يلتفت الطفل حوله، عشرات الانعكاسات له في كل صوب،

بعضهم مبتسم، بعضهم غاضب، بعضهم بلا تعبير وجه..

- اهرب.

«طاك طاك طاك»!

- لا أستطيع أن أجد مخرجًا.

يدور الصغير حول نفسه باكيًا، المرايا تتهشم، ثم تخرج يد

ذات أصابع طويلة وتقبض على عنقه، ومن خلف المرآة يقف

س...

- هذا مجرد كابوس، فكرة شريرة، اهرب.

يشهق الصغير، و«موسى» يضغط على عنقه، قدماه ترتفعان عن

الأرض، يزرقّ وجهه..

يلوي «داغر» فوق مقعده المتحرك وهو مغمض العينين، نحن

بح ما نفكر به، هل تذكر السيف العربي المعلق بجوار تمثال

الفارس ولوحة قطز والمغول؟ تذكّر اسم الفارس ولسوف تحصل

على السيف.. هيا..

أ..آز..آزوورد.

يجد الفتى سيفًا في يده فيلوّح به في وجه «موسى»، أو فكرة

«موسى» داخل عقل «داغر»، يتراجع «موسى» ذو الوجه الشاحب

للخلف، ويجري الفتى، وهو يصيح باكيًا:

- إنها متاهة، مرايا في كل مكان..

- سأجن، كلنا يقولها «داغر»، لو فقدتُ عقلي وضللتُ طريقي في

بيت المرايا سأجنُّ وأبقى حبيسًا داخل قصر ذكرياتي للأبد..

يبكي الفتى ويتعثر، يعدو وسط المرايا التي عكست مشاهد عدة

من حياة «داغر»..

جندي داخل خندق يرفع ساقًا مقطوعة..

لجيهان في ثوب الزفاف..

لمحمودة في غرفة الولادة..

سماء بلا نجوم..

- اتبع صوتي.

صوت هامس، يغمض «داغر» الصغير ويحاول تبين مص

الصوت:

- أين؟

يتردد صدى صوته عدة مرات، أكثر من اللازم، كأن هناك شيء

خفية تكرر صدى الصوت بخبث..

- اتبع صوتي.

صوت رقيق، حانٍ، يتبعه الطفل..

- أغمض عينيك كي لا ترى، واتبع صوتي.

يغمض «داغر» الطفل عينيه ويسير رافعًا كلًا من ذراعيه للأمام

يريد أن يفتح عينيه ليرى المشاهد المرعبة التي تعكسها المرايا..

- أنا هنا.. أنا هنا..

يواصل السير..

- أنا هنا.. لقد اقتربت.. سِرْ للأمام ولسوف أمسك يدك.. لا تف

عينيك.

يزيد من سرعة خطواته..

يدان تلمسان يديه، الأنامل تتعانق، تجذبه إليها وتحتضنه

خرج من بيت المرايا، يشعر بهذا جيدًا..

يفتح عينيه، ويرفع رأسه لأعلى لتبين هوية منقذته، كانت فتاة

قدمين تطفو فوق الأرض ترتدي جلبابًا لها عنق طويل ووجه

الناعمة، حملته لأعلى بقوة وفتحت فمها لتكشف عن صف م

الأنياب الطويلة..

يهز «داغر» الجالس فوق المقعد المتحرك رأسه يدفع الطفل

ـطاقة بقوة مفاجئة فتركه ليسقط ويقفز مبتعدًا عنها صائحًا دون أن

ـظر خلفه.

- داااااغر.

صوتها هذا، ساحر للغاية، يكاد يتوقف ويلتفت إليها..

- داااااغر.

يهز «داغر» الكبير رأسه مرة أخرى وينتفض.

يضع الصغير يديه على أذنه ويصيح:

- كلا لن أسمعك، لن أنظر في عينيك.

ويقاوم تلك الطاقة التي توهنه وتدفعه للعودة إليها، يقاوم يعدو

بعيدًا..

- داااااغر حبيبي.. تعالَ إليَّ..

يصرخ ويجري مبتعدًا، ويقول:

- أنا خائف.

- سنجد أشياء جميلة، عقلنا يمتلك أشياء جيدة كذلك، سحقًا

للأفكار الشريرة، أريد منك أن تصل لمقر قيادة الملاهي، أريدك أن

تتحكم بالمكان..

يبلع الصغير ريقه ويقول:

- حسنًا..

ويطرقع بإصبعه فيجد السيف مرة أخرى..

- هل ترى كابينة التحكم؟ غرفة القيادة الخاصة بالملاهي..

- نعم، إنها تقع بجوار بيت الرعب..

- اذهب إليها ولا تفكر ببيت الرعب.

يقبض الصغير على السيف بين يديه ويهمس:

- إنه ثقيل.

- كن قويًا.

- لا أستطيع حمله.

- أنت مالكه.

يحاول الصبي التلويح بالسيف، مرة، الثانية، ينجح في الثالثة..

هنا طرقع داغر الكبير بأصبعه، فأصبح الغلام يرتدي زي السندباد البحري..

- والآن إلى قمرة القيادة.

نظر الغلام لملابسه بغبطة وبدأ يعدو صوب قمرة القيادة...

عوااااااااااء رهيب قادم من داخل بيت الرعب..

صوت أقدام..

عويل مجنون لأرواح تُعذَّب في الجحيم..

«لا تنظر لبيت الرعب».

«أعتقد أنه هو من ينظر لي».

«واصل العدْو».

ويهمس «داغر» الكبير:

- يا إلهي.

فمن داخل بيت الرعب خرجت مسوخ عدة، بثياب رثة وأذرع ممدودة أمامهم، موتى أحياء، عائدون من القبور، يسيرون صوب السندباد البحري، وآمل «داغر» ألا يلتفت الغلام ويراهم، هنا ظهر قطيع من الغربان في السماء، ظهروا فجأة وبكثافة، وهجم أولهم على وجه الغلام ونقر عينه، صرخ الغلام ولوَّح بسيفه في جنون، غير مدرك

موتى الأحياء يشربونه، غراب آخر ينقر عنقه، وثالث استقر فوق

وينشب مخالبه في قوة رأس الفتى، أحد الموتى يصل ويحني

م من عنق الغلام وهو يجذبه بذراعيه..

السيزفونه إركا.. يهتف بها الداخل، وهو يهز رأسه بقوة متخفض

ثم صرخ داخل عقله، صرخ بقوة..

الآن معهم في الملاهي، سقط أرضًا من العدم يلتقط السيف

هو رأس المسخ، ثم يحمل الفتى بين ذراعيه من بين الغربان ويعدو

الغربان تلاحقهما، يا الهول سرعتها، يا بشاعة وجوهها، تخرج يد

الأرض الرطبة فجأة وتقبض على قدمه فيسقط هو والصبي، وتبدأ

ساحبة إليه في الحفر ليتخلل جسدها التراب وتحتل واقفة أمامه.

حدق الداخل إليها وهو يحتضن الغلام ويهمس مشدوهًا:

- الجيهان؟!

- هل افتقدتني؟

قولها له مبتسمة ثم تقترب منه، وتنشب مخالبها حول عنقه، يصيح

بألم.

- لوثت داخل قصر ذكرياتك ستظل جسدًا بلا عقل للأبد.

مخالبها تنغرز في عنقه، تجحظ عيناه وهو ينظر إليها، يهمس:

- لكـ... لكني أحببتك.

تقترب هي منه مرة أخرى، وتنظر بلامبالاة وهي تهم بتمزيق عنقه..

بالقدر الوحشية في لامبالاة من يهمون بتمزيق عنقك..

إنها النهاية إذن، روايته تكتمل.. سيموت هنا، داخل ملاوبناها

في عقله، ولسوف يظل جسدًا متخشبًا بلا عقل فوق مقعد متحرك بتلك

المصحة التي هي ليست مصحة حقًا، كل من حولك يموتون والآن

أتى دورك..

وداعًا يا «داغر»، كانت رحلة عجيبة، كذا يقولها لنفسه..

«إليك عنه».

يصيح بها السندباد وهو يهوي بالسيف ليقطع ذراع «جيها
ويحرر عنق «داغر» الذي سعل فجأة وبلا توقُّف..

مدَّ الغلام يده إليه وصاح:

- هيا.

وقف الاثنان، «داغر» الكبير والصغير، وجريا كأن الشي
يلاحقهما حتى وصلا لكابينة التحكم في الملاهي..

نظرا لبعضهما غير مصدقين، وهللا معًا ثم احتضن كل من
الآخر، لقد فعلناها، كذا ظلا يرددان..

هنا جذب الغلام طرف سترة «داغر» وأشار لشيء ما، المو
الأحياء لا يزالون يقتربون، «جيهان» واقفة تبتسم، الغربان اجتمع
حول قمرة القيادة.. مدَّ «داغر» يده صوب مفتاح التحكم، ثم تر
ونظر للطفل قائلًا مسترجعًا ما مر به في طفولته، لامبالاة أبيه، البُ
ليلًا، الحبس في غرفة المخزن، ذراعه المكسورة، جثة والدته تحد
به، فتية يوسعونه ضربًا في الشارع؛ لأنه أراد لعب «كرة شراب» معه
حدَّق «داغر» بنسخة الطفل منه ثم قال:

- لم يكن شيء أبدًا خطأك مما حدث، تذكر هذا، أنا هنا دومًا
أجلك أنت.

هزَّ الصغير رأسه دامع العينين، واحتضن «داغر» ثم هتف بفخر

- انظر إليَّ، لقد أصبحتُ السندباد وأنقذتك من الجرج
الشريرة.. غولة كل الغيلان..

ابتسم «داغر» ورد:

- أنت البطل هنا، ولذا عليك أنت تولي القيادة.

وأفسح مجالًا، تقدم السندباد البحري وضغط على زر التحكم، تغير كل شيء، بالملاهي، هناك أناس تضحك، لاعبو سيرك وجمباز، عرافة ودود تقرأ الطالع، صيحات وضحكات من يركبون القطار السريع و«الرولركوستر» تتعالى، فتاة تسير مع حبيبها يأكلان غزل البنات، وفتى بعطاد يتدقية في لعبة رمي الأسهم ويهدي حبيبه دبدوب، نور هادئ جميل ينير المكان كله، غمغم «داغر»:

- المشاهد التي تخيلتها دومًا في الملاهي، حسنًا.. لقد انتصرنا.. لقد فعلناها.. لقد تحكمنا بعقلنا وبالأفكار الشريرة.

ورفع ذراعيه مستنشقًا هواء الراحة النقية وقال السندباد بحماسة الأطفال:

- لم لا تبقى هنا للأبد؟ ألا تشعر بالسعادة الآن؟

مبتسمًا ربت «داغر» على رأسه، وقال:

- هناك أحدهم بحاجة إليّ..

ثم غمز للغلام مردفًا:

- لكني أعدك بأن أعود كل حين وآخر..

خرج «داغر» بعدها من الكابينة، بعض ملامح البشر مألوفة، رآهم من قبل في حياته واختزل وجوههم في ذاكرته، آخرون غرباء، وهؤلاء يتبعون لخزانة ذكريات لاوعيه على الأرجح..

دار بعينيه بحثًا عن «راسبوتين»، هيا يا رجل، لقد تحكمتُ في عقلي، وبنيتُ قصر ذكريات به وهزمت شيطاني الخاص، لماذا لا يأتي «راسبوتين»؟

يأمل أن يأتي ويحتل جسده بقوته العاتية، يتخيل «راسبوتين»، ه
الرجل الذي وثّق التاريخ مدى قوة ذكائه وجسده، يقولان إن عي
تنومان مغناطيسيًا، يستطيع حمل الأشجار وافتراس أي أحد بقو
عاتية، وفي الآن ذاته يستطيع هزيمة عقول العلماء والفلاسفة جمي
بجلسة واحدة..

لكن «راسبوتين» لم يأتِ..

حسنًا، عليه أن يتصرف هو، أشار للسندباد داخل قمرة القيادة
ونقل له فكرة سريعة فطرقع الأخير بأصابعه وفجأة ظهرت لافتة في
الملاهي تقول: عرض خاص جدًا، الرجل الهزيل يتحرر، ليصبح
الرجل الحديدي..

أخذ «داغر» نفسًا عميقًا آخر وقبضت يداه على جانبي المقعد
المتحرك بالغرفة البلاستيكية ثم همس:

- من أجلك يا «آيتن»، اصمدي يا فتاة، أنا قادم من أجلك..

وأغمض عينيه.. ويبدأ «داغر» يحاول الحركة، الوقوف، استعادة
طاقته الجسدية، وهو يهمس: «أنا بخير».

فقط عليه أن يُقنع عقله بتلك الفكرة ليقتنع جسده، أنا مؤمن بما
تقوله يا «كامل».. هيا..

تخيل للحظة إبان محاولاته للوقوف معلقًا رياضيًا متحمسًا
يجلس أمام مذياع، ويتحدث مع جمهور من الضباع يجلسون في
الاستاد:

- آه يا سادة انظروا، يا إلهي، من كان ليصدّق هذا؟ بعد جلسة
كهرباء وعقاقير، «داغر» يرفع يده ويحركها..

يهلل جماهير الاستاد وكذلك المشاهدون أمام التلفاز في بيوتهم



CS CamScanner

يرون «داغر» يحرك يده الأخرى..

- آه لا أصدّق، يحرك قدمه كذلك، كلا كلا كلا، لنرَ الإعادة معًا.

ونرى قدم «داغر» ترتفع من موضعها فوق طرف المقعد وتطأ

ض..

- لقد سحقوه، كهربوه وأعطوه العقاقير، وزجوا به في الزنزانة، يدًا قابعًا في تابوت، لكنه يحاول.. أوووه لقد رفع ذراعه.

يومئ «داغر» برأسه لتهليل الجماهير، بينما صوت المذيع بضيف ويصيح بطريقة ميلودرامية بعدما قفز من مجلسه ممسكًا بالمذياع:

- لقد وقف.. أوووه.. لقد وقف.

يعتدل «داغر» واقفًا..

تقترب صحفية شقراء من «داغر»، ترتدي قميصًا مفتوحًا جذابًا، تحمل «ميكروفون» في يدها.. تستند على كتفه وشعرها الذهبي يداعب وجهه، فيغمض «داغر» عينيه ويتشمم رائحتها ليتنعش قبل أن تسأله المذيعة في إعجاب:

- أخبرنا كيف فعلتَها؟

يبتسم «داغر» مشيرًا ويقول:

- نحن نصبح ما نفكر به..

- هل فعلتَها؟

يأتيه صوت كونان دويل من خلف الجدار..

- نعم.

- أحسنت.

هز «داغر» رأسه متجاهلًا ألمًا مراوغًا في عنقه، تنميلة في قدميه، لن يسقط، بدأ يتحرك ببطء، ثم يتمطّى ويشد قدميه كأنه يستعد لخوض

مبارزة، بعدها بدأ يعدو ويقفز في بطء، شاعرًا بدورته الدموية تتجدد
واندفع بعدها نحو باب الغرفة الموصد..
ووقف يتأمله محاولًا إيجاد طريقة لفتحه، لن يستسلم، ليس بعد
كل هذا، لم يعد هزيلًا، طريقة سيره، انتصاب جسده، شدة كتفيه، مستعد للقتال..

- آه.. مستر دويل.
- ليس من آداب الحديث أن تنادي هكذا يا فتى.
- اعذرني.
- أنا حائز على لقب سير من الملكة بالمناسبة.
- بالطبع، اعذرني، هل توجد طريقة لفتح باب مغلق؟
- توجد دومًا طرق لفتح أبواب مغلقة، لحظة هل تتحدث عن باب مادي حقيقي أم عقلي؟
- أخشى أني أتحدث عن الأول.
- حسنًا، لا توجد سوى طريقة واحدة، تُدعى مفتاح.
- تبًا.

***

طاك! طاك! طاك!

***

ينفتح باب الغرفة الطبية ويخرج منه الممرضان، تقود مسيرة الممرضة ممتلئة الجسد كقائد معتدّ بنفسه، وهما يحملان جسد "آن" المغشي عليها، يجران قدميها على الأرض جرًا، لم تكن مغشيًا عل... بل بعينين محدقتين وغافلتين بعد جلسة الكهرباء، بعض المرضى أطلوا بعيونهم من خلال فتحات أبوابهم؛ ليروا تلك الفتاة البا...



CamScanner

لقد أصبحت كدمية بلا عقل بين أذرع الممرضين، انحنى «داغر» كالملسوع لينثني ظهره وحدق بعينه من فتحة الباب عقب سماعه صرير الباب الحديدي وهو ينفتح، قلبه ينبض، كلا، كلا، ثم رآهما يحملانها ويرميها أحدهما للآخر، ثم يدير مزلاج غرفتها المجاورة لـ«داغر»، ويضع المفتاح ثم يفتح الباب.

«كلا كلا كلا»، ظل «داغر» يردد، الممرض الآخر كان يحمل «آيتن» بين ذراعيه وهناك جرح غائر جرت خياطته في أعلى جبينها، عيناها لائمتان، شاردتان، كأنها تراه من خلف الباب.. عينان تحملان نظرة خيبة أمل، حزن، لقد وعدتني بأننا سنخرج من هنا!

شعر «داغر» بالبلل في عينيه وهو يحدق بالفتاة، أدخلوها الغرفة وأوصدوا الباب، وخُيِّل لـ«داغر» أنه يسمع أحد الممرضين يهمس له من خلف الباب كأنه يعرف أنه يسترق النظر:

- دورك قادم..

انقبضت يد «داغر» بقوة، ثم اندفع صوب غرفة «آيتن» وقال:

- يا فتاة.. يا فتاة.. هل تسمعينني؟ انظري إليَّ، لقد تحركتُ.. لقد كنت ترجَّينني أن أعود وأتحرك وتدب بي الحياة والنشاط وقد حدث هذا، أرجوك.. أجيبيني.

كانت الممرضة اللعينة تمضغ شيئًا ما، لقد لمحها «داغر»، هل كانت تمضغ ما استأصلوه من مخ «آيتن»؟ تصاعد الحمض بداخله وأصابه إعياء مفاجئ، ثم وجم وجهه وهمس للجدار:

- سوف أفتك بهم جميعًا من أجلك.

لم يسمع سوى صوت أنفاسها الثقيلة، تتنفس بصعوبة، ويبدو له أن أنفاسها تقول له بسخرية مريرة:

- بالطبع، بالطبع وأنت دومًا تحافظ على وعودك مثلما أخرجتنا من هنا!

أغمض «داغر» عينيه للخلف.. ثم عاد وجلس فوق مقعده المتحرك.. وطفق ينتظر مرور الوقت..

***

تزأر العاصفة، و«كارم العدوي» داخل زنزانته يحدق بالفراغ ويتمتم:

- لو لم أعد للمصرف قريبًا، سيتأخر إرسال تقرير المدفوعات، ولو لم أعطِ المصروف لزوجتي ستوبخني كثيرًا.

وفي الخارج تهز الممرضة رأسها كأنها تسمع أفكاره، وتسير بسلاسة..

في غرفتها جلست «آيتن» في وضعية الجنين، بعنين شاردتين..

ظل «داغر» ملصقًا رأسه بالجدار يتحدث يائسًا مع «آيتن» لعلها تجيبه، يخبرها عن التحكم بالعقل وقوة الإرادة، ويرسم لها فرصًا وآمالًا، يتحدث بغضب ومقت وانفعال وحماس ويأس، مزيج عجيب من المشاعر التي بدت في طبقات صوته المختلفة، أو هكذا فكر الفأر إياه الذي خرج من جُحره ونظر لـ«داغر» رافعًا حاجبيه، التفت «داغر» للفأر وحياه بهزة من رأسه، ثم قال بإرهاق:

- لقد أيقظتك، أليس كذلك؟ آسف.

ظل الفأر ينظر لـ«داغر» الذي تابع:

- لماذا أنت وحدك؟ أين عائلتك؟ أم إنك مثلي؟

ثم طافت فكرة برأس «داغر» جعلته يضحك متابعًا:

- هل تصرفتَ بشكل غير ملائم في المدينة فجلبوك إلى هنا أيضًا

خضعوك لجلسات كهرباء وغيره؟ اهرب أيها الفأر المسكين، أو
ما أنت فأر تاريخي، لعلك كنتَ على كتف جنكيز خان جد هولاكو
نما سحق قطز جيوشه وقائدهم كتبغا في عين جالوت، رئيسة طاقم
تمريض هنا تذكرني بكتبغا المغولي.. هاها.. ربما أنت هلوسة
ريخية..

رفع الفأر رأسه بينما «داغر» يضحك ويبكي، رفعها كأنه يهم
قول شيء ما، فتوقف «داغر» عن الضحك وهمس مرتعبًا: «أرجوك
لا تتحدث، لا تتحدث، سأكون قد جننت تمامًا حينها»..

ظل الفأر رافعًا رأسه، كأنه يفكر في اتخاذ القرار، وتلاقت عيناه
مع عينَيْ «داغر»، ثم التفت الفأر وعاد للجُحر، في حين أطلق داغر
تنهيدة ارتياح..

أما «كامل» فقد التصق بباب غرفته وظل يصيح:

- لقد شفيت لقد شفيت.. أخرجوني من هنا أرجوكم سأكون
مطيعًا..

***

لا يعرف «داغر» كم من الوقت قد مرَّ، يشعر كأنه لا وجود للوقت
هنا، ربما كان هذا في اليوم التالي، انفتح باب الغرفة ببطء كأنه ستار
مسرح يفسح مجالًا لظهور مقدم العرض الذي سيعطي نبذة سريعة
عن العرض الجميل القادم ويقدم عبارات شكر وتقدير لمن ساهموا
في الأمر، كانت الممرضة هي التي تقف خلف الباب، لا داعي لذكر
أن الظلال تخفي وجهها بالكامل، مهندس الإضاءة الخاص بهذا
المكان عبقري بحق، انتابت الفكرة رأس «داغر» بسخرية مريرة، لكن
تلك المرة هناك شيء، يرى سيلويت أحدهم يقف بجوار الممرضة،

شخص لا يرتدي زي التمريض، وقالت الممرضة بصوت تمثيلي كأنها أكثر الكائنات الحية حنانًا:

- هناك زائر من أجلك، توصيات د. «موسى»..

ثم -بشكل مسرحي فعلًا- تحركت الممرضة وانحنت وهي تشير للمرأة جوارها، التي تقدمت خطوة للأمام وظهر وجهها لـ«داغر»، قالت «جيهان» لـ«داغر» مبتسمةً:

- هل أنت بخير يا حبيبي؟

•••

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ه ا.. ف ف»

# الفصل الثامن

كان المعلق الرياضي في رأسه صامتًا، وكذا الجماهير في الاستاد وهؤلاء الجالسون أمام التلفاز في بيوتهم يشاهدون ما يحدث، حالة صمت جماعي داخل رأسه، وهو ينظر لزوجته، حدَّق بها مذهولًا، تلك الابتسامة، العينان، هذا الجسد، رائحة العطر، القرطان المتدليان من أذنيها، شَعرها، خصرها الرشيق الذي لطالما أثار جنونه، دقات قلبه تتعالى، إذن هو فعلًا في مصحة، زوجته لم تمُتْ، وهذا يعني أن ابنه على قيد الحياة كذلك، و«موسى» ليس سوى طبيب يدير تلك المصحة، بدت تلك أكثر لحظة منطقية في حياة «داغر»، وهو يرى «جيهان» تقف والضوء يريه تفاصيلها الجذابة، ظل يُحدِّق بها.

ثم وقف ببطء، شاعرًا بتوتر كمراهق يرى فتاة للمرة الأولى في حياته، لم يكن هناك حتى داعٍ لسؤالها إن كانت حقيقية أم لا، هي حقيقية وتقف أمامه الآن، ظل يحدق بها، وهي تنظر إليه في تعاطف، ثم نظرت بحَيرة للممرضة، فهزت لها الأخيرة رأسها، آه تبًا، زوجته تخافه، قلقة منه، والممرضة اللطيفة تؤكد لها أنه غير مؤذٍ، يشعر «داغر» بحزن مفاجئ ويتهدل كتفاه، لكن «جيهان» تقترب منه، ببطء، بثقة، تلك الطريقة التي تجيدها النساء، وسألته برقَّة:

- هل أنت بخير؟

يرفع رأسه وألف سؤال يطوف به، هل أنتِ حقًّا حية؟ لماذا تركتِني؟ أين ابننا؟ ما الذي كنت تفعلينه طيلة تلك الفترة؟ لماذا تضعين رائحة عطر مختلفة؟

هنا بكى «داغر»، دفن رأسه في كتفها وانهمرت دموعه..

***

«آيتن» تسند رأسها للجدار، تسمع الحوار الدائر في الغرفة المجاورة محدقةً بالسقف، تهز رأسها كأنها تحاول قول شيء ما، وتدمع عيناها.. أصبعها يتحرك مرارًا وتكرارًا، راسمًا كلمة «كلا»..

***

في غرفة المقابلات جلس «داغر» أمام «جيهان»، يشعر بأن جزءًا من صدره قد تمدد من فرط قوة دقات قلبه، يا لجمالها وتفاصيلها الساحرة، لم يعد هناك صداع يداهم رأسه، لم يتحسس جيبه بحثًا عن علبة الدواء، شعر بأن هناك شمسًا في الأرجاء، بهدوء وسلام نفسي يغمره، ظلت زوجته تنظر إليه في صمت، نظرات بدت له كأنها إعادة تقييم، كلا.. إعادة استكشاف، ظل «داغر» صامتًا، ثم غمغم ببطء بشيء ما، بصوت متحشرج وصدر ثقيل، بوجه واجم وغصة في حلقه، مالت «جيهان» للأمام، غمره شعور غريب كأن عالمه كله يرتج، لشدة ما أراد احتضانها في تلك اللحظة، مدَّت عنقها الطويل وهي تنظر إليه بتساؤل فكرر ما قاله:

- لماذا؟

قالها مرة ثانية بصوت أعلى قليلًا.. والمعلمة داخل عقله كانت تعطي للمقاعد الشاغرة بالفصل درسًا بعنوان «لماذا ولِمَ وأخواتهما».

كرر السؤال للمرة الثالثة، بنبرة بها غضب..

- لماذا يا جيهان؟

بدأت تجيبه لكنه كان يفكر، شعر بأنه يتقمص شخصية أبيه، لقد مرت دهور من الزمن قبل أن يفكر بأبيه، لكنه وجد نفسه يتحدث

يقول ويسمع أفكاره بنفس النبرة، تلوّنت قسمات وجهه وهو يستمع

قائلًا:

- كثيرًا ما تتكرر جملة «لماذا؟» في أفلام الرعب.. تنطق بها ضحية المشعوذة وهي ترتعش خوفًا.. نظرة ذهول تتحول ببطء نحو الفهم تليه صدمة ما تم فهمه للتو. «لماذا؟» تقولها الضحية قبل أن يسحب القاتل سكينه من جدار معدتها، أو كان المهاجم مسخًا مستلبًا مثلًا فالضحية ستهلع ولكنها لن تسأل عن السبب.. هي تواجه قوة من قوى الطبيعة، وتلك القوى سواء كانت ذئبًا مفترسًا أم غولًا أم كائنًا شيطانيًا فالمسوخ يؤدي دوره ببراعة! «لماذا» يتم طرحها فحسب عندما يكون مصدر الأذى بشريًا مثلك..

يحاول «داغر» إيقاف الصوت الرتيب بداخله، فم «جيهان» يتحرك، هي تتفوه بأشياء عدة يريد أن يسمعها، لكن الصوت بداخله يكمل:

- وتتكرر كثيرًا جملة «لماذا» في العلاقات بنفس الطريقة، قد يقولها أب في محكمة الأسرة وهو يلوح دامعًا لابنته أو تنطق بها أم وحيدة في بيتها بعد رحيل أبنائها، قد يقولها عاشق تركته فتاته أو العكس.. وكما في أفلام الرعب يلوح السؤال في الأفق بلا إجابة.. علمًا أن الحب مثل المسوخ، كالمستلب والكائن الشيطاني، هو مسخ بارع جدًا.. أمير دهاء.. يتخفى في صورة توقعات جميلة بمتعة ودفء ومشاركة.. وكأي مسخ يحترم نفسه، مثل النداهة، سيعلن عن وجهه القبيح فور أن ترتمي بين أحضانه، لا تقل لي من فضلك إن الحب ليس مسخًا مريعًا..

هزّ «داغر» رأسه، فبدت خيبة أمل على وجه «جيهان» وتهدج

صوتها، كانت تنظر له بقليل من الخوف وقالت في تأثر:

- هل رأيت؟ هذا ما أقصده، أنت لا تستمع إليّ الآن، فقط تهز رأسك وتتحدث مع أصوات لا يسمعها غيرك، أنا لم أتركك سوى لأنك قد أجبرتني على هذا.

تحولت عيناه من الشرود إليها وفكّر: «كم هي جميلة، نعم أ مخبول، ولكن لكم هي جميلة».

مسحت «جيهان» دموعها متابعةً:

- ألا تتذكر ما الذي حدث؟ الشك والارتياب، مشاجراتك مع الجيران وأوهامك المستمرة، لقد كنت تعتقد أن الكل يراقبك ونظراتهم تسخر منك، كل الناس، ودومًا واجم، حتى في اللحظات التي يجب أن نسعد بها، يتحول مزاجك فجأة من رائق لمكتئب، ألا تذكر ما حدث؟ لقد عزوت السبب في البدء لما حدث في طفولتك، ولكن.. لم أعد قادرة على الاحتمال.. تلك «البارانويا»..

ينظر لها في اضطراب وحيرة، هناك صوت يصرخ داخل عقله: «ساقطة، لا تصدقها، هي كاذبة، تريد إشعارك بأن الأمر كله يقع على كاهلك وأنت الملام، لا تنس ما حدث»..

يحاول «داغر» إخراس هذا الصوت، ألم رهيب ينتاب رأسه، ما الذي حدث في طفولته؟ والده يجلس صامتًا، هناك دمية، والدته تصرخ في جنون وتُعلّقه مقيدًا في الخزانة، والده ينظر له في حزن، حزن مفتعل كنظرة أسى وشفقة تعطيها لخبر ما حزين بالجريدة ثم تتناسى الأمر كله، طفل وحيد لأم تعاني من الاضطراب وأب ليس موجودًا حقًا، يرقص الألم داخل عقله بكل حرية مرتديًا بذلة رقص فاخرة.. شفتا «جيهان» تتحركان، وتدور الدنيا من حوله..

يسمع بعض ما تقول، لكن الأصوات في عقله لا تسكت أبدًا..

بارانويا..

جنون ارتياب..

شك..

لا أم.. لا أب.. لا زوجة.. لا ابن..

هم يراقبون..

إذن فقد كان هو من يتحدث بلسان القبطان عن كون الاكتئاب غير حقيقي وليس سوى خدعة لبيع الأدوية، وكيف أن الأطباء ليسوا بأطباء حقًا، وهناك منظمات خفية تدمر الزيجات، هم دومًا يراقبون، يشعر بأعين محدقة به في الظلام..

السندباد البحري جالس داخل قمرة القيادة في الملاهي، آه يا إلهي أنا مجنون، لم أكن محقًا، أنا أمتلك عقلًا ممتلئًا بالثعابين..

- سوف يطلقون سراحك.

أنا مجنون، في أي زمن نحن؟ أين أنا؟

توقفت أفكاره دفعة واحدة ونظر إليها، بدت إليه كشخصية في رسوم متحركة وهناك بالون يخرج من فمها لكن دون كلام مكتوب بداخله. قال:

- ماذا؟

كررت:

- سوف يطلقون سراحك.. رسميًا أنا ما زلت زوجتك، أنا مستعدة لإعطاء فرصة ثانية من أجل «محمود».. لكن.

كانت يداها ترتجفان، ابتلع ريقه وحدق بها، خندق.. صوت قذيفة.. بوووم! أين ساقي؟ هز رأسه وقال دامع العينين:

- لن أخذلكِ، سأكون مطيعًا، سوف ترين، لا أفكار مجنونة، لن أفكر على الإطلاق..

لا يتذكر جيدًا ما الذي حدث بعد هذا، ترك جسده يسترخي، والعالم يدور من حوله، زوجته تُوقِّع على تعهُّد ورقي للمصحة، لم يرَ سوى ممرض آخر، لم يتبين تفاصيل وجهه، تلك الظلال اللعينة. لكن هذا الممرض يُحضر له ثيابه، قميص أزرق وسروال قماشي، لم يعد يرتدي السترة السوداء، هل هم حقًا في موسم الشتاء؟

لا مزيد من الأفكار المجنونة يا رجل، يقف بساق ترتعش قليلًا بعد وهلة سيكون في بيته مع زوجته وابنه.. حياة طبيعية.. لا يصدق سرعة تغيُّر مجرى الأمور..

ينتهي من ارتداء ملابسه، يسير معها في ردهة يقع في نهايتها با مكتوب عليه: الخروج..

يعتمل الانفعال في صدره، الأصوات تتصارع في عقله لـ يجاهد من أجل إسكاتها..

تظاهر بالثبات.. بالجمود..

نعم لقد بدأ يتذكر، لقد كان يسكن قلبه غضب مفاجئ في حـ السابقة، إزاء نظرة عشوائية من بائع أو مار بالشارع..

كان يُحصِّن بيته تحصينًا، وأحيانًا كثيرة يتكور على نفسه ويـ أسفل مقعد المكتب، أحيانًا يغفو هناك كذلك وهو مقتنع بأنهم مرا وحتى مكالماتهم الهاتفية يتم تسجيلها.. يتكور على نفسه أكثر أ مقعد المكتب مثلما اعتاد أن يفعل وهو طفل محاولًا الاختباء من غضب والدته العاتية..

أبيها القائد الصغير»، ثم يهوي الحزام الجلدي على وجهه.. من الغريب أن يهوي الحزام على وجه أحدهم، هو مخصص للمؤخرات والأقدام لكن هذا ما كان يحدث معه..

ينظر لـ«جيهان»، ملاك جميل ورقيق يسير بجواره، وتمد يدها لتحتضن أصابعها بيده..

وتمد يدها الأخرى لتفتح باب الخروج، يتخيل ضوء الشمس الذي سينعكس على وجهه ويبتسم لها..

***

تهز «إيمن» رأسها، كأنها تحارب لكي تنطق، وتحيط رأسها بذراعيها.

***

السندباد البحري يشير بشيء ما من داخل قمرة القيادة في الملاهي.. لا يفهم «داغر» إلام يشير بالضبط؟ يحاول السندباد النطق بشيء ما لكن ضوضاء الملاهي تحجب صوته، بدا لـ«داغر» أن شفتي السندباد تقولان: قميص زوجتك!

***

تمد «جيهان» يدها صوب باب الخروج، وتتسع حدقتا «داغر» وهو ينظر لطرف قميصها الذي انكمش للخلف وللجزء العاري من ذراعها، بالأحرى لجلدها الذي كان يتموج كأنه لا يزال يتخذ لونًا بشريًا.. يشهق داغر ويتراجع للخلف، تلتفت «جيهان» نحوه، ثم تطلق فحيحًا وتكشر عن أنيابها، وترفع رأسها لكاميرا مراقبة ما وتشير إلى «داغر» قبل أن تصرخ صرخة جعلت «داغر» يسقط أرضًا، كأنها تبتلع الهواء كله، كأنها ضبع! ينظر إليها «داغر» بذهول، تتراجع «جيهان»

للخلف ويختفي وجهها خلف الظلال..

كانت تتحدث، بلغة لم يسمعها من قبل.. أحرف مقلوبة.. بدت كلغة تحدث بها الشيطان عندما أتى للأرض في مرته الأولى.. ارتجف «داغر».. عقله قادر على توهُّم الكثير، لكن الإتيان بلغة كتلك، هذا مستحيل..

يزحف «داغر» للخلف.. وهو يتمتم: «زوجتي ليست بزوجتي»..

من الظلال عاد وجه «جيهان» للظهور، صرخ «داغر» وهو ينظر لملامحها، واستدار للخلف، رأى الممرضة تهرع إليهما..

المرضى في حالة هياج من خلف أبواب العنابر..

الممرضة تقترب.. لكنها ليست حقًّا ممرضة أليس كذلك؟ لا توجد ممرضة تقفز على أربع وعيناها تتلونان كأعين الحرباء...

وأمام عينيه يرى ذيلًا ينتهي بجرس كالثعابين ينسلُّ بنعومة وسرعة من ظهر زوجته ليلتف حول عنقه، ويبدأ طرف الجرس في دخول فمه، تتسع عينا «داغر» ويختنق، الممرضة تقف خلفه كأنها تؤمِّن المشهد فحسب، وتهس بدورها، تتسع عينا «داغر» في رعب، سيموت الآن، دون أن يعرف حتى هل عقله هو ما يقتله أم إن ما يحدث حقيقة، لربما هو يصارع الهواء أمام وجه «جيهان» المرتعب..

يظهر وجه «كامل» من الفتحات الضيقة خلف أحد الأبواب.. ينظر لما يحدث.. يرتفع حاجباه ويمسك برأسه بألم لثوانٍ.. يقول شيئًا من طراز: أنا لم أكن مخبولًا.. ثم يصيح:

- ثِقْ بعقلك اللعين أيها الوغد الأحمق، أنت لم تختلقني.. غايتهم الوحيدة أن تشك بنفسك.

لم تبدُ تلك كغايتهم الوحيدة لـ«داغر»، وهناك ذيل ثعبان يخنقه..

حاول عقله التملص من أهوال ما يحدث وفهم الواقع.. هو لم يخيل «كامل»، إنها مجرد صدفة أن كليهما تعرَّض للعنف من قبل أمِّهِ، نعم، هو.. أخ.. يتراخى جسده تمامًا، يدرك جيدًا أن هذا الذيل الملتف حول عنقه قد بدأ في الوصول لبلعومه، الوداع يا «داغر»، ستظل دومًا الرجل الذي لم يفهم شيئًا..

هل هذا ممرض يزحف فوق السقف كالسحلية؟

يغمض «داغر» عينيه..

«رئيفة».. «شهد».. لم يمت كل من حولك بعدُ.. «كامل».. «آين»..

سوف أجد ساقك..

يعطيه السندباد البحري سيفًا..

يفتح «داغر» عينيه ويرفع ذراعيه ليقبض على الذيل ويستخدم البديل الوحيد لسيف السندباد، أسنانه!

يقضم داغر طرف الذيل بجنون..

تغلَّبْ على الرعب والصدمة ولربما تنجو، رسالة على ورق عاج من هارون الرشيد وقد أعطاها للسندباد لكي.. آه كف عن هذا العبث واقضم الذيل، تتلوى زوجته في ألم وهي غير مصدقة أنه يقاوم، وتسحب ذيلها، تندفع الممرضة نحوه ويتحرك الآخر، الرجل السحلية، لكن «داغر» يهب واقفًا ويعدو، يداه ترتعشان، يفكر أنه سيهرب ويفتح كل أبواب العنابر ليحرر المرضى، مجرد حماسة الفكرة واحتمالية نجاحها أشعرته باحتمالية الفشل، وانتابه وهن وثقل

مفاجئ، يتراخى جسده، سيقفز عليه الزاحف من على السقف، من هؤلاء؟ هل هو في الجحيم؟ «كامل» يضغط بوجهه بين قضبان الباب وتجحظ عيناه، بدا أنه سيلتحم مع الباب من كثرة حماسته وهو يصيح:

- قاااااااااوم.. أنت تصبح ما تفكر به يا لعين.

كان «داغر» يدرك جيدًا أنه لو لم يحدث شيء الآن فلن يحدث أبدًا، سيفتكون به وينتهي به الأمر في تلك الدوامة من العذاب، ثوانٍ معدودة تفصلهم عنه.. لا تفكر في الأمر، فقط افعله.. وبسرعة لم يتخيل أبدًا أنه قادر على الوصول إليها، يهبُّ ويعدو بعيدًا عنهم، ويده تمتد لتفتح كل مزلاج يستطيع الاقتراب منه، يفتح أبواب العنابر وهو يجري دون أن يلتفت خلفه، الرجل السحلية يلتحم به فيسقط «داغر»، يرى البعض يندفع من العنابر، في نفس اللحظة التي رفع فيها الممرض مخلبه ليغرزه داخل عنق «داغر»، أم ربما هناك مجموعة من الممرضين تكبل «داغر»، وهذا الرجل بصدد إعطائه حقنة مهدئة بعد نوبة الهياج التي أصابته وأخافت «جيهان» المسكينة؟ ليته يعرف..

يرفع رأسه رغمًا عنه بينما الممرض يوشك على قتله ويلمح هذا الرجل المحاسب، متربعًا القرفصاء في زنزانته يحدق بما يحدث بعينين زائغتين، ما كان اسمه؟ «كارم العدوي».. يحدق «داغر» بـ«كارم» ويصيح:

- أفِق..

«كارم» كان يردد:

- لو لم أرسل تقرير المدفوعات فسوف...

«داغر» يصيح.. المرضى يهللون..

يغمض «كارم» عينيه.. الفتاة تسقط من شرفة الملجأ..

لم ينقذها.. الفتاة حقيقية.. والتقارير وهم..

يخفض جسد الكارما.. ويحدق فيما يحدث من حوله.. يرى
ثة في هيئة بشرية موشكة على اقتلاع عين رجل..

يصيح الكارما.. ويشعر بشخصيته تعود إليه في جزء من الثانية..

يندفع الكارما خارجًا من أحد العنابر ويحيط عنق الرجل السحلية ى قبل انغراز المخلب في عين الداغرا، يهب الداغرا واقفًا ويحدق الكارما الذي يدور حول نفسه بكل ثقل جسده استدارة كاملة ويلقي ن المعرض، ثم يتراجع الاثنان وسط الهرج والمرج، هناك نظرة ة في عينيه، ثم قال بنبرة شبه واثقة:

- لم أكن مجنونًا.

صيحات.. مرضى يندفعون.. صوت همس.. هناك حالة شغب في المصحة يا سادة، ينظر كل من الداغرا والكارما الرئيسة طاقم التمريض وهي تمزق جسد أحد المرضى إربًا إربًا بذراعيها، يهتف الكارما وهو يجذب الداغرا من كتفه:

- لنخرج من هنا.

يتراجع كلاهما للخلف، الممرضة لم تعد ممرضة، هي شيء يتحرك بسرعة خاطفة ويمزق الجميع، يشعر الداغرا بالندم لأنه رجهم، بعضهم يهرب، الآخرون يسقطون، يرى هذا الشبح البشري الذي كان يرتدي وجه الجيهان وهو يبحث عنه، يندفع الكارما للخلف مرددًا:

- هناك دومًا ثغرة.. مَخرج.. يجب أن أجد المَخرج..

يحدق بعينيه ثم ينظر للسقف ويقفز متعلقًا بفتحة تهوية، يزيد من ضغط جسده..

- اللعنة أيها اللعبة..

«جيهان» تقترب.. «داغر» ينظر إليها مشدوهًا ويبحث في الوق
ذاته عن «آيتن» في استماتة..

تنفتح فتحة التهوية ويسقط غطاؤها المعدني، فينزلق «كار
بداخلها بعدما يثب بكل ما أوتي من قوة..

«داغر» يجد «آيتن».. يهزها بقوة وهي تحدق بالفراغ.. وهنا
ممرض زاحف على الحائط يهرع إليهما..

يثبت «كارم» من نفسه داخل الأنبوب المستدير ويطل برأسه بح
عن «داغر»، ليجده يقف ملتاعًا حاملًا «آيتن» بين ذراعيه بينما هنا
ممرض آخر يحاصرهم.

- هنا..

يصيح «كارم»، ويمد ذراعيه صوب «داغر»، ينظر الأخير لـ«كار
ويندفع صوب فتحة التهوية، المسخ الذي كان زوجته يقترب ويهم
تكاد «آيتن» تنزلق من بين ذراعَيْ «داغر»، يكرر لنفسه: أنا لست هزيلًا
كل هذا يحدث بسرعة خاطفة، افعل الأمر دون أن تفكر ب
لو كان قد فكر لتردد ولما حمل «آيتن»، وربما لم يكن «كارم» ليج
فتحة التهوية بدوره، يصرخ أحد المرضى بينما الممرضة تنتزع ذرا
فتنهمر نوافير دماء من جانبيه وهو يخر أرضًا، ترفع «آيتن» ذراعي
ويسحبها «كارم» بقوة، رئيسة طاقم التمريض ترفع رأسها بوحش
وتنظر لـ«آيتن»، وصاح «كارم»:

- تلك المرأة، إنها حرباء آدمية.. حقيقة لا مجاز.. يا إلهي.

تتحرك الممرضة بسرعة خارقة نحو «داغر» و«آيتن»، لكن «كام
-الذي خرج من عنبره وسار وسط تلك المجزرة ضاحكًا في جنو
ينقض عليها وهو يعض عنقها بجنون، يرى «داغر» المشهد المروع

غير تصديق، العراف ذو العين الواحدة بدا أشبه بقرصان يسعى للثأر وهو يهاجم تلك الحرباء، يمص «كامل» دم الممرضة من فمه ويغرز أصابعه في تجويف عينيها، تنتفض هي وتسقط أرضًا، بدا أنها لم تتوقع هذا الهجوم الغادر من خلفها، وتدفقت الدماء من عنقها وعينيها، في تلك اللحظة تمنى «داغر» أن يكون ما يحدث حقيقيًا، وإلا لكانت هناك ممرضة بشرية تم تمزيق عنقها واقتلاع عينيها من قبل مريض، لكنه يعلم أن ما يحدث حقيقي، يرفع «كامل» رأسه عن جسد الممرضة ويصيح بـ«داغر»:

- اهرب، من أجل «سيلين».. كن حيًا.. وتذكرني دومًا، صديقك..

يهم «داغر» بقول شيء ما على غرار:

- سآخذك معي.

لكن رأس «كامل» ينشق عن جسده، هناك أوردة متدلية ونافورة دماء وجسد يرقص لثوانٍ بلا رأس قبل أن يتهاوى، وتحمل «جيهان» رأس «كامل» بين ذراعيها، بينما ينقض باقي المرضى على الممرضة التي سقطت تنزف من عنقها، لقد سقط الأسد جريحًا، وأصبح فريسة، تنظر «جيهان» بوجه غير بشري على الإطلاق، لـ«داغر» وتهس ثم تقول:

- أنت أجبرتني على هذا، لقد اخترتَ هذا الطريق..

يقفز «داغر» متعلقًا بذراع «كارم»، ويجد نفسه يحبو خلف «كارم» و«آيتن» في أنبوب التهوية، ثلاث فئران يهربون من أهوال تلاحقهم.

●●●

سوف أجد ساقك

●●●

يلتـف ذراع حول سـاق «داغر» ويجذبه للخلـف، يلتفت للخلف وهو يصيح:

- إليكِ عني.

تهس «جيهان» وتستطيل أنيابها، يركلها «داغر» بقدمه وهو يردف:

- أنتِ لستِ زوجتي.

يرتـدُّ رأسـها للخلـف ثـم تنقـض عليه مـرة أخرى، لكنـه يزحف مبتعدًا، ثم يرتد صوبها بقوة دفع ذاتي ويركلها، تقبض بقوة على قدمه، صوت الهسيس هـذا، تجذبه بقـوة تجاهها.. من خلفهـا مدخل فتحة التهويـة وأيادي المرضى تتقافز في الفراغ، فقط لو اسـتطاع دفعها نحو تلـك الأيـادي.. هي تجثم فوقه، تغـرز يدها في صـدره، بقوتها العاتية ستهشـم ضلوعه وتزهق قلبه و.. يستجمع قوته كلها ويكور جسده، ثم يدفعها بقدميه للخلف، تلك المرة ترتد للخلف قليلًا، وتهس مستعدةً للانقضـاض مرة أخرى، لكنه يغمض عينيه ويضع يديه أمامه وهو يقفز كسباح موشك على الالتحام بالمياه، يسقط فوقها وتندفع هي للخلف وينسـاب شعرها كله من فتحة التهوية.. تكالبت عليها عشرات الأيدي الغاضبة، تجذبها من شـعرها وفروة رأسـها ووجهها، تتسـع عيناها في جنـون.. لكـن «داغر» يجثم فوق جسـدها ليعيق حركتهـا، لو تحررت ستفتك بهم جميعًا، ذيلها يبحث عنه كسهم متأهب، ينقض نحو رأسه، يتفـاداه «داغـر» بارتدادة قوية خلعت كتفه، انسـاب ألم مـن عنقه لباقي جسده وتخلى عن جسدها، لكنها كانت قد توقفت عن الحركة حينها، صرخ «داغر» وهو يمسك بكتفه، يتوقف «كارم» عن الزحف عند سماع صرخـة «داغر»، في نفس اللحظة يتحامل «داغر» على نفسـه وينظر لما تبقى منها، لقد جذبوا فروة رأسها دون مبالغة، يشيح «داغر» بوجهه في

يزن؛ هل ماتت؟ هل مسعود؟ يصل إليه «كارم» ويجذبه للخلف فيتأوه «داغر» من كتفه المخلوع، «آيتن» تنظر لهم في رعب، يضغط «داغر» في ألم:

- جحيم، كابوس، لا أجد وصفًا آخر لما يحدث.

- من كانت هي؟

- زوجتي.. على ما أعتقد.

- لم يدعِ أحد من قبل أن الزواج أمر سهل، ولقد أنهيت زواجك بشكل رقيق جدًا لو أردت رأيي..

يقولها «كارم» ثم يضيف:

- لو لم نرحل من هنا سنهلك.

- كتفي.

- ثبّت نفسك فوق الجدار.

وقبل أن يفهم «داغر» ما حدث ضربه «كارم» بلوح كتفه بقوة، يصرخ «داغر» مرة أخرى في ألم..

- تلك الطريقة الوحيدة التي أعرفها لإعادة الكتف المخلوع لمكانه، والآن هيا بنا.

رغم آلامه الرهيبة يتبع «داغر» كلًا من «كارم» و«آيتن» حبوًا داخل نفق التهوية، هل قتل «جيهان» وترك المرضى يخرجون من عنابرهم ليقتلوا الممرضين؟ أم إن «جيهان» وطاقم التمريض ليسوا مسوخًا وضباعًا بشرية؟ وهم ليسوا مرضى مصابين بالشيزوفرانيا يسعون للهرب من المصحة؟

- هل نحن مجانين؟

يقولها «داغر» بحيرة..

تلتفت «آيتن» له فجأة ثم تتحدث، لدهشته تفتح فمها وتخرج منه كلمات أخيرًا، تقول بنظرات متوعدة إياه كطفلة تنظر لأحد الكبار بعدما خالف عهده:

- أنت وعدتني، ظللت تعدني طيلة الليل أننا سوف نخرج من هنا.. إياك أن تشك مرة أخرى..

انتفض عند سماع صوتها مرة أخرى، وتذكر رأس «كامل» المقطوع.. «كامل» العراف الذي عرف أكثر من اللازم.. سيُخرج تلك الفتاة من هنا تحت أي ظرف..

ويواصل ثلاثتهم الزحف مبتعدين، ومن خلفهم يتعالى صوت الصراخ..

ثم ساد الصمت فجأة.. صمت مفاجئ كهذا الذي يلي لحظة انقطاع الكهرباء.. ثم سمعوا الصوت...

«طاك طاك طاك!»

هنا رفع «داغر» يده بالصمت، هناك ضوء خافت منبعث في أنبوب التهوية، لكن كلًّا من «كارم» و«آيتن» تبيَّنا جيدًا ما يبغيه «داغر» منهم، صمت تام ومطلق بعينين متسعتين ذعرًا، «طاك»!

لقد وصل «موسى»، ولم يعد هناك صوت ضجيج، لقد انتهت حالة الشغب، لعل كل المرضى أشلاء ممزقة الآن، و«موسى» يبحث عنهم، «طاك»..

«موسى»، الذي أتى من البئر السحيقة، هذا الكائن الشيطاني، «داغر» يعلم هذا الآن، يوقن منه، «موسى» ليس بشريًا، هو وعاء للأرواح الشيطانية كما قال «كامل»، وكما أكدت روح «رشيدة»

طفلين! في جلسة تحضير الأرواح، وتلك المصحة ليست سوى وزر في الجحيم، «موسى» كائن شيطاني وخاطف للأرواح، وهؤلاء المرضون لم يكونوا سوى مسوخ من عالم «موسى»، كلهم أتوا من البئر، عالم سفلي، تحيا به تلك الكائنات، يخرجون لأخذ البشر وتعذيبهم، لعلهم يتلذذون بالألم البشري، هذا هو التفسير الوحيد الآن لكل ما يحدث.. «موسى» الذي يخطف أرواح الأحياء عبر المرايا ولذا يغطونها..

يرى العالم كله على شاكلة فم «جيهان» وشفتيها تهمسان:
بارانويا.. جنون شك.. ارتياب.. شيزوفرانيا..

تمد «آيتن» يدها وتجذب مرفق «داغر»، يتحرك ثلاثتهم في حرص محاولين عدم إصدار صوت..

«طاك»..

وصلوا النهاية نفق التهوية ورفع «كارم» رأسه لأعلى هامسًا بصوت كالفحيح:

- سيكون هناك مَخرج، منطقة لتفريغ الهواء..

لم يعد هناك ضوء، فقط ظلام محدق بهم، وخُيِّل لـ«داغر» أنه يرى عينين تومضان في الظلام

«طاك!».

يتحسس «كارم» طريقه وسط الظلام مردفًا، كأنه كان يحدث نفسه لتبديد مخاوفه:

- سأحاول خفض صوتي قدر الإمكان، آه ها هو ذا طرف الفتحة، أين كنت؟ آه نعم.. لقد تظاهرت أمامهم بأني أصدق أني مخبول، الأوغاد كادوا أن يُقنعوني بالفعل، هيا انفتحي، آه.. هناك ضوء، إنها

تنفتح، لا أعلم من هم بالضبط لكنهم ليسوا بشرًا.. أنا أتحدث كي لا أجن.. هاها.. هناك منطق في محاربة رجل سحلية أكثر من كوني أرسل تقارير لمديري وأتلقى توبيخًا من زوجتي لكوني مبذرًا!

يمد «كارم» ذراعيه ويزيح الغطاء ثم يرفع جسده لأعلى، يغيب قليلًا، وتهمس «آيتن»:

- أنا خائفة.

يحاول «داغر» تحسس موضعها، ثم يحتضنها في الظلام، محاولًا بث أي طمأنينة بها..

ماذا لو كنت تحتضن «موسى»؟ يقشعر بدنه للفكرة، ثم يحاول طرد الفكرة.. يأتيهم صوت «كارم» الهامس:

- هناك تربة طينية تعتلي الفتحة، أنا أحاول أن أزيح التراب، آه يدي تتخلل تربة طينية، هناك أمطار ورياح.. لقد خرجت.. نصف جسدي على الأقل، يا إلهي، هناك شواهد قبور، لا تجزعوا، لكننا كنا في مقبرة، ولم نكن في مصحة نفسية!

@ART_OF_BOOK



CamScanner

# الفصل التاسع

ربما بعين الخيال يمكننا تخيُّل المشهد التالي..

عاصفة هوجاء وأمطار غزيرة.. شواهد قبور.. وأرض طينية يرج ثم يخرج من أسفلها ثلاثة أجساد يكسوهم الطين فتغسلهم الأمطار، يتلفتون حولهم.. ينضمون لبعضهم.. أحيانًا يصيحون.. يبكون.. يضحكون.. يعدون.. يسيرون حتى يخرجوا من المدافن.. يتوقفون وينظرون إليها للمرة الأخيرة، كأنهم يريدون التأكد مما تراه أعينهم..

ثلاثة يسيرون في قلب الليل.. على مشارف مدينة لا تضيء سماءها نجوم..

يتلفتون حولهم، ينظرون خلفهم، يستريحون فوق رصيف.. يواصلون السير..

ثلاثة مجاذيب.. ثلاثة هاربين.. ثلاثة أحياء... رجلان وفتاة..

يمر بجوارهم حنطور تعقبه سيارة قديمة الطراز..

يعبرون الشارع بينما المارة يسيرون من حولهم برتابة..

يغمغم «داغر» بشيء يدوي عليه هزيم الرعد، فتنظر له «آيتن»، يكرر وهو يرفع نبرة صوته قليلًا لجذب انتباه «كارم» الذي كان يحدق بدار عرض سينمائية:

- حاولوا ألا تتصرفوا بالكثير من العاطفية.

ردَّ كارم بينما عيناه ترتكزان فوق ملصق فيلم العرض الأول:

- ما الذي تعنيه؟

- كل من كانوا بالمصحة النفسية أبدوا عواطف جياشة إزاء شيء ما فتم نقلهم هناك، من يسير في تلك المدينة وهو متبلد المشاعر يتركونه لحال سبيله، من يبدي انفعالاً عاطفياً يأخذونه حيث جلسات الكهرباء والعنابر في المصحة، هل ترون أحدًا يتشاجر من حولنا؟ أو أطفالًا يلهون مثلًا؟ هل ترون عاشقين يضحكان؟ الجميع يسير برتابة ووجوم.. أنا نفسي كنت مثلهم قبل رؤية القبطان، مشغول بأموري الخاصة..

- إذن فمن يطلق العنان لعواطفه يُجَنُّ.. هل هذا ما تقوله؟

- كلا.. ربما أنا مخطئ.. لكني أعتقد أنهم يراقبوننا.. أو يحتون.. أعتقد أنك لو أظهرت عاطفة واختلفت عمن حولك سيتم أخذك لإخماد طاقتك.

- حديث فلسفي مبالغ فيه.

تمتم «كارم» بقليل من السخرية، لكنه لم يدَعْ تلك السخرية تعيقه عن الاستماع لنصيحة «داغر»، فتلفَّت حوله وبدأ يقلد تعابير وجوه وطريقة سير من حوله لعله ينجو، ثم تذكَّر ما كان يشغل باله، فألقى نظرة أخيرة لدار العرض السينمائية وهز كتفيه بعدم فهم.. أما «آيتن» فكانت تستمع لحديث «داغر»، لو اختلفتَ عمن حولك سيأخذونك ليخمدوا شعلة طاقتك، ولو لم تفلح جلسات الكهرباء فلسوف يأخذون جزءًا من عقلك كما حدث مع ابن خلدون..

وهكذا سار الثلاثة، يحاولون عدم إبداء أي عاطفة..

يختلس كل منهم نظرات الارتياب لمن حولهم..

وفكرة واحدة تحتل عقولهم.. ترى مَن مِن هؤلاء بشر وتقليد؟ هل يتخلص بائع الجرائد الورقية من قناعه البشري ليكشف عن وجه

ضيع؟ هكذا فكرت «آيتن» وهي تمر بجوار منصة الجرائد الورقية، أم إنه الرجل ذو البدلة الأنيقة الذي يتصفح الجريدة..

يدير الرجل وجهه لـ«آيتن» التي كانت تتفحصه فتجفل الفتاة وتمسك يد «كارم» تلقائيًا.. ويجزّ «داغر» على صدغه.. لا إبداء مشاعر..

لكن الأوان قد فات، لقد نظر الرجل ذو البدلة لـ«آيتن» وردة فعلها، ونظرة الخوف على وجهها، ثم رفع يده وأشار إليها فاغرًا فاه في صيحة صامتة، وعلى الناحية الأخرى توقفت امرأة ترتدي فستان سهرة وبدأت تهس.. وحدقت بهم..

زادوا من سرعتهم، كادوا أن يعدوا ثم انعطفوا في زقاق جانبي، خرجوا من ميدان الساحة دون أن ينظروا خلفهم..

توقفوا في نهاية الزقاق بينما أنفاسهم تلهث، ونظروا خلفهم متوقعين أن يجدوا أحدًا في إثرهم، لكن الزقاق خالٍ تمامًا، اللهم إلا الضباب فحسب..

- كيف يوجد ضباب مع أمطار؟

طرح «كارم» السؤال لكن «داغر» كأنه لم يسمعه:

- علينا أن نذهب.

- إلى أين؟

بعدما أجابهم «داغر» بدأوا يتناقلون خبراتهم لما حدث، ويحكي كل منهم للآخر وجهة نظره للأمور، كالعميان السبع الذين أمسك كل واحد منهم بجزء من الفيل فاعتقد أحدهم أنه زعنفة أو وسادة عملاقة ثم جلسوا معًا وتشاركوا الوصف ليكوّنوا صورة حقيقية عن شكل الفيل، هذا ما جال بعقل «داغر» وهم يتبادلون خبراتهم..

واتبع كل من «آيتن» و«كارم» «داغر» وقد بدا أن الأخير أكثرهم

خبرة بمدينة الضباب.. وللمرة الأولى لم يبرز «داغر» وحيدًا في المدينة، ثم وصلوا لحيثما قصد «داغر»، طرق الأخير الباب ووقف ينتظر.. ثم بعد دقائق من القلق الذي صرع فؤاده انفتح الباب ليكشف عن ملامح «شهد»..

نظرت الفتاة إلى هيئة «داغر» الرثة ولـ«كارم» و«آيتن» بدهشة، وتلك المرة سألت:

- ما الذي يحدث بالضبط؟

- قصة أكثر خبالًا من لقاء اثنين لأن الملاهي القديمة نادتهما عقب شعورهما بالوحدة..

•••

أسئلة عدة طافت بذهن الجميع وهم يجلسون في المدخل، «داغر» مثلًا كان يصارع هواجس الشك.. بينما الظلام يحيط بردهة المكان..

تلفت «داغر» حوله.. رأى مفارش عدة وسمع صوت أنفاس طاقم المسرح وهم نائمون، لكن لماذا «شهد» هي دومًا المتيقظة والتي تفتح لهم الباب؟ ولو استبعدنا كل الاحتمالات الرومانسية فما هي احتمالية صدفة أن يقابلها مرتين في الملاهي القديمة، هل كانت تتبعه؟ هل هي «موسى» ينتحل صورة بشري؟ هل هي منهم؟ هؤلاء الذين لا يشعرون، المتبلدون، كان يتوقع أن ينتابه الألم في رأسه ويتحسس علبة المهدئ لكنه لم يفعل هذا، وانسابت الحقيقة لرأسه، هو لم يعانِ من ألم رأسه ولم يتحسس جيوبه بحثًا عن منطقة الأمان الخاص به؛ لأنه لم يكن وحده، هناك «كارم» و«آيتن» و«رئيفة» التي تغط بنوم عميق، و«شهد» كان يتوقع أن تراوغه رأسه بجنون الارتياب بخصوص «شهد»، لكن

حدسه بقلبه تغلَّب على جماح الشك، وبعد دقائق قرروا الخروج من المسرح؛ لكي لا يوقظوا طاقم أفراد المسرح، وتمتمت «شهد»:
لنذهب للملاهي، ولتخبروني بحقيقة ما يحدث هنا لأني...
أرادت أن تكابر بكلمة بديلة، لكن أنتهى بها المطاف وهي تقول:
- خائفة..
لوهلة تخيل «داغر» أن كل هؤلاء النيام بوجوه ضباع، وأن «شهد» نفسها ضبع في هيئة بشرية، لكن الشك انتابه دون ألم رأسي وحاجة لمهدئات كما قلنا سابقًا.. خرجوا سائرين الهوينى من بوابة المسرح بعدما اطمأنت «شهد» على حالة «رثيفة»..
الصقيع كان يتزايد بالخارج، دخل أربعتهم الملاهي المهجورة، وتجنَّب «داغر» النظر لبيت المرايا.. أخذ نفسًا عميقًا وتمتم لنفسه دون أن يسمعه أحد سواه:
- أنت لا تتخيل، المرايا مغطاة لأسباب أخرى، تلك مجرد صدف أو قوانين جذب، من معك هم بشكل عجيب نوع من الأصدقاء، لا تُشكك في وجودهم، أنت لست مجنونًا، هؤلاء الملاعين في المصحة، المقبرة السرية أسفل الأرض، هم من حاولوا إتلاف عقلك، اتبع حدسك اللعين..
وجدوا أنفسهم يتربعون الأرض ويلتفُّون في دائرة حول نيران أشعلها «كارم» بحرفية؛ لتقيهم الصقيع وغمغم:
- كما لو أننا كنا في حكايات المدفأة الخاصة بالمخيمات والعراء.. مثل العميان السبعة الذين تحسس كل منهم طرف فيل، فوصف كل منهم جزءًا مما وجده، أحدهم قال إن الفيل وسادة عملاقة، والآخر أكد أنه خرطوم، فقط عندما جلسوا وتبادلوا أفكارهم

ووصفوا ما رأوه استطاعوا رؤية شكل الفيل..

شحب وجه «داغر»، ثم قال لنفسه في إصرار:

- صدفة.. مجرد صدفة أن يحكي هو عن نفس الفكرة التي طافت بذهني منذ وهلة، تلك الصدف تحدث.. صدددددددفة..

أما «كارم» فقد أدار وجهه بينهم وقال:

- لنرتب الحقائق..

أومأ «داغر» برأسه، وتنهدت «شهد»، ثم قالت:

- أشعر وكأنها لحظة اعتراف، حسنًا، أنا أعيش وحدي في المسرح، الفُرُش خالية وصوت التنفس الصناعي ليس سوى أجهزة كاسيت مسجلة، يلهيني صوتها عن الوجود الثقيل للصمت.. أنا لا أتذكر سوى أني كنت مع فرقتي المسرحية فعلًا ثم نمتُ فجأة، واستيقظت لأجد نفسي هنا.. ربما منذ أيام.. لا أعلم.. أعتقد أني حاولت التظاهر بأن كل شيء على ما يرام؛ لأني لن أتحمل ذعر الحقيقة..

- إذن هي الوحدة، هي العامل المشترك بيننا، وفقًا لما حكاه «داغر» لنا، حتى «رئيفة» المسكينة أخبرته أنها تتخيل أنه حفيدها لكي تحتضنه، و«كامل» -رحمه الله- قال لـ«داغر» إنه أول صديق له..

- ما الذي تريد قوله يا «كارم»؟

كان الأخير يتحدث بحماسة محاولًا إيجاد منطق لما يحدث ثم أردف:

- كل واحد منا يعاني وحدة وذكريات طفولة سيئة بشكل أو بآخر، رجل يتحدث مع نفسه ويهلوس مع شخصيات تاريخية، أنا الذي كنت أتحدث مع جمهور وهمي في بيتي؛ لأني لم أتحمل فكرة انزواء

الأضواء عني، والآنسة... كلا ليس من طبعي التحدث برسميات، تلك الفتاة صاحبة الجمال ذات الشعر الأسود تعيش وحدها في المسرح وتتظاهر بأنها مع طاقم عمل كامل، مسرح لم يقدم عرضه منذ أعوام.

تمتمت «شهد» بصوت فيه بسمة خافتة إزاء تعبير الغضب الذي اعتلى وجه «داغر» بعد مغازلة «كارم» لها:

- استيقظتُ ووجدت رأسي يؤلمني، لم أتذكر الكثير، كنت أرتدي زي الماريونيت، وهناك مسرح.. خرجتُ للمدينة فشعرت كأني روح هائمة وسط اللامبالين فعدتُ إليه.

أردف «كارم» بنفس الحماس:

- إذن هي هلوسة جماعية، تلك الأمور تحدث، عندما تستبعد المستحيلات فإن الباقي مهما كان مستبعد لهو الحقيقة كما قلتَ يا «داغر»، نحن أربعة مرضى مصابين بالشيزوفرانيا، وأضف البارانويا لـ«داغر»، تعرضنا لهلوسة جماعية بأن الطبيب والممرضين مسوخ؛ لأننا نعاني من عقدة الاضطهاد، وفتكنا بهم في حالة فصام تامة ثم هربنا..

- تلك هي مجرد أول نظرية، هناك تفاصيل أخرى.. هل تهلوس المدينة بأكملها؟

عقد «كارم» حاجبيه وقد فهم ما يرمي إليه «داغر»، وتذكَّر لحظة تعلّق عينيه بملصق الفيلم السينمائي المعروض، فيلم «الفتوة» لفريد شوقي.. دفن «كارم» رأسه بين يديه للحظة، وهو يحاول استدعاء شخصية المغامر الساخر الذي لا يؤرق منامه شيء ويتعامل مع كل شيء كأنه قد رآه من قبل، وقال:

- لربما نحن لا نعرف شيئًا عن الوجدان الجمعي وهلوسته..

تذكرت أني قرأت أننا نحلم ونستيقظ من الحلم قبل الارتطام؛ لأن وراثنا هذا من رجل الغاب الذي كان ينام فوق جذع شجرة ثم يستيقظ فجأة وهو يقع من أعلى ليرتطم بالأرض بعدها..

- حسنًا، تلك هي النظرية الأولى، فما هي الثانية؟

انعكست أضواء نيران المخيم الذي أقاموه وتألقت على وجوههم وبدا المشهد أنهم يعيشون مشهد فتيان الكشافة عندما يلتفون حول النيران فجأة ليتبادلوا الحكايات المخيفة، هنا أتى دور «داغر» ليعرض نظريته:

- أنتَ تناسيتَ وجود قاتل في المدينة يا «كارم»، رجل يجول كـ«جاك السفاح» ويفتك بضحاياه ليلًا.. رجل لا يتورع عن شيء، يفتك بكل من يقترب من الحقيقة.. وغايته ليست القتل، هذا مجرد عَرَض جانبي بالنسبة له، هل تذكر أغنية الأطفال القديمة، هو في كل مكان، قادم من أجلك ليأخذك، والآن بافتراض أن «موسى» ليس من عالمنا.

ارتجفوا جميعًا عند قول العبارة و«داغر» يردف:

- بل هو كائن.. أو كما وصفوه وعاء للأرواح الشريرة، أتى من عالم سفلي، لعل جلسة التحضير التي جلبته بالخطأ أو أنه موجود من قبلها، نحن نعلم أن هناك ضحايا سابقين، اختفوا فجأة، ربما تفسير القدماء للنوبة القلبية كان حقيقيًّا، عن الروح القابضة، الضحايا يقفون أمام المرآة، يلمحون الروح الشريرة.. «موسى».. يقف خلفهم ويطقطق بلسانه، يلتفُّون ذعرًا وهناك ألم في صدورهم؛ لأنه يمد يده في انعكاس المرآة صوب صدورهم، بعض الحكماء لاحظوا كلمات ظهرت فوق ظهور الضحايا، ربما هو تلك الروح القديمة، نحن نعلم أنه ليس مثلنا، هو يستطيع زهق روحك؛ لأنك تقف فحسب أمام المرآة، ولذا قامت «رئيفة» بتغطية كل المرايا لتبدو كشواهد مرعبة

عندما دخلت البيت، ووفقًا لمذكرات «رشيدة»، فإن «موسى» شر خالص قدم من بئر سحيقة، لربما هذه البئر كانت بمثابة معبر لهذا العالم السفلي، أو ربما هو مسخ قديم نائم في قاع البئر وقد أيقظه الدماء المالحة التي تسللت إلى فمه بعدما سقط الصبي «راشد» أخو «رشيدة» في البئر، ربما قدرات «موسى» هذا شيطانية، وقد جلب قومه معه، أبناء نسله، قوم بوجوه ضباع وأقدام ماعز، وبعضهم يمتلك ذيول ثعبان جرس كزوجتي الحبيبة..

هنا قالت «آيتن» الكلمة السحرية:

- ولكن لماذا؟

تبادلوا نظرات حائرة بينما كانت «شهد» صامتة طيلة الوقت ثم قالت:

- أنا لا أتذكر متى آخر رأيت بها الشمس.. فقط أستيقظ لأجد نفسي هنا في تلك المدينة، لا أتذكر شيئًا عما سبق سوى ذكريات باهتة.. أعرف أني في حياتي السابقة كنت أرقص الباليه..

«حياتي السابقة».. تلك الجملة.. فكر «داغر».. كلهم يمتلكون حيوات سابقة.. قبل أن يتغير كل شيء..

كررت «آيتن»:

- ولكن ما هي دوافع «موسى»؟

- وما هو دافع الثعبان عندما يلدغك أو الذئب عندما يلتهمك؟

- تعني أن «موسى» شر خالص وحيواني لا يسعى سوى للفتك بنا؟!

- كلا..

قالها «كارم»، وهز «داغر» رأسه موافقًا، ثم أردف الأخير:

- هـذا لـو كان الأمر يقتصر على جرائم فحسب، «موسى» يقتل فحسب من يقترب من الحقيقة، لقد...

وتهدج صوت مردفًا:

- قتل فتاة واقتلع عينيها وحشا عينيها وفمها بالقش.. فقط لأنها تحدثت معي، هو يعتبر الحقيقة مثل الوباء ولا يجب أن تتفشى.. ولا بد أنه افترض أني قد قلت لها شيئًا.

- وهل أدليتَ لها بشيء؟

هزَّ «داغر» رأسـه نافيًا بأسـى.. فنظرت إليه «شـهد» بوجوم، نفس نظـرة الوجوم التـي يفعلها هو، طبعًـا هناك احتمال آخر لـن يدلي لهم بـه، أن يكونوا كلهـم هلاوس لمريـض بارانويا، وقد أعطى كلًا منهم جـزءًا منه، طفولـة «كامـل» المعذبة، اعتـداد «كارم العـدوي» المغامر بنفـسـه وهي صفة لطالما تاقـت لها نفس «داغر»، حيـرة «أيتن» وجملة «أهلي ليـسـوا بأهلي» والتي تعادل جملًا أخرى على طراز: «زوجتي لم تعد زوجتي».. وحتى «شـهد»، لن تجد فتاة بتلك الرومانسية أبدًا، هي الحب الضائع، هي كل شيء لم تكُنه «جيهان».. في تلك اللحظة تذكَّر المقطورة وهي تسـحق عظام ابنه لتحوله لكتلة من العجين مع زوجته، ارتجف، ولكن لدهشته العظمى لم يتنبَّهُ الألم ولم يشتق للكبسولات.. ومـرة أخرى طافت بذهنه فكرة أن السـبب وجود رفقة مِن حوله؟ يا إلهي لشدة ما كنت أفتقد حتى فكرة الحديث مع أحدهم..

هنا تنحنحت «شـهد»، وشـعر «داغر» فجـأة بتعاطف تجاهها، هي غريبة عنهم، وحيدة، وربما تواجه صعوبة وتوترًا في الحديث أمامهم؛ لوهلة تلاقت أعينهم، وكأنها فهمت ما يفكر به ابتسمت له بزاوية فمها، لشدة ما تبدو جميلة بشعرها المعقوص للخلف، بينما حبس النيران

يتعالى من فوق الخشب المشتعل..

- حسنًا، لدينا احتمالان حتى الآن، حالة هوس جماعي ونحن مرضى، أعتقد أننا جميعًا نرفض تلك الفكرة؛ لأن المريض لا يعرف حقًا أنه مريض..

مط «داغر» شفتيه مفكرًا ثم أومأ برأسه، وبدأ «كارم» يعد على أصابعه:

- الاحتمال الثاني أن «موسى»، رجلًا كان أو مسخًا، هو شر قديم يسكن تلك المدينة، وقد استحوذ على أهلها، لسبب ما هو يأخذ الناس من عقر دارهم، ويراقب المدينة من أعلى التلة، لو أبديتِ أي نوع من العاطفة الزائدة فلسوف يأخذك «موسى»..

- إذن فلو بكيت أو ضحكت في سعادة سأجد «موسى» خلفي.

- ولسوف تجدينه يتنفس في عنقك كما تقول القصيدة القديمة، ربما سيظهر لك في المرآة فحسب من خلفك، تستديرين فلا ترينه، لكنه سيغمد مخالبه أو يده في ظهرك ويعتصر قلبك حتى الموت مثلما وصف «داغر» الأرواح القديمة.

وردَّ «داغر» بشرود: نوبات قلبية عدة والضحايا حملوا كدمات زرقاء على ظهورهم، ولم يستطع أحد تفسير تلك الصدفة..

انظروا إليهم، يجلسون حول نيران المخيم في الملاهي المجهولة يتبادلون النظريات المخيفة..

قال «داغر» فجأة:

- هناك أمر آخر..

التفتت العيون صوبه فأردف:

- هناك تلك الجملة التي قالها القبطان، وتلوَّت قسمات وجهه،

عاصرًا رأسه بيديه، محاولًا تذكُّر الجملة..

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف».

وتابع بإرهاق:

- ليتني أستطيع فهم ما قاله، أشعر أن هناك توضيحًا في تلك الجملة للحقيقة التي تحدَّث عنها.

حاولت «آيتن» إعادة ترتيب أحرف الجملة داخل عقلها، وكذا فعل «كارم»، أما «شهد» فكانت تنظر بشرود حالم أمامها، هتفت «آيتن»:

- ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف».. أعتقد أن كلمة أو اسم حنين يوجد في الجملة.

- من وهي حنين؟

- ربما هي كلمة «نحن» وليست «حنين».

- وماذا عن حرف «الفاء» المتكرر؟

- لا تحاولوا ترتيب الأحرف.

نظروا لـ«داغر» الذي أردف:

- لقد حاولتُ مرارًا وتكرارًا، لا فائدة.. ربما كان يهذي.. أو من المستحيل فهم ما قاله، رياح تلك المدينة أعاقت كل ما قاله وبعثرت بالأحرف كأنها سيارة دهمت طفلًا.

- يا له من تشبيه رائع.

- هناك طريقة أخرى لشرح الأمور بافتراض أننا حقًّا لسنا ثلاثة مجانين هاربين من المصحة بعدما فتكوا بالممرضة.

بدا الجزع على وجه «شهد» فابتسم لها «كارم» مردفًا:

- لا تقلقي، المجانين لا يشكُّون في كونهم مجانين أبدًا، لنحاول تبسيط الأمور، هناك رجل مجنون يُدعى «موسى» يختطف البشر، ربما

هو بفرر من يختطفهم، ولديه أعوان وقد بنوا مصحة في المدافن وسط الموتى، ليعذبوهم، مجموعة من الساديين.

- وما علاقة المرايا؟ ومفكرات «رشيدة» التي تدور أحداثها منذ مائة عام؟

- ربما لم توجد «رشيدة» أبدًا و«موسى» هو من كتب تلك المذكرات ليدعم أسطورة أنه موجود منذ مائة عام.

صمت «داغر»، شيء ما كان صادقًا في تلك المذكرات، كانت تكتب بقلبها، لن يستطيع إنكار هذا أبدًا..

- ولماذا اختطف زوج «سيلين»؟ وما هو السؤال الذي كان يجب أن نسأله لـ«سيلين»؟ ما هو المقصود بما قالته الروح: «لماذا لم تسألوا سيلين؟»..

- ربما «موسى» هو نفسه زوج «سيلين» وزوجته فضحت أمر جرائمه فأسكتها..

- ألا ترى أنك تحاول جعل الأمر جرائم بشرية، متناسيًا حقيقة ما رأيناه داخل المصحة على وجوه المرضى؟

صمت «كارم» ثم هز رأسه وقال:

- نعود لاحتمالية أننا مجانين إذن.

عاد الصمت يتخلله حسيس النيران قبل أن يهمس «داغر»:

- الحقيقة أن جميعنا في خطر، وهو قادم إلينا جميعًا.

- هل تعتقد أنها مؤامرة كتلك التي نقرأ عنها في الصحف؟ يخطفون الناس ويبيعون أعضاءهم و-وفقًا للقبطان- شركات الأدوية تبيع الاكتئاب في علب مكتظة بالكبسولات ليصيبوا الناس به؟ لقد كان هناك خبر آخر عن زوجة انتحرت بسبب تعذيب زوجها لها وطفل

قفز من الطابق العلوي، ونبأ عن زوج يقضي أيامه في المصحة بعدما خانته زوجته وأخذت أولاده وأمواله وسجنته ثم تزوجت آخر.

- تعتقد أن هؤلاء ضحايا تلك المنظمة الغامضة التي تدمر الزيجات؟ وأن الأطباء ليسوا بأطباء حقًّا؟ لو أسلمنا عقولنا لتلك المؤامرات فلن نثق بشيء من حولنا.

خرجت «شهد» من شرودها وقالت:

- بعد حديثكم هذا أنا لن أثق بأي شيء من حولي.

أراد «داغر» أن يقول لها إنه آسف في توريطها بتلك المسألة، لكنه صمت فحسب.. مد «كارم» يديه وفركهما فوق النيران طلبًا للدفء..

- وماذا عن حالة النوم التي أصابت الجميع؟

طرحت «آيتن» السؤال ببساطة وتلقائية، فالتفتت إليها كل الأعين وطفق ذهنهم مع تلك الفكرة، في الثامنة مساءً فقد الجميع وعيهم، أجاب «كارم»:

- أعتقد أن هناك أشياء تظل دون تفسير..

- حسنًا، إليكم ما سنفعله.

اتجهت الأعين لـ«داغر» الذي كان يعلم أنه سيواجه صعوبة في إقناع «كارم» بالخطة؛ نظرًا لشخصيته القيادية، فقال محدثًا إياه في البدء:

- عليك حمايتهم، ستبقى معهم، لا تتفرقوا أبدًا، كونوا بجوار «رثيفة»، ولا تكونوا في مكان مغلق، أعتقد أن «موسى» يحمل بداخله غريزة القوارض والزواحف، يعشق الظلام والأماكن المغلقة، لا أحب كثيرًا فكرة أن تجدوه يزحف فوق السقف بالداخل، اجلبوا «رثيفة» للهواء الطلق، وانتظروني هنا، «كارم» أكثرنا قدرةً على حمايتكم.

صمت «داغر» متابعًا ردة فعل «كارم» الذي هزَّ رأسه فأردف:

- و«آيتن»، أنتِ صغيرة لكنك تمتلكين روح محارب، ابقَيْ بجوار «رئيفة» وشجعيها بالكلمات، فالكلمات الطيبة لها أمر سحري..

تعمد «داغر» نطق تلك الكلمة.. طيبة.. شعر بأن الجميع قد كفوا عن استخدام هذا المصطلح منذ دهور.. ثم نظر لمدخل المسرح حيثما «رئيفة» وأردف:

- وهي امرأة وحيدة..

بدا لكلمة «وحيدة» تأثير خافت على الجميع؛ فهي عامل مشترك بينهم جميعًا في نهاية الأمر..

- وإلى أين ستذهب أنت؟

أخذ «داغر» نفسًا عميقًا، ثم قال:

- البئر أمام البيت بأعلى التلة، كل شيء بدأ هناك وفقًا لكتاب الأحلام.. لقد حان وقت معرفة الحقيقة، فقط كونوا حذرين ولا تفرقوا بالله عليكم..

وكأنهم ممثلو مسرح ينهون العرض، وقفوا جميعًا متقدمين الأخر، سارت «شهد» بخطى بطيئة بينما سبقها «كارم» و«آيتن» للمسرح ثم توقفا وانتظرا وصولها كي تدخل فهذا بيتها بالفعل، قال «داغر» لـ«شهد» بعد ابتعادهم:

- هل تظنين أني مخبول؟

التفتت إليه، بعينيها السوداوين، حتى عنقها يمتلك شخصية مستقلة وكاريزما خاصة به عندما يلتفت..

- لا أظن أنك مخبول، نحن مختلفون فحسب.

- هل أنتِ غاضبة؛ لأني جعلتكِ في خطر؟

تلفتت عيناها كقطة تائهة وضمَّت كتفيها اتقاء للبرد، ثم همست:
- كنت أشعرُ دومًا بأن هناك شيئًا خاطئًا يجري هنا، لقد نمتُ مثل الجميع، ثم استيقظت ورأسي يؤلمني وذكرياتي مشوشة، وشعرت دومًا بأن هناك شيئًا مخيفًا يحدث.. ربما لهذا ذهبتُ للملاهي، كانت حزينة هي الأخرى وتشعر مثلي بأن هناك شيئًا ما على غير ما يرام..
احتضنها «داغر»؛ لأن كل جزء به كان يطالبه بهذا الحضن، فسمع صوت «كارم» الساخر من على بُعد:
- توقيت غير مناسب بالمرة.
بينما «آيتن» تلكزه؛ لكي يسكت..
- انظر إليهما، يضحكان ويسخران بعدما تعرضا لأشياء تزهق عقليهما.
- لأنهما شجاعان، سخريتهما تلك هي وسيلتهما للنجاة دومًا..
كانوا يتحدثون وهم يسيرون، وعادوا بـ«رئيفة» حاملين إياها وهي نائمة إثر المخدر، ومندسَّة في أغطية أكثر اتقاءً للبرد، وأجلسوها بجوار نار المخيم..
- ابقوا في العراء.. لا أماكن مغلقة ومظلمة.. تجنبوا الأشياء التي تجذب «موسى».
استنشقت «آيتن» الهواء الطلق وشعرت بقليل من الأمان، كأن الطبيعة تمدها بقوة وقالت وهي مغمضة العينين:
- أتخيل خضرة، حديقة كبيرة وشمس وغروب..
ابتسم «كارم»، ثم نظر بشيء من القلق لـ«رئيفة» مغمغمًا:
- أعتقد أنه كان من الصواب تركها بالداخل حيث الدفء.
- سنوفر لها الدفء هنا، نحن نحاول الابتعاد عن الظلام الذي

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

CamScanner

أخرى؟ لأنه كان بحاجة للقيام بشيء أخير، لم يكن ليخبرهم به، قبل الذهاب للبئر.

***

دوى هزيم الرعد بعدما سطع البرق..

زأرت العاصفة وانهمرت الأمطار بغضب كصيحات هادرة من فم السماء..

أوقف «داغر» سيارته داخل الميناء، وترجل منها، سار للأمام، توقف للحظة عند بقايا القبطان المتحللة فوق الخطاف المعلق، حيث بدأ كل شيء بالنسبة لـ«داغر»، وتمتم: «لم آتِ لدفنك بعدُ يا صديقي، لكني سوف آتي اليك، العالم لم ينسَ أمرك كما كنت تظن»..

ثم اعتلى متن الباخرة بعدها، دخلها بهدوء كأنه يعرف طريقه مسبقًا، مارًّا بجوار عجلة القيادة، وكابينة القبطان، دلف من الباب للقعر، وتلفت حوله ثم قال:

- أين أنت؟

صمت.. ثم أتاه صوت الغليظ:

- هنا.

اعتدل «راسبوتين» من رقدته نصف اعتدالة، ونظر بلحيته العملاقة لـ«داغر»، بتلك العينين شديدتي السواد، كان يرقد في كسل ووقاحة، ونصف اعتدالته أكدت هذا، وفكر «داغر»: «يا لقوته البدنية، حتى وهو راقد يبدو شديد الطول»، وكان «داغر» يعلم أن «راسبوتين» لم يكن يمتلك قوة بدنية فحسب، بل كان داهية عقلية كذلك..

تبادل الاثنان نظرة طويلة، هناك تهكم في عيني «راسبوتين»، ربما هو ثمل قليلًا..

سأله «داغر»:

- لماذا لم تأتِ عندما ناديتُك؟

كان «داغر» يدرك جيدًا أنه يقف وحيدًا ويتحدث مع نفسه، الأحرى بروض عقله لاستدعاء أكثر جزء قوي وشجاع بداخله قبل الذهاب للبئر..

ظل «راسبوتين» ينظر إليه، فأردف «داغر»:

- هل تعرف الملاهي المقابلة للمسرح؟

- «راسبوتين» يحفظ تلك المدينة المسحورة عن ظهر قلب.

يتحدث عن نفسه فخر وخيلاء كالعادة..

- هم بحاجة إليك، أو سيحتاجون إليك، فقط كن معي لو ناديتك كي نساعدهم.

لم يُجِبْ «راسبوتين»، أخذ «داغر» نفسًا عميقًا وهمَّ بالاستدارة..

- انتظر يا رجل.

امتثل «داغر» للأمر، وسمع «راسبوتين» يقف، بدا كأن الباخرة كلها تتمايل إثر اعتداله، سار بعدها ووقف خلف «داغر» وقال:

- أنت لم تفهم الحقيقة بعدُ؟ تلك الجملة التي ترددها، لقد كنتُ في الباخرة وسمعتُ القبطان يصيح بها، أنتَ سمعتها مبعثرة الأحرف، عويل الرياح والصدى يفعل هذا أحيانًا.. «ض ن ن ح.. ي ن س ي ا.. ف ف».. كل ما كان عليك هو إدراك أن الأحرف تكوّن كلمة، عقلك أفسد ترتيب الكلمات.. هل تريد معرفة الحقيقة؟ «راسبوتين» يعرف.. إليك ما قاله العجوز..

قطب «داغر» جبينه.. «راسبوتين» داهية عقلية، را را سبوتين بفهم.. تخيَّل كلمات أغنية جديدة لهذا الراهب المرعب..

مال «راسبوتين» صوب أذن «داغر» وهمس بشيء ما.. واتسعت عينا «داغر»..

خفق قلبه..

دار العالم من حوله..

لقد كان القبطان محقًا في تحذيراته..

لم يكن ليصدق أحد أبدًا..

حقيقة كتلك قادرة على إثارة جنون الجميع..

ستتوقف قلوبهم ذعرًا، ليس «كارم» و«شهد» و«أيمن» و«رانيا» فحسب، بل كل من في المدينة..

ترنح «داغر» وكاد أن يسقط، فراقبه «راسبوتين» في صمت، استند «داغر» على الجدار ونظر نظرة مطولة لـ«راسبوتين»..

كل شيء واضح ومنطقي الآن..

حالة فقدان الوعي الجماعي في القاهرة..

حالات الاختطاف..

المصحة النفسية القابعة في المدافن.

الممرضون بوجوه ضباع...

«موسى»..

القضاء على كل من يُبدي عاطفة.

زوجتي ليست زوجتي.

الاكتئاب ليس سوى خدعة لترويج الشركات الطبية للمهدئات.

المدارس ليست مدارس حقًا، بل أماكن لتدمير العقول..

الأطباء ليسوا أطباء بل جزارون..

كل ما يحدث داخل البيوت المغلقة من عنف أسري وصراخ وجنون..

كل زيجة تعد بمستقبل مشرق تتحول لجنون مطبق يباركه مسخ شيطاني..

كل شيء أصبح واضحًا ومنطقيًا..

هنا فعل «راسبوتين» شيئًا غريبًا، رغم قسوته وصلابته، لقد ربت على كتف «داغر»، وقال:

- لا تترك الحقيقة تسلبك قلبك ولا عزيمتك، أكمل الرحلة..

أخذ «داغر» نفسًا عميقًا..

ثم رحل..

عائدًا للسيارته في صمت، بنفس تعبير الوجوم الذي كان على وجهه في الخندق إبان الحرب..

لم يتحدث مع نفسه بصوت عالٍ..

لا نظرة خاطفة لانعكاسه في مرآة سيارته، المرآة الوحيدة التي لم يخفها..

ولا رؤية هلاوس..

فقط أدار المحرك وانطلق بالسيارة، لم تنتبه حتى فكرة عقاب سيزيف وهو يصعد التلة...

هذا ما تفعله الحقيقة بعقلك إذن، لا تشتت، لا شك، فقط تصميم بداخلك أن تكمل طريقك..

ولم يُلقِ بالًا للضباع التي وقفت تنظر له بوحشية أمام البيت تلك المرة.. نظر لهم بتحدٍّ.. كانوا يستعدون للانقضاض..

لكنه سبقهم، اعتلى البئر، وترك نفسه ينزلق بداخله.. كان عليه أن يرى بعينيه ما همس به له «راسبوتين» في أذنه..

ولم يكن يعرف أن هناك زيارة موشكة على الوقوع في تلك اللحظة بالذات، هناك بعيدًا في الملاهي، حول نيران المخيم، للأحياء الجالسين يستدفئون ويتدثَّرون بأغطية الحديث تجنبًا للوحدة، زيارة من «موسى».. الذي كان بينهم، واحدًا منهم، يتدثَّر بالأغطية مسبقًا..

***

طاك طاك طاك!

@ART_OF_BOOK

# الفصل العاشر

تئنُّ «رئيفة» وهي مضطجعة فوق الفراش المتنقل، فتبتسم لها
«...» بحنان وتمسح جبينها برفق، ثم تواصل ما كانت تحكيه لـ«آيتن»
«كارم»:

- وهكذا استيقظتُ وهناك صداع مؤلم برأسي، ولم يكن
... أحد من حولي، كنت أرتدي ثياب العرض، لكن لا أحد هناك
... الطاقم، في البدء اعتقدت أني فقدت عقلي، سرتُ في الشوارع
... الأمطار والرياح، ورأيت تلك العبارة على الجدران «حاولوا أن
... تذكروا».. أحاول أن أتذكر ماذا بالضبط؟ كنت أشعر بوحدة هائلة،
لعل تلك الوحدة هي التي قادتني للملاهي؛ لأنها مثلي أيضًا تشعر
بالوحدة...

تحسس «كارم» مؤخرة رأسه مغمغمًا:

- أنا أيضًا استيقظتُ بصداع مؤلم، ما هو سره؟

«رئيفة» تئنُّ وتحاول تحريك أصبعها مشيرةً إلى شيء ما، لكن
أحدًا لم يلاحظ..

***

أحلهم «موسى»، يتحل شخصية البشر.

***

تتنهد «آيتن» وتنعكس النيران على مقلتيها وهي تحدق بالسماء..

وفي التوقيت ذاته كان «داغر» يعتلي قمة البئر ويداه تتحسسان
الجدران ويتزلق ببطء داخله..

كان يكرر لاهثًا وهو يعتلي التلة قبل دقائق من وصوله لأعلى التلة: «أبًا لك يا سيزيف».

ولم يشعر بخوف من الضباع، فقط نظر لليث العتيق وبداخله منعقدتان في تصميم.. هناك ارتجافة بداخله مما قاله له فراسبوتين، لكنه يرجئ تلك الارتجافة لوقت لاحق..

المعلمة داخل رأسه تومئ له مبتسمةً بفخر..

•••

مرحبًا بك في البئر يا «داغر»، ستشعر بأنك تسقط في دوامة كما كنت تحلم.. لكنك حريص على ألا تسقط، بذلك تتشبثان بالنتوءات من الجدار.. لسبب ما تتذكر تمثال عزازيل، وكتاب الأحلام بأسراره العتيقة، مرحبًا بك في البئر يا «داغر»..

يا دم دمائي وابن أبنائي..

•••

أخذ «داغر» نفسًا عميقًا، وبدأ في الانزلاق أكثر من هوة البئر متمسكًا بالنتوء في الحائط، البئر بدت كثعبان يفتح فمه على اتساعه استعدادًا لبلع شيء ما، وفكَّر «داغر» للحظة أنه سينزلق ليسقط مهشم العظام.. فيجد «موسى» في انتظاره..

•••

طاك طاك طاك

•••

سرت القشعريرة بجسد «شهد» وتلفتت حولها هاتفة:

- ما كنه هذا الصوت؟

أما «كارم» فقد تبادل نظرة مع «آيتن» وهو ممتقع الوجه..

***

تنزلق يد «داغر» للحظة، فيثبت بأنامله ويرتطم وجهه بالنتوء الخارج من جدار البئر، بالأحرى بالعظام البشرية.. لقد كان يتمسك طيلة الوقت بعظام بشرية تبرز من جدران البئر..

بمعجزة ظل «داغر» متمسكًا بالجدار وهو يحدق بحقيقته، هياكل عظمية بوجوه تحمل ضحكة الموت الماجنة، هذا ما كان يستند عليه طيلة الوقت..

تلا المعوذتين وآية الكرسي بقلب يرتجف، وواصل النزول، شاعرًا بأنه لا نهاية للبئر..

***

ترفع «شهد» أصبعًا مرتجفًا وتشير للضباب الكثيف الذي حلّ فجأة، وبدأ يعم الأرجاء..

- هناك أشياء في الضباب.

وتبيَّن «كارم» مقصدها، هناك ظلال ترتسم بشكل خبيث لمن يسيرون في الضباب.. ويقتربون منهم في صمت.. نسل «موسى».. ضباع.. سمِّهم ما شئت..

الضباب يحيط بهم وغمغم «كارم»: لقد أحاطوا بالمدخل.

صوت فحيح الثعابين هذا..

- لنختبئ داخل بيت المرايا.

- هل تمزح؟

- لن نختبئ داخل بيت الرعب بالتأكيد!

اندفع «كارم» و«آيتن» ليحملوا «رئيفة» التي كانت تتوجع..

تراجعت «شهد» للخلف ولم ترَ اليد التي تمتد من الضباب لعنقها..

نقل «كارم» عينيه محاولًا تبيُّن القادمين في الضباب..

وانحنت «آيتن» لتحمل «رئيفة»..

طاك.. طاااااااااااك.. طاك

انطلق لسان «رئيفة» كالسوط ليحيط بعنق «آيتن» وتموَّج جسدها.. انسحبت معدتها للخلف قبل أن تنشق وتنبثق منها يد ذات أصابع طويلة ومخالب، وانغرزت المخالب في وجه الفتاة.. ربما لو لم تتحرك «آيتن» للخلف في ذعر لكان عنقها قد انكسر بالكامل، لكنها تراجعت للخلف، بوجه دامٍ وهي تخمش بأظافرها الشيء اللزج المحيط بعنقها، تحرر عنقها كأنما هناك شيء أهم موشك على الخروج من داخل «رئيفة»، وصرخت «آيتن».. في حين صاح «كارم» بجزع:

- يا إلهي.

***

تمتد اليد من الضباب.. وتقبض على عنق «شهد» الجميل..

***

يحدق «داغر» بالهياكل العظمية، تكاد يده تنزلق لكنه يتمسك بعظام صلبة.. هيا يا رجل، لقد اقتربتَ من القاع، لا تسقط الآن.

***

طاك طاااااااااك طاك

لم تصدق «آيتن» ما يجري أمامها، وفغر «كارم» فاه في ذهول، ومن خلفه على بُعد أمتار كانت «شهد» تشهق محاولةً الاستغاثة.. لقد

...فيها واتسعت عيناها في رعب وهي ترى ما خرج لها

... مسخ بشري.. مسخ.. سمّه ما شئت..

***

...

... الكريم من الخروج من حالة الصدمة لثوانٍ ليجذب «آيتن» ... ويسقط كلاهما للخلف، وهما يحدقان بما يحدث ... من تحوّل أمامهم..

... التي تحت عينيها وهي تطقطق، ويا لتلك العينين..

... زجاجيتان.. لا حياة بهما..

عيون الأفعى..

خاطف الأرواح..

«موسى»!..

لقد انتفخ جسدها، ثم بدت كأنها تفور، وانسلخ الجلد.. ببطء.. سريعًا.. برعب.. كحية تُغيّر من جلدها..

وانشق جسد العجوز كله تلك المرة ليتصب من داخله «موسى».. وهو يتمايل يمينًا ويسارًا كأنه يسبح في دماء العجوز..

وأدرك «الكريم» مدى ضآلتهم أمام هذا المسخ، يا للمدى طوله ونحوله، يا للتأثير الشنيع لوجوده أمامهم، يا للشخصية القادرة على زهق روحك بمجرد وجودها على مرمى منك، تأثير الأفعى، «موسى» ليس سوى أفعى عملاقة في هيئة بشرية..

***

«شهد» تسقط أرضًا، المسخ من الضباب يعتليها، ويضغط على عنقها أكثر.. وعلى انعكاس عينيها ترتسم ملامح وجهه..

•••

جراح غائرة في وجه «آيتن»، التي تتحسس عنقها وهي تحدق بالهول الماثل أمامها..

لقد كان «موسى» داخل «رئيفة».. «رئيفة» لم تكن سوى جسد بشري يحركه «موسى».

يخدعهم وينسل بينهم..

لا يوجد وقت للفهم.. ولا لمعرفة أسباب.. لقد حان وقت الموت..

•••

يحيط الضباب بجسد «شهد»، وتساقط ديدان من ذراع الضبع البشري، ببطء تدريجي استوعبت «شهد» حقيقة مهاجمها، جثة متحللة «ميت حي»ضبع يدخل المدافن، ويلتحم بتلك الجثة لتعتلي من رقدتها، وتهيم في الضباب قبل أن تجد شهد، نسل «موسى» لا يقتصر على الأحياء فقط..

وصرخت «شهد» أخيرًا.. صرخت كما لم تصرخ من قبل..

•••

يصل «داغر» أخيرًا النهاية البئر، يهب واقفًا وينفض الغبار عن نفسه، يسير للأمام بتؤدة، بحرص، لا صداع يداهم رأسه ولا حاجة لحبوب ولا كبسولات، لقد وجد غايته والسبب من حياته الآن، ووجود رفقة رحلة مثل «كارم» و«آيتن» و«شهد»، وكجندي في معركة فهو يتحرك

تصميم صوب العدو.. هناك هدف واضح الآن لكل شيء..

يسير للأمام في ممر.. تتراص الشموع على جانبيه.. يواصل

داغر السير...

ثم يصل لغرفة التحكم!

•••

غرفة القيادة!

•••

عقلك يعرف ويحاول أن يلمح لك بالحقيقة..

•••

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف»

•••

غرفة موسى..

كابينة القيادة..

حيث تتراص أنابيب زجاجية ممتلئة بالحامض بها أجساد بشرية، بعض تلك الأجساد قد التحمت ببعضها لتطلق وجوهها صرخة ألم شنيعة، بعض الأنابيب بها عقول تطفو وأجزاء بشرية فحسب

•••

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف»

•••

بعد ذلك وقف أمام غرفة جانبية صغيرة، بها طفلة تفترش الأرض وترسم، اقترب داغر بوجهه من الزجاج ونظر لما ترسمه.

شجرة.. بئر.. بيت.. حقل.. أخ يلعب مع أخته..

تنهد «داغر» ثم همس: «رشيدة».

•••

لن تصدق الحقيقة أبدًا.

•••

«موسى»

•••

لا شيء كما يبدو عليه.

•••

في أي زمن نحن؟

•••

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف».

•••

يكرر «داغر» هامسًا: «رشيدة».. لم تسمعه الطفلة من خلف المانع الزجاجي..

لم يكن هناك أبدًا «رشيدة» منذ مائة عام، هي مجرد طفلة أبدت مشاعر أو خيالًا فاختطفها «موسى»..

وجعلها تكتب كتاب الأحلام من وحي خيالها عن المسخ القادم من البئر..

تلفت «داغر» حوله ناظرًا للأنابيب.. الآن يعرف مصير كل من اختفوا..

•••

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف»

•••

ساء بلا نجوم..

●●●

نة لا تشرق الشمس بها أبدًا..

●●●

نا لست مجنونًا.

●●●

هل أنت حقيقي؟

●●●

عرض أول لفيلم شمس الزناتي..

●●●

ترتدي اليشمك بينما المذياع يتحدث عن اقتراب روميل من صحراء..

●●●

يهز راكب الحنطور رأسه ويقول: أنا قاسم أمين.

●●●

موسى» قادم من أجلك.

●●●

زوجتي لم تعد زوجتي.

●●●

يلهث «داغر» مرهقًا ويقترب من نافذة زجاجية عملاقة بقمرة القيادة يقف وينظر للنجوم.. وللفضاء السرمدي العتيق..

ويتذكر ما قاله له «راسبوتين»: فقط استخدم عقلك، أعد ترتيب حروف.. ض ن ن ح.. ي ن س ي ه ا.. ف ف..

يحـاول «داغـر»، يعتصـر عقله، تدمـع عيناه، يبـدو كطفل حديث الولادة يحاول تعلُّم الحديث..

- هيا يا رجل..

- ن ن.. نحن؟

- ها، وبعد؟

- نحن.. ف ف.. نحن في..

- بالضبط.

- سف..

- أبليتَ حسنًا..

كطفل يتعلم الحديث..

- نحن في سف..

يهز «راسبوتين» رأسه..

تتسـع حدقتـا «داغـر» ذعـرًا وينظـر لـ«راسـبوتين» قبـل أن يردف بصوت مبحوح:

- نحن في سفينة فضاء.

ويكمل «راسبوتين»:

- وتلـك المدينة ليسـت سـوى غرفة محـاكاة للواقع بهـا عينات بشرية من أزمنة مختلفة تم خطفها.. حديقة حيوان بشرية لو كان هناك شيء كهذا..

***

«ض ن ن ح.. ي ن س ي ء ا.. ف ف».

***

وهكذا يقف «داغر» في كابينة قيادة موسى.. وعقله ينظر للصورة الكاملة للمرة الأولى منذ بداية كل شيء..

مقابلته مع شجرة الدر في الحانة وحيرتها بشأن مكان وجودها..

اختلاط الأزمنة..

«راسبوتين» وحده كان يعرف الحقيقة، ولذا أصر دومًا على كونه حيًّا..

أغمض «داغر» عينيه وترك دموعه تنساب، هذا الكابوس قد بدأ عندما فقد كل من القاهرة وعيهم في الثامنة مساءً، وأتى «موسى» ليأخذ عينات بشرية ويرحل بها في سفينته، ولعل تلك لم تكن مرته الأولى، فقط المرة التي سجَّلها التاريخ الحديث، ورحل «موسى» في تلك السفينة التي أعد بها غرفة محاكاة ضخمة، وترك العينات البشرية، وهو يراقبهم من الظلام، يدرسهم عبر المجهر، يجري عليهم التجارب..

مثلما يفعل البشر بالحيوانات..

حديقة الحيوان..

غرفة محاكاة..

سفينة فضاء..

نعم، «موسى» كان شيطاني بالفعل، لكنه لم يأتِ من تحت الأرض، بل من أعلى، من السماء، من الفضاء السحيق..

•••

كتاب عن الفلك، وآخر عن الذين هبطوا من السماء.

•••

المعلمة داخل رأس «داغر» كانت تغطي فمها في صدمة..

أراح «داغر» رأسه على الزجاج ونظر بحزن للطفلة التي ترسم على الورق، كان ليفقد عقله بالتأكيد لو اكتشف هذا فجأة، لكن «راسبوتين» قد أعده جيدًا لما سيجده، اعتصر الحزن قلبه وهو ينظر للطفلة.. تجربة أخرى من تجارب «موسى»، ما الذي يريده هذا المخلوق بالضبط؟ وأتته الإجابة فأصابته القشعريرة، «موسى» يفعل مثلما يفعل البشر مع الحيوانات، يختطفهم ويضعهم في حدائق حيوان، أماكن مشابهة لبيئتهم، قبل أن يقوم بدراستهم!

العلماء يُجرون تجاربهم على القردة والفئران، مثل تلك الطفلة، ومثلما يحدث في المصحة..

تلفتت عينا «داغر» حوله، «موسى» يمتلك قدرات رهيبة، هو قادر على تسخير العقول والإرادة والتجانس وربما التهجين، لقد أخذت عينات من البشر والضباع سواء، وربما يستطيع الظهور من المرايا واعتصار قلبك من خلالها، «موسى» هو الرعب الحقيقي، كل شيء ممكن معه، «داغر» يعلم هذا الآن، لربما تلك قوة عقلية يمتلكها «موسى»، أو روحانية، لا يعرف، لكنه بالتأكيد أجرى مئات التجارب على هؤلاء المعذبين داخل الأنابيب الزجاجية.. ومثلما يحدث في حديقة الحيوان، لو تجرأ أحدهم على محاولة الخروج من القفص فلسوف يسحقه الحارس..

الصياد..

الخاطف..

«موسى»..

هذا ما قاله «راسبوتين» لـ«داغر» عن مصير من يخرج عن

لوف، من يُحدث جلبة، من يدرك أن هناك شيئًا ما خاطئًا يحدث..
فلسوف يختطفونه، للمصحة، للمقبرة، ويعذبون عقله، ولو ظل
بسلم فلسوف يستأصلون فص دماغه، ارتمى «داغر» أرضًا في
ساق وهو مغمض العينين، لقد كان المجذوب محقًا، لن يستطيع
حد أبدًا تخيُل كنه الكابوس المحيط بهم، هل «موسى» رأى عزازيل
قام له تمثالًا؟

فتح «داغر» عينيه.. وأفكاره تتواصل.. «موسى» مخلوق قديم،
لم تكن تلك تجربته الأولى، لعل البشر فقدوا وعيهم من قبل عند
زيارته، لقد أخذ «موسى» عينات بشرية من أزمنة مختلفة، لم يكن
داغر» مصابًا حقًا بالشيزوفرانيا والهلاوس..

كل من رآهم كانوا حقيقيين..

شجرة الدر..

قاسم أمين..

عنترة بن شداد..

كلهم كانوا هناك حقًا.. لم يكن «داغر» يتخيل..

لم يكن يتحدث مع نفسه..

تسع عيناه..

نظرة الحيرة على وجه شجرة الدر..

•••

اسمي آرثر كونان دويل، كنت أقوم بكتابة قصة عن المحقق
«هولمز» عندما أظلمت الدنيا من حولي وأفقت لأجد نفسي هنا.

•••

أنا قاسم أمين.

***

أعاتب دهرًا لا يلين لعاتب، أنا عنترة بن شداد يا قوم.

***

يرتجف «داغر».. عينات بشرية مختلفة.. من أزمنة مختلفة.. ثم أخذهم..

هل جذبت طاقة التمرد بداخلهم «موسى» إليهم؟

هل يحاول «موسى» الوصول لسر الروح البشرية؟ فهم العقل البشري؟ هو يفعل مثل العالِم الذي يجمع مجموعة من القردة ويتركهم داخل غرفة صناعية تبدو كغابة ويدرس ردود فعلهم، وعندما يتمرد أحد القردة يأخذونه بعيدًا ليأخذ المصل المهدِّئ..

تكررت الأفكار في هيئات مختلفة داخل عقل «داغر»..

تلك كانت طريقته الوحيدة في تقبُّل حقيقة ما شرحه له «راسبوتين» وما يراه هو الآن، بالإضافة للبكاء!

لذلك لم يأتِ له «راسبوتين» في المصحة عندما حاول استدعاءه؛ لأنه ببساطة كان في الباخرة.. لأنه «راسبوتين» الحقيقي..

ارتجافة أخرى تسري بجسده وهو يتذكر مصير «ابن خلدون» في المصحة، المقبرة..

«كارم العدوي».. «شهد».. كلاهما يمتلكان تلك الطاقة، التمرد أو الروح المختلفة أو أيًا كان الذي يجذب «موسى»، ولعل «آيتن» قد مرَّت في حياتها بما يؤهلها للاستحقاق كذلك، نعم.. نعم.. يهز «داغر» رأسه.. حتى هو نفسه كان مختلفًا بجنون الشك بداخله وحياته

البربرة.. يضحك «داغر»، ويمسح دموعه، ثم يغمض عينيه في ألم،

ويتذكر الآن كل شيء.. فتح عينيه.

نظر لأنبوب زجاجي آخر، به نصف جسد علوي لرجل بلا رأس، أنابيب موصلة، جسده يطفو وسط السائل، شيء ما أخبره أن هذا الرجل -أو بقاياه- هو زوج «سيلين».. ثم استقرت عيناه على الرأس الموصل بأسلاك عدة داخل أنبوب آخر.. وتبين ملامحه رغم السائل والشحوب وكل تلك الآثار جانبية، نعم هو زوج «سيلين»، العالم الذي امتلك الفندق في مدينة الضباب.. من الطبيعي أن يأخذه «موسى» كذلك.. لأن زوج «سيلين» لم يكن سوى...... أحد أشهر شخصيات التاريخ وأقدمها..

لماذا لم يسألوا «سيلين» عن اسم زوجها؟ لماذا لم يطلبوا منها أن تبحث عن زوجها في البئر اللعينة.. لقد رسم صورته لها قبل أن يختفي.. كأن شيئًا في عقله الباطن يحاول تحذيره من مصيره..

اعتدل «داغر» ناظرًا للرأس المقطوعة وغمغم: «في ظروف أخرى كنت سأعتقد أنك هلوسة تاريخية كذلك»..

كان الرأس المقطوع يخص.... انقطعت أفكار «داغر» بغتة عندما رفعت الطفلة، «رشيدة»، رأسها وقالت شيئًا ما، حرّكت شفتيها، لمح «داغر» زرًا أحمر مجاورًا للباب المعدني، فضغط عليه، انفتح الباب الزجاجي واعتدلت الطفلة التي كانت ترتدي فستانًا قرمزيًا جميلًا، وسارت لـ«داغر» قائلةً في دهشة:

- لماذا تبكي؟ هل تريدني أن أريك ما رسمتُه...

ابتسم لها «داغر» ومسح دموعه ثم قال:

- بالطبع.



CamScanner

ضحكت الطفلة ببراءة مردفةً:

- لقد رسمتك من خلف الزجاج، دعني أريك.

واقتربت منه، أخذ منها الصورة في حنان، ولوهلة شعر بثقل في قلبه، متذكرًا ابنه وزوجته قبل أن يفقدهما، ومحاولة «موسى» في أن يجعله يشك بنفسه وبحقيقته، كان هذا في بداية الثمانينيات، وذكريات الحرب حقًا كانت في روحه، تنهد «داغر» والتقط الصورة، وقال لـ«رشيدة»:

- أنا أيضًا أحب الرسم..

ثم توقفت عيناه عند الصورة.. كانت صورة مرسومة بشكل بارع له، وهناك مسخ، ملون بالأسود، ينقض على عنقه..

سمع الهسيس، ورفع رأسه، فابتسمت الطفلة كاشفةً عن صف من الأنياب وانقضَّت على عنق «داغر»..

***

سقط «كارم» أرضًا وهناك ألم حارق في صدره، الدماء تنزف بغزارة، وأمامهم انتصب «موسى» واقفًا..

طاك طاك طاك!

الهول متجسد في صورة هذا المخلوق، فارع القامة، يرتدي معطفًا طويلًا وطربوشًا، أبيض اللون، له عينان سوداوان تمامًا، أصابع طويلة وجلد شاحب، لسان مشقوق، وذيل طويل.. عدا ذلك بدت هيئته بشرية..

في نفس اللحظة التي صرخت بها «شهد».. ولارتياع «كارم» رأى مسخًا من الضباب يهم بالتهام عنق الفتاة وهو يخنقها..

«آيتن» تحدق بعيني «موسى» كالمسحورة.. وهو يطالعها بابتسامة

ويقول كلمات مقلوبة الأحرف..

ثم فجأة برز منه جناحا خفاش عملاق وأحاط «آيتن» بذراعيه

استعدادًا للتحليق مبتعدًا..

وتمتم «كارم» مبهورًا:

- هكذا إذًا كان يأخذهم من داخل الغرف المغلقة..

صرخت «آيتن» ومدّت ذراعيها مستنجدة بـ«كارم»، واستعد

«موسى» للتحليق..

***

ازرقّ وجه «شهد» وانتفض جسدها وهي تكاد تلفظ الروح..

***

ومن الضباب أتى هو..

على ألحان أغنية قديمة تتردد..

سيفتك بالميت الحي..

ويحارب المسخ الأعظم.

نبوءة قديمة لعرافة غجرية.

***

- إليكَ عنها يا مخلوق.

صدرت الصيحة الهادرة التي ارتجفوا لها جميعًا، وهم يحدقون بهذا العملاق ذي اللحية الضخمة والعينين الغائرتين، الذي قفز على «موسى» بكل شجاعة والتحم به، تراجعت «آيتن» مسرعةً لترتمي بين أحضان «كارم» الذي التقطها وهو يقول بذهول:

- هل.. هل هذا «راسبوتين»؟

قبل ثوانٍ من صيحة «راسبوتين» الهادرة، برز الأخير من الضباب
وانقضَّ على الضبع البشري ودقَّ عنقه..

قبل ثوانٍ من صيحة «راسبوتين» الهادرة كان الضبع البشري يجث
فوق «شهد» وقد انزلق لسانه داخل فمها بينما الفتاة تشهق محاولا
التنفس، تقتلها جثة حية بوجه ضبع، ثم برز «راسبوتين» فجأة من داخل
الضباب وانقضَّ على الضبع البشري..

حمله لأعلى وهو يصيح ثم دقَّ عنقه.. وصاح بعدها لينقض على
«موسى»..

- هل هذا هو «راسبوتين»؟

كرر «كارم» بذهول.. و«آيتن» تلتصق به.. «شهد» تفترش الأرض
تشهق وتحاول استعادة الحياة، هناك ظلال أخرى في الضباب...

رأتها «آيتن» وهمست:

- يا إلهي.

التفت «كارم» ورأى «شهد» تسعل وترتجف وهناك أطياف سوداء
تقترب منها في الضباب الكثيف المحيط بها..

تذكَّر «كارم» الفتاة وهي تسقط في الملجأ..

ثم تحرك بسرعة.. ومثله فعلت «آيتن».. بدا أنهم يسابقون الريح
محاولين الوصول لـ«شهد» قبل الأطياف..

الضباب يقترب.. الأشياء تهس..

«راسبوتين» يصيح..

طاك طاك طاك



@ART_OF_BOOK
CamScanner

[illegible] الإمام.. وتجاوب الشهقة بجثة مع الكارما..

[illegible] تركز عيونهم على الصراع

[illegible]

[illegible] أقوى إنسان بشري في مواجهة..

[illegible]

[illegible] التي لم يعرفها أحد، وآخر ما قاله

[illegible] الأخير من أخباره بالحقيقة:

- [illegible] موسى

قال الراسبوتين [illegible] قبل رحيله:

- [illegible] كما قلت لك..

[illegible]

[illegible].. موسى في مواجهة الراسبوتين!

الضباب لا يزال يقترب..

[illegible] موسى وانقضت عين الراسبوتين، فصرخ الأخير في [illegible] موسى [illegible] ثم نهض من مكانه بوجه دام [illegible]

الضباب يقترب..

[illegible] جسد [illegible] الذي اتخذه موسى [illegible] الأشياء [illegible] تزحف نحوهم..

[illegible] بينما يهتف الكارما:

- [illegible] الحرب.

[illegible] الضباب والأشياء المتحركة

المحيطة بسياج وبوابة الملاهي..

المكان الوحيد الخالي من الضباب هو بيت المرايا.. كأنها دعوة مسبقة للدخول..

هتف «كارم»: تبًا.. حسنًا.

ودخل ثلاثتهم بيت المرايا.

***

لم يعرف «داغر» ما الذي أثار ذعره أولًا، حقيقة أن لسانها مشقوق كالثعابين، أم إن أنيابها طويلة وحادة، أم ذيلها الذي يتدلى من أسفل فستانها وحذائها الذي كشف عن أقدام الضبع، حقق عقله كل تلك الاكتشافات بينما «رشيدة» تنقضُّ على عنقه وتلتهم من عنقه..

سقط «داغر» أرضًا خائر القوى، وانبثقت الدماء من فمه، جسد يرتجف..

سيموت الآن، لكنه سيموت بعد أن فهم كل شيء..

حتى كنه تلك المخلوقات، هم ليسوا من نسل «موسى» ولا شيء، هم نتائج تجاربه، لقد كان يهجّن البشر بالحيوانات، وربما الثعابين والزواحف كذلك، مثلما حاول البشر التهجين من قبل كذلك، الفارق فقط أن البشر هم الحيوانات بالنسبة لـ«موسى»، ونتائج تجاربه، بشر بوجوه ضباع، رجُل سحلية، فتاة ثعبان، موسى هو سيدهم وله يمتثلون، ما هو «موسى» بالضبط؟ هل هو حقًّا ساحر من قبائل العرب وصل لسر الخلود ومارَس السحر الأسود فسكنته الأرواح الشريرة من عوالم أخرى؟ أم هو ببساطة مخلوق فضائي، مثلما حاولت «سيلين» أن تكتب على المرآة في لحظة احتضارها، كائن قديم من مكان آخر



CamScanner

بعد في السماء، ربما طردوه من عالمه؛ لأنه شرير، ضحك «داغر»
بمكر رغم آلامه، فأخذ تلك السفينة وقرر دراسة البشرية، ما هو عُمر
موسى؟! لقد زار كل الأزمنة، لقد رأى «داغر» كليوباترا في ذات مرة،
ينفض جسده في ألم و«رشيدة» تواصل التهام عنقه، ورغمًا عنه انتابته
ذكرة غاضبة، لو كان مؤمنًا بنفسه حينها ولا يعتقد أنه يهلوس لكان
جلس أكثر مع عنترة وكليوباترا وشجرة الدر وغيرهم وتعلم من أسرار
التاريخ، طيلة عمره كان مفتونًا بالتاريخ.. جسده واهن الآن.. يتخيل
زوجته وابنه.. أنا قادم إليكم.. المعلمة داخل عقله تنظر له بصرامة
وتشير لشيء ما.. ينظر بإرهاق لما تشير إليه..

تغرز أنياب «رشيدة» داخل لحم عنقه، يمد «داغر» يده المرتجفة
يلتقط قلمها من جانب الورقة، ثم يقبض على شَعرها ويجذب رأسها
للخلف، تنظر له بهذا الوجه الثعباني المرعب، يغرز القلم كاملًا داخل
تجويف عينها.. تنشج الفتاة ثم تسقط وهي تخرُّ وتتلوى.. يضع «داغر»
يده على عنقه محاولًا إيقاف النزيف، لن يموت الآن، ليس قبل أن
يخبرهم بالحقيقة، فقط عليه فعل شيء واحد قبل الرحيل مترنحًا
ومتهاويًا وبالكاد يستطيع السير، يُخرج قداحة «كارم»، ويبدأ رغم
إعيائه في تهشيم الأنابيب الزجاجية..

وتساقطت الأجساد البشرية أرضًا مع طوفان السوائل..

ويا له من مشهد..

رقصة الموتى الأحياء..

انعكس اللهب على حدقتي «داغر»، وومض كل شيء داخل
عقله، شريط سريع من الأحداث المتلاحقة، القبطان.. فندق كابريني..
مبلين.. كامل العراف.. المصحة.. كارم العدوي.. آيتن.. شهد..

موسى..

يا للخبال.. عقله يصرخ والنيران تلتهم المكان، الواقع لم يكن واقعًا، أنت كنت في غرفة محاكاة.. داخل سفينة فضائية..

يسير «داغر» مترنحًا في الممر، النيران تشتعل من حوله، هناك صراخ لمسخ ثعباني يتلوى، لم تكن قد ماتت بعدُ إذن، يبصق دمًا، يسقط، يقف.. رؤيته تزوغ، يصل لنهاية الممر، يرفع رأسه وينظر للهوة السحيقة والبعيدة للبئر.. هذه البئر التي لم تكن سوى ممر بين غرفة المحاكاة أو معمل التجارب (المدينة) وبين باقي سفينة الفضاء..

ضحك «داغر» مرة أخرى، وهو يتأوه ألمًا، نحن في الفضاء السرمدي العتيد يا سادة، تطوف بنا سفينة «موسى» وسط الكواكب الأخرى؛ لأن المسخ أراد فهم طبيعتنا، ودراستنا، وما الذي فعلناه نحن كبشر عندما وضعونا معًا في مدينة أخرى؟ تصرفنا بنفس اللامبالاة، وظلت هناك أدوية فاسدة وزيجات فاشلة، حتى إن «موسى» كان يرسل بعض مسوخه للتنكر بشكل البشر، هذا البائع المسكين، زوجته لم تكن زوجته، أتمنى ألا يرى زعانفها أو أنيابها، دمعت عينا «داغر» من الضحك الهستيري، كان يحاول تسلُّق البئر وهو يتحدث مع الجماجم البشرية، لقد أخذكم «موسى» أليس كذلك؟ شرب دماءكم والتهم لحمكم، بعض الحيوانات للأكل وبعضهم للدراسة أليس كذلك؟ رائع هو هذا الموسى، متفانٍ في عمله بحق، فشلت محاولاته في التسلق فسقط أرضًا..

النيران تلتهم الممر في تلك اللحظة وتقترب منه، آلام كتفه المخلوع تعاوده، دعك من عنقه المفتوح والدماء التي تندفق منه بغزارة، لكنه رغم هذا يحاول وقف النزيف بيد ويعاود تسلق البئر مرة

كورت بالنسبة بعد كل شيء» يقول إنه من المستحيل الخروج من هنا، بينما تصيح ما تفكر به يا «كامل» أليس كذلك؟ وأنا أغمض عيني وأرى بوابة النار، فقط كن محقًا يا «كامل».. أيها العزيز الذي فقد رأسه.. ترتفع يده ويسقط بقوة ليزلزله ظهره ويترك يده عن المصرع الغائر في عنقه وتتدفق الدماء.. النيران تلتهم كل شيء في جنون.. يغمض «داغر» عينيه.

***

هم الآن في بيت المرايا.. يتلفتون حولهم في رعب..

في الخارج جسد «راسبوتين» ملقى أرضًا غارقًا في دمائه ولا وجود لموسى..

تراجع شهد للخلف وهي ترى انعكاساتها على عشرات المرايا من حولها..

ويهمس «كارم»:

- علينا أن نقف في دائرة، تلصق ظهورنا ببعض..

صمت تام..

مرايا في كل صوب

طاك!

تكاد «شهد» أن تصرخ فتضع «آيتن» يدها على فمها..

تفكر «آيتن»:

- لا تحدق بالمرآة كثيرًا وإلا لسوف يصيبك الجنون!

أو سترى «موسى» يقف خلفك لتجد أنك لست لوحدك، سيمد يده ويعصر قلبك.. ولسوف يجدون كدمات زرقاء غير مفسرة فوق

جسـدك.. لأن «موسي» هو الذي تحدث بصوت «رشيدة» خلال جسد «كامل» في جلسة تحضير الأرواح.. رجل طيب يهوى المزاح.. يحب دومًا أن يرى ردَّة فعلهم.. يمارس شتى التجارب فقط ليحاول فك طلاسم هذا اللغز البشري الذي يثير فضوله، الشعور! لسبب ما انتابت تلك الأفكار عقل «آيتن».. كأن موسى نفسه يبث جزءًا من سمومه في عقلها..

كانوا يسيرون في دائرة ثلاثية و«كارم» يتمتم:

- حاولوا النظر أرضًا، لا تنظروا أمامكم..

عشرت المرايا من حولهم.. تبكي «شهد» وتتمتم:

- لا أستطيع.

ثم ترفع رأسها وتنظر للمرآة ثم تصرخ..

كانوا أربعة في المرآة وليسوا ثلاثة.. «موسى» يقف خلف «شهد» أطلق صوتًا كالفحيح ومدَّ ذراعه داخل انعكاس ظهرها في المرآة وصرخت «شهد» في ألم رهيب، شاعرة بيد تقبض على قلبها..

صرخ «كارم» وهو يركل المرآة ليهشمها بكل ما أوتي من قوة فقط لينقضَّ عليه موسى من خلف الزجاج المهشم ويقبض على عنقه يشهق «كارم» وترتفع قدماه عن الأرض.. وترتجف «آيتن» وتصيح:

- اتركه.

لكن «موسى» يواصل التحديق بـ«كارم العدوي»، ويطقطق بلسانه ثم قال:

- قلبك شجاع، هو لي.. يا ابن أبنائي ودم دمائي..

فور أن قالها، وأمام أعين «آيتن» و«شهد»، انطلق ذراع موسى داخل صدر «كارم» الذي استطاع بمعجزة ألا يصرخ، بل حافظ على

وم الساخرة وألم الحقد، وانتزع «موسى» قلب «أكارم» من تجويف صدره بوحشية ليصبح «أكارم» قلبه ينبض بين يدي «موسى».. لا تدعهم يرونك ضعيفًا أبدًا.. ورغم أنها آخر ثوانٍ له في تلك الحياة، ظلت البسمة على وجه «أكارم» وقال:

- لا يرى المرء قلبه في يد آخر كل يوم، إجابتي هي لا يا «موسى».. لا أخشاك!

وجاهد «أكارم» كي يضحك، لكن الحياة فارقته.. وضع «موسى» جسده أرضًا في قليل من الاحترام، كأن بسالة «أكارم» قد جعلته يحترمه، ثم التهم قلبه في قضمتين فحسب، والتفت صوب الفتاتين، كلاهما كانتا تفترشان الأرض في رعب تبكيان لأهوال ما تريانه.

طاك..

طاك..

طاك..

يقترب «موسى» منهما، يتحرك كزاحف ليلي، تقبض «آيتن» على قطعة زجاج مهشمة وتصيح باكية وبيد مرتجفة:

- كفى.

لم يبالِ «موسى» بتهديدها..

فقط اقترب منهما بسرعة خارقة..

بالعينيه الزجاجيتين كالحتي السواد..

هو مسخ المسوخ وسيد الغيلان..

هو الرعب الخام الذي لم يفر منه بشر أبدًا..

انزلق لسانه أمام عيني شهد ولعق وجهها، ثم قبض على فروة

رأسها بيده المخلبية، وكذا فعل مع «آيتن»..

صرخت الأولى، وشحب وجه الأخرى..

حياتهما لم تكن سوى كابوس مريع.. وهناك آلام لا حصر لها تنتظرهما..

بدأ «موسى» يجرهما وسط صراخهما وهو يواصل السير كرجل غاب، ما لا تعلمه الفتيات أنه كان يأخذهما للغرفة الجميلة حيث أنابيب الاختبار والأجساد الملتحمة والمهجنة، وما لم يعرفه «موسى» أن «راسبوتين» لم يكن قد مات بعدُ، تجلَّت تلك الحقيقة له فور خروجه من بوابة بيت المرايا، عندما أحاطت ذراعا راسبوتين بعنقه وفتح فمه ليقضم أذن موسى ويبصقها جانبًا، ثم غرز أصبعه في عين الأخير وهو يصيح:

- عين مقابل عين يا مخلوق.

أطلق «موسى» فحيحًا غاضبًا وتخلَّت يداه عن «آيتن» و«شهد»، فهبَّت الأولى واقفة بغضب، وهي لا تزال ممسكة بقطعة الزجاج وصاح «راسبوتين» وهو يجذب رأس «موسى» للخلف:

- افعليها الآن..

لثوانٍ بدا أن عيني «موسى» تسحرها، تنومها مغناطيسيًا، تتحكم في إرادتها، لكنها تذكرت.. تذكرت المصحة وجلسات الكهرباء و«كارم».. وصرخت بغضب ثم نحرت عنق موسى.. وكفت يدها عن الارتجاف وهي تفعل هذا، في تلك الثانية لم يتملكها سوى الغضب العاتي..

أطلق «موسى» فحيحًا هائلًا وانسابت دماء سوداء لزجة من عنقه، فتركه «راسبوتين» يسقط أرضًا..

تنبض الشعلة أكثر فأكثر من عنقه..

يسقط الطربوش أرضًا..

ويفترش معطفه الأسود الأرض الرملية..

يحاول الزحف متململًا..

كانت "آيتن" تنظر له كالمأخوذة، والشهقة ترتجف وتحيط جسدها وعينيها في غير تصديق..

أخذ "راسبوتين" الزجاج من يد "آيتن" وسار نحو "الموسي"، وركله بقدمه، فأطلق "الموسي" فحيحًا أخيرًا، وغرز "راسبوتين" الزجاج في عنق "الموسي" بالكامل..

قال "الموسي" يتقطع ويتلوى..

كان يخف الباقي مثل الجحيم يؤدي رقصة الموت الخاصة به..

قال..

ثم همدت حركته تمامًا.. وحدقت عيناه السوداوان بالفراغ..

بكت "آيتن" بحرارة وهمست:

- الكارم..

لاحقتها الشهقة وشاركتها البكاء. التفت إليهما "راسبوتين" في صمت وقال بعربيته الثقيلة:

- لقد ولّى الرعب.

ثم أشاح بوجهه، ناظرًا بعيدًا حيث البيت والتلة.. والبئر..

***

السؤال تقترب، الذاكرة تجمع عينيه، وجهه شاحب، يضع يده فوق أنفه متمتمًا:

- لقد صُفيت تمامًا من الدماء.

لكـن صوته لم يخرج؛ لأن هناك دماء حبيسـة في حلقه وجز

حنجرته قد انكسر مع سقطته الأخيرة..

سيموت لا محالة، لكن محاولة أخيرة على الأقل..

نصبح ما نفكر به..

يكاد أن يتخيل «كامل» يهيب به:

- نصبح ما نفكر به، إن الله سبحانه وتعالى عند حسن ظن عباد

«داغر»، قاوم، اصمد.. كل من الإيمان والخوف لهما تقديس لشيء

تراه أمامك في تلك اللحظة.. استخدم ألمك للنجاة، بدلًا من السقو

في الهاوية، هل تتذكر ما قرأته؟ لو حدقتَ في الهاوية فلسـوف تحد

بك، وإن واصلتَ التحديق سترى النور بعد الظلام! اصعد من البئر

الخـوف عبادة لشـيء لم يحـدث لك بعدُ يـا رجل.. أبدلـه بالإيمان

هممـم.. وللدقة كل مـا كنت تخافه قد حدث لـك بالفعل، لم يبقَ لك

سوى النجاة!

يهـز «داغر» رأسـه رغـم إعيائـه، ويتمتم بسـخرية محدثًـا إحدى

الجماجـم في البئر: لا يزال كامل أسـتاذًا في التحفيـز حتى بعد فقدانه

لرأسـه.. حسـنًا، لِمَ لا، على الأقل سـوف أتمكن من القـول في نهاية

المطـاف بأني قـد حاولت.. ولسـوف أتمكـن أيضًـا من القـول بأني

تحدثت مع هياكل عظمية داخل بئر سحيقة وذهبت للفضاء!

ضحك «داغر» وسعل وتأوه في نفس الآونة..

تتشبث يده بنتوء الهيكل العظمي في الجـدار، يصعد، واحدًا تلو

الآخر.. يواصل الصعود.. وهو شبه غائب عن الوعي..

لا تحركه سوى غريزة بقاء، إرادة حياة..

نصبح ما نفكر به...

يواصل التسلق.. هل يحلم؟ أم إنه يقترب من مخرج البئر..

لا تنظر للأسفل.. فقط واصل التسلق..

الإعياء يتزايد، هيا أيها الوغد لن تسقط الآن.. يشتد سواد الليل قبل بزوغ الفجر، واصل التسلق.. لقد اقتربت..

يسمع صوت المذيع إياه داخل عقله وتهليل الجمهور في الاستاد، هيا.. سيفعلها، سيتحمل الصعاب التي تكاد أن تفتك به؛ لأنه موشك على الوصول.. ويصبح المذيع مهللًا: لربما هناك نور ما دام هناك ظلام.. «داغر» يكاد يصل لحافة البئر يا سادة!

تمتد يده لتقبض على حافة البئر، ويدفع بثقل جسده لأعلى..

لقد فعلها!

يخرج من البئر، النيران بالأسفل تبدو وكأنه يخرج من الجحيم نفسه..

يسقط أرضًا، ينظر للضباع الملتفة حول البئر، ضباع أخذها موسى مثل البشر ليهجنهم معًا..

تلك فرصة جميلة للضباع كي تهاجمه وتفترسه حيًا، رائحة الدماء تثيرهم، يزحف «داغر» داخل البيت، بينما الضباع تقترب وتتشمم قدميه..

يفكر: إليكم عني يا ضباع، آه بالمناسبة أنتم في الفضاء هاها..

يضحك.. يبكي.. يسعل.. ألم حارق في رقبته.. يدخل البيت في اللحظة التي كشر فيها أحد الضباع عن أنيابه وانقض على قدم «داغر»



CamScanner

وبدأ في التهامها.. يحاول «داغر» الزحف، فقط لو وصل للسيف العربي بجوار تمثال هذا الفارس المملوكي، ماذا كان اسمه؟ الضبع سينهش لحم ساقه لو كفَّ عن الزحف مبتعدًا عنهم.

يزحف «داغر» ويرفع يده ليدير مقبض الباب، الضباع تبدأ بالحركة بعدما تابعوه..

ينفتح الباب.. أحد الضباع يتشمم الدماء النازفة من «داغر»، ث تتسع عيناه في شهوانية..

يزحف «داغر»، يكشر أحد الضباع عن أسنانه وينهش من لحم ساق «داغر»..

لكن الأخير يواصل الحركة، لقد مرَّ جسده بمختلف أنواع الألم في تلك الليلة، لن تضيره أنياب ضبع في شيء، يضحك بسخرية، كان بالكاد يجر الضبع معه وهو يزحف نحو التمثال، ويصل أخيرًا..

يضرب التمثال بقوة فيترنح السيف، فقط لا تسقط على عنقي، ضربة أخرى، يسقط السيف ويجفل الضبع للحظة، ثم يثير منظر اللحم الممزق جنونه، فيعاود الانقضاض، يقبض «داغر» على مقبض السيف، تجاهل كتفك المخلوع، وعنقك الممزق، وحقيقة أنك تحتضر، فقط ارفع السيف أرجوك..

يا إلهي لكم هو ثقيل..

يرفع «داغر» السيف وتلك المرة ابتلع الدماء في فمه وصرخ رغم حنجرته المكسورة، هوى السيف على وجه الضبع، فتفاداه الأخير، هنا غرزه «داغر» في بطنه وانفجرت الدماء وسقطت أحشاء الضبع الذي خرَّ صريعًا، وكان هذا كافيًا لباقي الضباع أن تتراجع..

لن يقوى على الحركة أبدًا،
سند «داغر» رأسه للخلف في إرهاق،
أغمض عينيه..
يستطع اللعاب إليهم في الملاهي،
رشيدة لم تكن «رشيدة».. يا إلهي هل ينطبق الأمر على «رئيفة»؟
يجهم في خطر..
أغمض عينيه، قوة جذب الأفكار تلك، ربما يأتون هم إليه بحثًا
لو كانوا أحياء..
في اللحظة ذاتها كان الضباب ينقشع مبتعدًا، وقد التفَّت «آيتن»
والشهداء حول «راسبوتين».. وقام الأخير بعدها بحمل جثة «كارم»
وقال:
- لقد كان محاربًا شجاعًا.. رجل لا مثيل له، لم أرى من يمتلك
شخصية قوية كتلك مثله..
ثم ساروا كأنهم في جنازة مهيبة صامتة، وخرجوا من الملاهي..

•••

الدقائق تمر، وجه «داغر» يزداد شحوبه..
يده ترتخي مرة أخرى.. سيموت الآن..
إنها النهاية..
يتخيلهم قادمين من أجله، يصعدون التلة..
أنت وحدك يا «داغر»، لم ولن يأتي أحد لأجلك و...
يراهم يقفون على مشارف البيت.. يتمتم:
- هل أنتم حقيقيون؟
ثم انتبه لجسد «كارم»، المحمول بين ذراعي «راسبوتين» وأغمض
«داغر» عينيه في ألم، وقال «راسبوتين»:

- سأدفنه دفنًا يليق به.

أما «شهد» فقد اندفعت نحو «داغر»، ونظرت لوجهه الشاحب وصاحت في امتقاع:

- إنه يُحتضر.

اقتربت منه «آيتن»..

وتذكر «داغر» القبطان وهو يحاول الإدلاء بالحقيقة للجميع في لحظته الأخيرة.. سيفعل مثله..

ن ح ن ف ي س ف ي ن ة ف ض ا ء

لكن «راسبوتين» اندفع نحوهم، وحمل «داغر» ثم أرقده فوق منضدة..

- رويدك أيها الرجل الضخم، ألا ترى أني أتألم؟

وتحدث «راسبوتين» إزاء نظرات «شهد» و«آيتن»:

- لقد حاولوا تسميمي وإطلاق الرصاص عليَّ وإغراقي لكني نجوت، قبل أن ينام الجميع وأجد نفسي هنا، أنا نجوت من عزازيل كذلك، أنا «راسبوتين».. وهذا الفتى صديقي.

نظر «داغر» بتأثر للرجل رغم حالته، في نفس اللحظة أجرى «راسبوتين» أمامهم أغرب عملية نقل دم رأوها في حياتهم، لقد جرح ساعده بأظفره، جرحًا غائرًا وعميقًا، وضغط بقوة وترك الدماء تتدفق داخل فم داغر.. ظلت تلك العملية تدور لدقائق، وبعدها تم ما هو أبشع، لقد هشم قطعة زجاج وأخذ قطعة قماش من على المنضدة بعدما قطعها وبدأ يخيط الجرح الغائر في عنق «داغر».. الأخير كان قد فقد وعيه، تراجع «راسبوتين» بفخر، وإن بدا عليه قليل من الإعياء بعد عملية نقل الدم، فسار بخطى ثقيلة ودفن وجهه في بطن الضبع، وبدأ يجرع الدماء كذئب يرتوي من بحيرة..



CamScanner

تبادلت «آيتن» و«شهد» نظرات حيرة عظيمة، ظل «راسبوتين» يقذب الدماء لدقائق ثم اعتدل ومسح فمه بكم ثوبه العملاق..

ونظر لـ«داغر» ثم قال للفتيات:

- سوف يستيقظ ليلًا.

- الوقت دومًا ليل.

- سوف يستيقظ بعد حين..

ثم خرج «راسبوتين» وجلس أعلى التلة..

وبعد وهلة طويلة من الزمن، فتح «داغر» عينيه بوجه شاحب، اعتدل ببطء وتأوه من ألم كتفه وعنقه، كانت الفتاتان قد ضمدتا وطهرتا ما حدث لقدمه من الضبع بما وجدتاه من نيران وأقمشة كذلك.. وكانت «شهد» تقول وهما تفعلان هذا:

- هكذا استطاعوا النجاة في العصور الوسطى..

أما الآن، فها هو ذا «داغر»، ينظر إلى «شهد»، و«آيتن» التي قالت بحزن:

- لقد قام «راسبوتين» بدفن «كارم»..

أومأ «داغر» برأسه في ألم، لربما رحل كارم العدوي، لكن مغامراته وحكاياته باقية للأبد، هو يعرف هذا جيدًا، تنهد ثم نظر لـ«شهد» قائلًا:

- كيف لا أزال حيًا؟

أشارت في إجابة صامتة لـ«راسبوتين» الجالس أعلى التلة بالخارج..

قطب «داغر» جبينه، وعندما تحرك شعر بدورته الحيوية تتجدد.. وبآلام غريبة.. وبطاقة في الآن ذاته..

نظر «داغر» لـ«شهد» و«آيتن» وقال:

- نحن في سفينة فضاء.

- أعلم هذا، لقد حكى لنا «راسبوتين» كل شيء..

وأضافت «شهد»:

- لقد اختطفنا «موسى»، عندما يصل هو للأرض ينام الجميع، ربما تلك إحدى قدراته العقلية، أخذ منا البعض كعينات، ووضعنا في المختبر، يراقب ردود فعلنا.

وتابعت «آيتن»:

- يختطف زوج سيلين ثم يتظاهر بتلبُّس روح «رئيفة». داخل جسد «كامل» يقنعنا بأن «رشيدة» عاشت منذ مائة عام عندما وقعت جرائم مماثلة.

فيرد «داغر»:

- والواقع أن «رشيدة» لم تكن سوى مسخ مهجن آخر ناجم عن تجارب «موسى» علينا..

وابتلع «داغر» ريقه في صعوبة، هل شفيت حنجرته المكسورة؟ هز رأسه وتابع:

- كنا عينات بشرية بالنسبة لـ«موسى».. كأنه كان يسعى لفهم دوافعنا، واللغز خلف عقولنا وأرواحنا، ومشاعرنا، لهذا كان يأخذ للمصحة كل من يبدي عواطف، عينات بشرية عشوائية من أزمنة مختلفة، لعله بدأ بالملوك والشعراء والمحاربين والفنانين، ثم لم يجد هؤلاء في العصر الحديث فأخذنا نحن.. من أي عام أنتِ يا شهد؟

ابتسمت للسؤال ثم أجابت:

- ١٢٩١.. رغم هذا انسابت لي بعض ذكريات مَن حولي؛ مثل أمر الذهاب للقمر في الستينيات، لو لم يكن كذبة بالطبع ها.. ماذا عنك أنت؟

- ٢٨٩١.

هزت «آيتن» رأسها في جنون ثم قالت:

- وأنا من عام ٢٠٢٤.

سار «داغر» ببطء خارجًا من البيت؛ لأنه يريد طرح سؤال أخير على «راسبوتين» الجالس بالخارج، بعدما حكوا له عن إنقاذه لهم من «موسى».. ولكن «شهد» استوقفته وهتفت:

- هل سوف نستطيع العودة أبدًا لحياتنا الحقيقية؟

توقف «داغر» والتفت اليها، وقال:

- أي شيء يمكن أن يحدث..

وكرر الجملة وهو خارج من البيت، في حين تشابكت أنامل شهد بيد «آيتن» بعهد صامد لصداقة جديدة لهؤلاء الذين يعرفون الحقيقة..

أما «داغر» فقد سار وجلس بجوار «راسبوتين» الذي قال دون أن ينظر إليه:

- بم تشعر؟

- أشعر بالروعة، قدمي لا تؤلمني حيث هاجمها الضبع، الحقيقة أن الجرح يلتئم بسرعة غريبة، وكذلك عنقي، ولم أعد أشعر مطلقًا بآلام كتفي، وهم حكوا لي عن عملية.. هم.. نقل الدم التي قمتَ بها.. وكيف أنك تغلبت على «موسى»، بل وأنك عدتَ من الموت وواجهته مرة أخرى داخل بيت المرايا..

التفت «راسبوتين» صوبه، كان يضع عصابة عين الآن؛ ليخفي تجويف عينه الفارغ، العين التي أخذها «موسى»، ويبدو كقرصان، وفي الأغلب لو رآه القبطان الراحل لتبارز معه، ورد «راسبوتين»:

- النساء يهوِّلن دومًا قصَّ ما حدث..

- إذن أنت لم تجعلني أشرب من دمك، ثم ذهبت أنت لتفرغ دماء الضبع داخل جوفك، هل تعلم أنه وفقًا لكتب التاريخ هناك نظريات عدة حول محاولات العديدة لقتلك، بعضهم قال إنك كنت تأخذ جرعات من السم لتبني مناعة داخل جسدك، وقوتك البدنية هزمت السكين والرصاص، لكن أحدًا لم يفسر نجاتك من الغرق.. آخرون نسبوك لسحر النيكرومانسي وفنون السحر الأسود.. والآن أنا كنت سأموت لا محالة وأنت أنقذتني.. واعتقدت أنك كنت ستنقذ «كارم» كذلك لو لم ينتزع موسى قلبه.. لا يمكنك إعادة الموتى للحياة بعدما يفقدون قلوبهم ويلتهمها أحدهم، لكنك تستطيع إنقاذ المحتضرين عندما يشربون من دمك أليس كذلك؟

ثم طفق «داغر» يدندن بالأغنية القديمة:

- را را راسبوتين..

قبل أن يبتسم مردفًا:

- أشعر بحيوية غريبة، نعم، نحن في سفينة فضاء، وقد حللنا لغز جرائم الموسى البشعة وسبب اختلاط الأزمنة، أما المؤامرات التي تحدَّث عنها القبطان فهي أفعال البشر المعتادة ببعضهم، لقد وضعنا «موسى» في مختبر فتصرف بعضهم مثلما يتصرفون بنفس الشكل الأحمق إياه، ولربما اخترعوا نقودًا ليعبدوها وقنابل نووية وحروبًا لو كان «موسى» قد شيَّد لهم مدينة أخرى، من ينجو منهم هو من يتصرف بلا مشاعر، لكن انظر إلينا، نحن أصحاب مشاعر، وقد نجونا، حتى في المصحة لم نستسلم، لم يأخذوا منا عقولنا..

- هل تريد الوصول لنقطة بحديثك الطويل هذا؟ لقد بدأتُ في الندم الآن على إنقاذك من فرط ثرثرتك..

يمس (داغر) عنقه، وصفَّر ثم قال:
-لقد التأم الجرح تمامًا، وفي جسدي طاقة وحيوية غريبة، جرح التأم كذلك، فقط أشعر بقليل من الظمأ، الحمد لله لوجود نوع البس كذلك؟ حسنًا.. هناك سؤال أريد أن أطرحه عليك.. لم أنك هناك نظرية قديمة بشأن توصلك لنوع خاص من السحر يعتمد على تجديد دورة حياتك وعلاج جراحك التي كان المفترض أن تودي بحياتك، أعلم أن هناك نظرية أخرى أن تلك قوة شخصيتك وعقلك، لكن علاجك لي بدمائك لا يندرج بالضبط تحت النظرية الثانية.. إذن أنت ساحر حقيقي.. آه ثم لكن مسألة الدماء تلك، لا مفر من طرح السؤال الآن..
نظر (راسبوتين) لـ(داغر) وسأله الأخير:
-الجريجوري يافيموفيتش راسبوتين!.. هل أنت مصاص دماء؟
***
داخل البيت وقفت كل من (شهد) و(آيتن) أمام تمثال الفارس المملوكي، وتحسست شهد ذراع التمثال، ثم تنهدت ونظرت لـ(آيتن)، وكررت كل منهما:
-أي شيء يمكن أن يحدث..
-لا أتخيل أني سأقضي حياتي في مدينة صناعية، الأمور تختلف عندما تعرفين الحقيقة.
-ربما تقضي وقتًا هنا في البيت، ربما طاقة السواد بداخله تختفي مع الوقت.
-وماذا عندما يحل الضباب؟ وتلك الأشياء بداخله؟ وهؤلاء الذين يخرجون من المدافن بوجوه الضباع.

- وما الذي سيحدث لك وأنت تسيرين في القاهرة ليلًا، وهناك لص على دراجة بخارية يهم بسرقة حقيبتك، ما الذي ستفعلينه؟ سننجو ونواجه الخطر.

رفعت «شهد» حاجبيها وقالت لـ«آيتن»:

- اللص يخاف، لكن الضباع البشرية القادمة من التراب لا تشعر بالخوف..

ثم ابتسمت قائلة لـ«آيتن»:

- أنت شجاعة للغاية.

- تعلمت هذا من صديق قديم، آه تبدو تلك وكأنها ذكريات بعيدة من حياة أخرى أو هي حياة أخرى بالفعل، يا لجنون الأعوام والذكريات والحياة.

ارتفع حاجبا «شهد» واتخذت مقعدًا قائلةً:

- يبدو كصديق مثير للاهتمام، وحكايته تبدو كحكاية غريبة، احكيها لي..

ابتسمت «آيتن»، لن تكون أغرب من حكايتهم هم، وبدأت الحديث:

- كان يا ما كان.. هناك رجل يدعى «حاتم» قابل رجلًا آخر يُدعى آ..

وواصلت «آيتن» سرد حكايتها لشهد..

وفي الخارج جلس من كل «داغر» و«راسبوتين»، أعلى التلة، ينظرون للمدينة

●●●

وها أنا ذا، لقد وفيتُ بوعدي معكم أليس كذلك؟ وحكيتُ لكم كل شيء.. حتى وأنا أزحف أرضًا، طاك، معطفي يزحف معي، طاك،

وأرفع رأسي لأعلى لأجد السماء المظلمة، في نهايتي تكمن بدايتي كما تقول العبارة القديمة، تعلمتها من شاعر قديم وأنا أمزق جسد لأعرف أسراره، من قال إن الرغبة لن تصل بك للمعرفة؟ أنا قد وصلت، وأتوا هم إليَّ، وذهبت أنا لهم، طاك، أبناء أبنائي ودم دمائي، طاك طاك! قلت لكم إنني سوف أحكي لكم عن المرة التي كدتُ أن أموت بها.. عندما كاد هؤلاء البشريون مع مصاص الدماء ،هذا النوسفيراتو،هذا أن يفتكوا بي.. ولاحت لي نهايتي، بعد كل الدهور والقرون التي عشتُها، تلوح لي نهايتي، ساخرة وغير مبالية، عجول وحازمة..

لكني أطلقت فحيحًا في وجهها، فولَّت مرتبكة وتراجعت للخلف.. لم تحن لحظتي بعدُ..

أواصل الزحف.. ثم أبدأ في النهوض.. تتزايد سرعتي..

طاك ! طاك ! طاك !

هل تعرفون الآن سبب خوفكم من الظلام؟ طاك، لأني هناك، خلف كل مرآة، وسط الظلال.. طاك!

أفلا تطربون؟

يا أبناء أبنائي..

يا دم دمائي..

اسمي هو «موسى».. وتلك كانت حكايتي..

***

# النهاية

@ART_OF_BOOK

# عيون الأفعى

حالات اختفاء غامضة تقع في المدينة، الضحايا يختفون من غرفهم الموصدة فجاة.. ومحقق مهووس بنظريات المؤامرة، يقوده التحقيق لعمل جلسة تحضير أرواح مرعبة.. مع كتاب قديم يحمل اسرارا مهولة.

في هذه الرواية:

. بيت عتيق مهجور مسكون بالأسرار، وبئر شيطانية، ومجموعة أصدقاء يحاولون النجاة معا من مطاردة كيان ملعون.

. ما هي حقيقة ذلك الكيان المرعب الخاطف للأرواح؟

. اين يكمن السر الحقيقي وراء خوف ابن ادم القديم من الظلام؟

. كيف يمكن كشف الأسرار من خلال مذكرات ناجية وحيدة قبل قرن من الزمان؟

في النهاية، حاول الحفاظ على ثباتك عندما تكتشف حقيقة تلك الجملة: "ص ن ن ح.. ي ن س ي ا.. ف ف": فالنهاية صادمة أكثر مما تتخيل.

خالد أمين

كاتب وروائي مصري ولد عام 1988م، يعمل محاضرا أكاديميا في قطاع الجامعة، ومدرب في شركات خاصه اهتم بالمدارس الأدبية الحديثة، والكتابة السينمائية، وأدب الرعب، والخيال والجريمة صدر له عدة روايات منها: "انهم يأتون ليلا"، و "ليلة ظهور القرين"، و "زائر منتصف الليل" و "وقريبا سيحل الظلام"، ورواية "جرائم الغراب السبع" عام 2024، ورواية "ليلة في ضيافة الكونت" 2025

دون
للنشر والتوزيع

تدوين عربي
للنشر والتوزيع

9 786038 403211